أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم

تأليف
أحمد بن محمد طاهوني

الكتاب الأول

شكر وتقدير

يسرني أن أعبر عن أجزل الشكر وصادق التقدير للرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – إدارة مراقبة الكتب وطبعات المصاحف – بالرياض على التفضل بمراجعة هذا الكتاب – الكتاب الأول – والإذن بطبعه بمقتضى الخطاب رقم ٦٧٦٧ / ٥ / المؤرخ في ١٤١٠/١٠/٢٨ هـ .

ويسعدني أن أقدم أخلص الشكر لوزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية – الإعلام الداخلي / إدارة المطبوعات / جدة على العناية بهذا الكتاب – الكتاب الأول – والإذن بطبعه بمقتضى الخطاب – المؤرخ في ١٤١١/١/٨ هـ .

الطبعة الأولى عام ١٤١١ من الهجرة
١٩٩٠ من الميلاد

«حقوق الطبع محفوظة للمؤلف»

بسم الله الرحمن الرحيم

„ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ „

العنكبوت : ٤٣

* * *

„ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ
مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ „

الزمر : ٢٧

للمؤلف :

* مع القرآن الكريم .
* مرشد الدعاة إلى الله « دراسة وتطبيق » .
* رياض الفالحين ومنار السالكين .
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم « الكتاب الثانى » .
* أخرج « كتاب الشكر » للإمام المحدِّث ابن أبي الدنيا مع زيادات ومقدمة وتعليقات .
* إلى البرهان يا أولي الألباب .
* أذكار ودعوات مباركات .
* يوم الفرقان .
* زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء – ﷺ –
* طُوبىٰ للغرباء « رسالة » .
* كيف نربِّي ناشئتنا ؟ « رسالة » .
* في فجر الإسلام « عرض قصصىّ » .
* دار السلام « في وصف الجنة وأهلها » .
* المخدِّرات شرٌّ مستطير « رسالة » .
* من حِكَمِ التّحريم بالرَّضاعة وأحكامه « رسالة » .
* الرجل والمرأة « الحقوق والواجبات » رسالة .

تحت الطبع :

* أم القرآن « الشافية الكافية » رسالة .
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم « الكتاب الثالث » .
* الكوكب المنير في أدب النفس وتهذيب الضمير .
* مختصر فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفْرد « للإمام البخارى » وهما مجلدان .
* الإسلام والعمل « مجموعة مقالات » .

***

تقديم

الأمثالُ من أفضل السبلِ للتربية ، وتقويمِ المسالكِ ، وإصلاحِ النفوس ، وصقْلِ الضمائر ، وتهذيبِ الأخلاق ، وتنميةِ الفضائلِ السامية .

وقد ضَرَبَ اللهُ عز وجل الأمثالَ لعباده في كتابه العزيز ، كما جاءت الأمثالُ في الحديث النبويِّ الشريف لغايات كريمةٍ عاليةٍ منها ما يتصل : بتصحيح العقيدةِ وتنقيتها من كل شوائبِ الشِّركِ ، إذ التوحيدُ النقيُّ الخالِصُ هو أساس كلِّ دِينٍ جاء به الوحْيُ من عند الله منذ آدمَ إلى نوحٍ إلى إبراهيمَ إلى عيسىٰ إلى محمد خاتم المرْسَلين والنبيِّين عليهم جميعا أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم ، واللهُ عزَّ وجلَّ يقول لنبيه محمد ﷺ من سورة الأنبياء : ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ** ﴾[1] ، ويقول سبحانه في هـٰذه السورة : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[2] .

وقد ضُرِبَت الأمثالُ في القرآن لبيان ضلال المنافقين ، وزيْغ الملحدين ، وفسادِ معتقدات المشركين الذين جعلوا لله ولدًا أو نِدًّا ، أو اتَّخَذُوا الشفعاء والوسطاءَ ليقرِّبوهم إلى الله زلفى .

كما عُنِيت الأمثالُ بإقامة الحُجَج على وجود الله عز وجل ووحدانيته وكمالِ صفاتِه ، وَسَوْقِ البراهينِ على أنَّ البعث للحساب والجزاء آتٍ لا ريبَ فيه ،

---

(١) الآية : ٢٥ .

(٢) الآية : ١٠٨ .

وعلى صِحَّة نُبوَّة محمدٍ ﷺ ، وأنه مبعوثٌ إلى الناس كافة .

هٰذا إلى جانب الأمثالِ التي تتصلُ بتربية النفوس على السخاء والكرمِ والبذل في سبيل الله ، ووجوه الخير ، والإخلاص في العمل ، وما يتصل بتنمية نوازع الخير في الإنسان ، وقَمْع كل بادرة للشر .

إن الأمثال في القرآن الكريمِ تُنير الطريق أمام عقل الإنسان ، وتصحح نظرته نحو الكونِ والحياة ، وتبصِّره ، وتَهديه ، وتُشوِّق الإنسان إلى معالي الأمور ، وتُنمِّي في القلوب المخلِصَة حبَّ الحق وكراهيةَ الباطل ، وتَبعث في النفوس الرغبة في الخير ، واجتناب الشر .

والأمثال في القرآن الكريم تُقرب المعاني بما يعرفه الناس ، ويرونه بعيونهم ، وَيُحِسّونه بأنفسهم ، وتُمكنهم من إدراك ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ليَعْقِلُوه ويفهموه ، وليدركوا ما يُرجى من المثَل من توجيهٍ إلى الخير ليعملوا به ، وترغيبٍ في الحقِّ ليتمسكوا به ، وتنفيرٍ من الشر والباطل لِيَربأ أهلُ العقل والذوقِ السليم بأنفسهم عن الاتِّصاف بشيءٍ منه .

إن الأمثال في القرآن الكريم لونٌ من ألوان الهدايةِ الإلٰهية تحضُّ النفوس على البِرِّ وتُغريها بالهُدى والخير ، أو تمنعها من الإثم والسوء ، أو تدفعها إلى فضيلة ، أو تدفع عنها شائِنةً ، أو تمنع نَقِيصة ، وقد تضمنت من الحِكَمِ والأحْكَام وأنواعِ الهداية ما لابدَّ منه لبناء النفسِ الإنسانية بناءً سليما ، ودفعِها في مدارِج الكمالِ الإنسانى بجانبيه الروحى والجسدى .

لقد أبرزت الأمثالُ المعقولَ في صورة مُجَسَّمة ، وقدَّمت المعنوىَّ في ثوب محسوس ، وفَصَّلت المجمل ، وأوضحت المُبهم ، وجعلت ما غاب عن

الإنسان كأنه ماثلٌ أمامه وبما يَفهمُه ويُدركه للإفهام والبيان ، والإمتاع ، وللإقناع والتأثير .

وإن الغاية هي إعدادُ النفوس لليوم الآخر ، وتهيئتها لأن تكونَ أهلا لرحمة الله في الحياة الأبدية ، ولذا فإن للأمثال تأثيرَها المبارك في تهذيب الطبائع ، وتقليم النوازع الشِّريرة ، والتخفيف من غلواء النفوس ، والحدِّ من ضراوتها ، وبَعْثِها على التواضع والرفقِ والإيثار ، والبُعْدِ عن الغرور والكبرياء .

لقد تناولت الأمثال القرآنيةُ مجالات عِدَّة : فضُرِبت الأمثالُ للإيمان ، وللكُفر ، وللعلم النافع ، وفضحت النفاق ، وحَضَّت على الإنفاق ، ورغَّبت في الخير ، ونَدَّدت بالشر ، وصوَّرت الطيِّب والخبيث ، والصالحَ والطالح ، وأقامت الأدلة والبراهين ، وتضمنت خيري الدنيا والآخرة .

وهٰذا الكتاب « أمثالٌ ونَمَاذِجُ بَشَرِيَّةٌ من القُرآنِ العظيم » يحاول أن يقدم أمثالا قرآنيةً مقرونةً بإلقاء الضَّوء على المعاني وبيانِ بعضِ الحكم والأحكام المتَّصلة بها ، وتوجيهِ النفوس نَحْو ما تدعو إليه من الخير ، وحفز الهمم للتمسُّك بالحق ، والثباتِ على الصراط المستقيم .

وفي ميدان الهداية إلى الخير ، والتنفير من الشر يُقَدِّم القُرآن الكريمُ نماذجَ لنفوس بشريةٍ ، وإنَّ في دراستها لَعِبْرةً ، وفي تدبرها عظةً ، وكم في القرآن الكريم من نماذجَ لأولياءِ اللهِ الصالحين : من النبيين ، والحُكماء ، والصِّدِّيقين ، والرَّبانيين ، إنها النماذجُ الصالحةُ في مُعتقداتها ، ومَسالكها ، وأخلاقها ، في قلوبهم نورٌ ، وفي عملهم نورٌ ، وفي أقوالهم نورٌ ، كما قَدَّم الكتابُ العزيز نماذجَ لنفوسٍ انطوت على الشرِّ والسوءِ ، ونفوسٍ انسلخت مِمَّا يدعو إليه العلمُ

النافع ، والآياتُ البيِّناتُ بعد أن عَلِموها ، فلم يُشَرِّفْهم العِلْمُ لأنَّهم لَوَّثوا أنفسَهم بالعُجْبِ والغُرور ، وطلَبِ الدنيا وإيثارِها على الآخرة ، وقدَّم نماذجَ تتلوَّن كما تتلوَّنُ الحَرباء ظاهِرُها يَسُرُّ ، وباطِنها شَرٌّ وَضُرٌّ .

والرجاء أن تقرأ – يا أخي – هٰذا الكتابَ ، وتقلِّبَ صفحاتِه بإنعام وتدبُّرٍ ، وتدعو لأخيك بالعفو والعافيةِ والرحمةِ في العاقبة ، والهِداية في الدنيا ، والموتِ على اليقين الصادقِ ، والإيمان الصحيح .

وأسألُك يا ربِّ ولأبي وأُمِّي رحمتَك وعفْوك وسترَك ، ومغفرتَك ، ولأهلي ولأولادي الهدايةَ إلى الصِّراط المستقيم ، والتوفيقَ للعملِ الصالح وتنويرَ البصائر .

أحمد بن محمد طاحون

جدّة في ذي الحجة عام ١٤٠٨ من الهجرة
عام ١٩٨٨ من الميلاد

* * *

تمهيد

١ - في مَعْنى :
« المِثْل والمَثَل »

المِثْلُ فِي اللُّغَة : الشِّبْهُ والنَّظِيرُ ، وَجَمْعُه أَمْثَالٌ .

والمَثَلُ : المِثْلُ والمَثِيلُ أي الشِّبْهُ ، والمَثَلُ الحُجَّةُ ، والحَديثُ ، والصِّفَةُ ومنه : ﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1] ، والمتماثلان : المُتشابِهَان ... وتَمَثَّل بالشيءِ ضَرَبَهُ مَثَلًا ، ويُقال : تَمَثَّلَ الشيءُ له ، وفي التنزيل : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[2] ، والمِثَالُ : المِقْدارُ والقِصَاصُ ، وَصِفَةُ الشَّيْءِ ، وَجَمْعُه أَمْثِلَةٌ ، وَمُثُلٌ ، وتماثَل العَلِيلُ قارَبَ البُرْءَ ، والأَمْثَلُ : الأفضَلُ ، جمعُه أماثِلُ ، وقد مَثُلَ كَكَرُمَ ، والطريقةُ المُثْلَىٰ : الأَشْبَهُ بالحقِّ ، وأمثَلُهم طَرِيقَةً أعدلُهم وأَشْبهُهم بأهلِ الحقِّ ، وأعلَمُهم عند نفسِه بما يقول .

والمَثُلَةُ : العُقوبةُ والتنكِيلُ جَمْعُه مَثُلاتٌ ، والمُثْلَةُ : المَثُلَةُ والجمْعُ مُثُلاتٌ .

وَمَثَّلَ الشيْءَ لَه تَمثِيلًا : صَوَّره له حتَّىٰ كأَنه ينظر إليه ، وامْتَثَلَهُ هو تَصوَّرَهُ وامتثَلَ طريقَتَهُ تَبِعَها فلم يَعْدُهَا ، وامتثَلَ مِنه : اقتصَّ كتَمَثَّلَ مِنه .

المَثَلُ السَّائرُ :

والمَثَلُ - أيضا - جُملةٌ من القول مقتطعةٌ من كلامٍ أو مُرْسَلَةٌ بذاتها ،

---

(١) محمد : ١٥ .

(٢) مريم : ١٧ .

تُنقل مِمَّن وردتْ فيه إلى مُشَابِهِه بدون تغيير ، مثل : « الرائدُ لا يكذِبُ أهلَه » و « الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ » والغرضُ من ضرب المَثَل التأثيرُ وَهَيْجُ الانفعَالِ .. كأنَّ ضَارب المَثَلِ يَقْرَعُ به أُذنَ السامعِ قَرْعا ينفذُ أثرُه إلى قَلبه ، وينتهي إلى أعماق نفسِه ، وَيُظْهِرُ ضَرْبُ المَثَلِ المعنىٰ جَلِيًّا ، قالوا : وَهُو ضَرْبٌ سَامٍ من فَصِيح الكلام ، جَرَىٰ عليه القرآنُ الكريمُ لتأكيد مَعنىً أو بَيانِ غاية .

وقد جاء المَثَلُ في القرآن العظيم في كثير من المواطنِ يخاطِبُ العقلَ ، وَيُرشده ، وَيُسدِّده ، ويُنير له الطريقَ إلى الحق ، وَيَهدي القلبَ ويُبصِّره ، ويدعو البشرَ إلى التفكُّر والتدبُّرِ ، ليكونوا على بَيِّنة من الأمر ، وَلِيَحْيَوْا على بصيرة ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ** ﴾[2] .

وفي الحديث الشريف :

وقد جاء المَثَلُ في أحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ لتوضيح المقاصد ، وتقريبِ المعاني ، وبيانِ المَرَامِي ، للتبصير والتعليمِ والهدايةِ والإرشاد .

وقد قيل : المثل أعون شيء على البيان .

في منزلة المثل :

ويقول علىُّ بنُ محمدِ بنُ حبيبِ الماوردىّ في كتابه « أدب الدُّنيا والدِّين »

---

(١) الحشر : ٢١ .

(٢) العنكبوت : ٤٣ .

يقول في الأمثال : لها من الكلام مَوْقِعٌ في الأَسْماع ، وتأثيرٌ في القُلوب ، فلا يكادُ الكلامُ المُرْسَلُ يَبْلُغُ مَبْلَغَها ، ولا يُؤَثِّرُ تأثِيرَها ، لأَنَّ المعانِيَ بها لائِحَةٌ ، والشواهِدَ بها واضِحةٌ ، والنفوسَ بِها وَامِقَةٌ ، والقلوبَ بها واثقَةٌ ، والعقولَ لها موافِقَةٌ ، فلذٰلك ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ في كتابه العزيز ، وجَعلها من دلائِلِ رُسلِه ، وَأَوْضَحَ بِها الحُجَّةَ على خَلْقه ، لأَنَّها في العقول معقولةٌ ، وفي القلوب مقبولةٌ . ص ٢٥٩ / ٢٦٠ .

إنَّ الأمثالَ فيها التذكيرُ والوعظُ ، وفيها الحثُّ والزجْرُ ، وهي في تصويرها للمعاني تكشفُ للسامع عَمَّا خَفِي من الخير أو الشرِّ والحُسْنِ والقُبْحِ ، وَتُثِيرُ فى النفوس الطيِّبة الرغبةَ فى الفضيلة والنفورَ من الرذيلة ، وحبَّ الصلاح ، وكراهةَ الفَساد ، كما تُشَوِّقُ الأمثالُ إلى معالي الأمور ؛ لهٰذا كانت وسيلةً تربوية عُني بها المربُّون وحَثُّوا طلبةَ العِلم على حِفْظِ الأمثالِ والحِكَمِ لألفاظها القليلةِ ، ومعانيها الصحيحةِ ، ومَراميها الساميةِ ، ولسرعة وُصولها إلى الفهم .. وَإِنَّ الأمثالَ إذا ناسبَتْ حالَ السامعِ مع حُسن التشبيه والسلامةِ والصِّحةِ كانت زِينةَ الكلام ، وَجَلاءَ المعاني ، وباعِثةً على التدبُّر ، وتقبَّلتها النفوسُ ، وذاعت على الألسنة ، وَنُطق بها في كلِّ زمان[1] .

مَثَلٌ نَبَوِيٌّ :

وممَّا جاء على لسان الصادقِ الأمينِ ﷺ وهو يدعو إلى الله ، ويحثُّ على المبادرة إلى الدخول في الدين الحقِّ للنجاة من النار ، والوصولِ إلى السعادة الأبدية ، وَإلا فالويلُ والهلاكُ لِمَن خالَفَه ﷺ وكذَّبه .

يقول ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخارى ، ورواه أبو موسىٰ : « مَثَلِي

---

(١) قال النظَّام : يجتمع في المثل أربعةٌ لا تجتمع لغيره من الكلام : إيجازُ اللفظ ، إصابةُ المعنىٰ ، حُسْنُ التشبيه ، وَجَودةُ الكناية ، فهو نهاية البلاغة .

وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَومًا ، فقال : رأيتُ الجيشَ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنا النَّذِيرُ العُريانُ ، فالنَّجا النَّجاءَ ، فأطاعَتْه طائفةٌ فَأَدْلَجُوا علىٰ مَهْلِهِم فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَتْهُ طائفةٌ فَصَبَّحهم الجيشُ فاجتاحَهُم » .

و « مَثَلِي » أي صِفتي العجيبةُ الشأنِ « ما بعثَني اللهُ » أي به ، فالعائدُ محذوف في روايةِ البخاريِّ ، « بعيْنيّ » في ذِكْر العَينين في الحديث إرشادٌ إلى أنه تحقَّق عنده جميعُ ما أخبرَ عنه تَحَقُّقَ مَنْ رَأَىٰ شيئًا بِعَيْنه ، لا يعتريه وَهْمٌ ، ولا يُخالِطُه شكٌّ .

« وَإِنِّي أَنا النذيرُ العُريان » تَمَثَّلَ النبيُّ ﷺ بالنذير العريان ، وهو مَثَلٌ لكل مُنذِرٍ بما يُخافُ مُفاجأتُه ، وأصلُ هٰذا المَثَلِ : أَنَّه كان من عادة العربِ أَنَّ الرجلَ إذا رأىٰ الغَارة فَجَأَتْهُمْ ، وأراد إنذارَ قومِه فإنه يتعرَّىٰ من ثيابه ويُشِيرُ به ، فَيُعْلَمُ أَنْ قد فَجَأَهم أمرٌ ، وممَّا يفسِّر هٰذا ما جاء في الحديث الذي رواه بُريدة ، وأخرجه أحمدُ بسندٍ جيد قال : « خَرج النبيُّ ﷺ ذاتَ يوم ، فنادىٰ ثلاثَ مرات : أَيُّها الناسُ ، مَثَلِي وَمَثَلُكم مَثَلُ قَوم خافُوا عَدوًّا أن يأتِيَهم ، فبعثُوا رجُلًا يتراءىٰ لهم ، فبينما هم كذٰلك إذْ أبصَر العدُوَّ ، فأقبلَ لِيُنذِرَ قَومَهُ ، فخَشِي أن يُدرِكَه العدوُّ قبل أن يُنْذِرَ قومَه ، فأَهْوَىٰ بثوبه : أيها الناسُ أُتِيتُمْ – ثلاثَ مراتٍ – » .

« فالنَّجا النجاءَ » بِقَصْر الأولِ ومَدِّ الثاني ، أو « فالنجاءَ النجاءَ » كما جاء في بعض الروايات ، أي اطلبوا النجاءَ والخلاصَ بأن تُسرِعوا الهربَ ، وفي ذٰلك إشَارةٌ إلى أنهم لا يُطِيقون مقاومةَ ذٰلك الجيش .

« فأطاعته طائفةٌ فَأَدْلجُوا على مَهْلِهم فنجوا » أي أطاعه بعضُ القومِ فساروا

أولَ الليلِ أَوْ كُلَّه بسكينة وَتُؤَدَةٍ ورِفْق ، أي سَيْرًا لا مشقَّة فيه ، ولا إزعاجَ معه ، ومع ذٰلك نَجَوْا من الهلاك ، وكذلك شَرْعُه ﷺ فإنه يُسْرٌ لا مشقةَ فيه ولا إرهاق ، ومع ذٰلك يُوَصِّلُ إلى النجاةِ من النَّار والسعادةِ الأبديَّة .

طريقُ السلامة والنجاة :

إنَّ السائرَ في طريق النبيِّ محمدٍ ﷺ إنما يسير على هدًى ونور ، ولذا تَحْسُنُ عاقبتُه ، ومَن أراد اللهُ به خيرا هُدِيَ إلى الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ** ﴾[2] .

« وَكَذّبْته طائفةٌ فصبَّحهم الجيشُ فاجتَاحهم » قال الطِّيبيُّ : عَبَّر في الفرقة الأولىٰ بالطاعة ، وفي الثانية بالتكذيب لِيُؤْذِنَ بأَنَّ الطاعةَ مسبوقةٌ بالتصديق ، وَيُشْعِرَ بأَنَّ التكذيبَ مُسْتَتْبِعٌ للعصيان . وَإِنَّ قومًا لا يُطيعون الناصِحَ الأمين مصيرُهم الهلاكُ والشقاءُ ، « فصبَّحهم الجيشُ فاجتاحَهم » أي طَرَقَهُمْ بَغْتةً فاستأْصَلهم وأهلكَهم ، قال الطيبي : شَبَّه ﷺ نفسَه وإنذارَه قومَه العذابَ القَريبَ برجُلٍ أنذرَ قومَه هجومَ جيشٍ في وقت الصباح ، وشَبَّه مَن أطاعه من أمته وَمَن عصَاه ، بِمَن كذَّب الرجلَ في إنذاره ومَن صَدَّقه ..

فانظُرْ إلى المَثَلِ كيف يُؤثِّرُ في الشعورِ والتفكيرِ ، ويُؤدِّي المعْنىٰ واضِحًا جَلِيًّا من أقربِ طريقٍ ، وأوجَزِ عِبارة ..

أحمد بن محمد طاحون

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(٢) الزمر : ٢٢ .

٢ - أ - أصناف الناس ومثل المنافق .

قال الله تعالىٰ من سورة البقرة : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ ١٧ : ١٨ .

« **مَثَلُهم** » : المَثَلُ والمِثْلُ والمَثِيلُ كالشَّبَه والشِّبْهِ والشَّبِيه وزنًا ومعنًى في الجُملة ، وهو مِن مَثَلَ الشيءُ مُثولًا إذا انتصَب بارزًا فهو ماثِلٌ ، وَمَثَلُ الشَّيءِ صِفَتُه التي تُوضِّحه ، وَتَكْشِفُ عن حقيقته ، أَوْ ما يُراد بَيانُه من نُعوته وأحوالِه ، ويكون حقيقةً ومَجازًا ، وأَبْلَغُه : تَمثِيلُ المعانِي المعقولةِ بالصُّور الحِسيَّةِ وعكسُه ، ومنه الأمثالُ المضروبةُ ، وَتُسَمَّىٰ الأمثالَ السائرةَ ، ومنه ما يُسَمِّيه علماءُ البيان : الاستعارةَ التمثيليةَ ، وهي مِن المَجاز الذي يُوضِّحُ المعنىٰ ، ويؤثِّر في النفس ، وَيُقْنِعُ العقْلَ ، قال المبرِّدُ : المَثَلُ مأخوذٌ من المثال ، وهو قولٌ سائر ، يُشَبَّهُ به حالُ الثانِي بالأَوَّل ، والأصلُ فيه التَّشبيهُ ، فمعنىٰ : مَثُلَ بيْن يَديْه إذا انتصَبَ – قائما – أَشْبَه الصورةَ المنتصِبَة .

وفي صَدْر سورةِ البقرة وصَفَ اللهُ عز وجلَّ المؤمنين بأربع آياتٍ ، ثم عَرَّفَ حالَ الكافرين في آيتين ، ثم نَزلت في بيان حالِ المُنافقين الذين يُظهِرون الإيمانَ ويُبطِنُون الكُفْر ثلاثَ عشْرةَ آيةً ، لأَنَّ النفاقَ – كما يقول ابنُ كثير – يَشتَبِهُ علىٰ

كثير من الناس ، لهٰذا جاء الإطنابُ في ذِكْرِهم بصفاتٍ متعدِّدة ، كلٌّ منها نِفاقٌ ، كما أنزل الله عز وجل فيهم سورةَ بَراءة ، وسورةَ المنافقين ، وذكرهم سبحانه في سورة النِّساء ، وسورةِ النور وغيرِها من السور ، تعريفًا لأحوال المنافقين لتُجْتَنَبَ ، ويُجتَنبَ من تَلبَّسَ بها أيضا .

وقد ألحق اللهُ عز وجل المنافقين بالكَافِرين لِنفْي الإيمان عنهم بقوله الحقّ : ﴿ **وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ في الآية الكريمة : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾[1] إذ هُم أظهرُوا الإيمان ، وأبطَنُوا الكُفْرَ وأَخفَوْه في أنفسهم ، وإنَّ حقيقةَ الإيمانِ : مَعْرِفَةٌ بالقلب ويَقِينٌ ، وقولٌ باللِّسان ، وعمَلٌ بالأَرْكَان ، أي الاعتقادُ الصحيحُ مع القولِ والعملِ .

وَإنَّ السعيدَ حَقًّا هو الذي يَعِيشُ على اليقين الصحيحِ ويموتُ على اليقين ، وَيُبعَثُ على اليقين . فهٰؤلاء هم أولياءُ اللهِ وأحبَّاؤه وأهلُ كرامته إذ الأعمالُ بالخواتيم ، نسأل الله السلامةَ والعفْو والعافيةَ وحُسْنَ الخاتمة ، ولقد دخل بعضُ الناسِ في الإسلام ، وأقبلُوا على نُوره ، ولٰكن منهم من ارتدَّ ، ومنهم من نافَق – والعياذُ بالله – فارتدَّ في الباطن ، وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى من سورة المنافقين : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾[2] .

في مَعنىٰ النفاق :

وفي مَعْنى النِّفاقِ يقول علماء اللغة : سُمِّيَ المنافقُ منافِقًا لإظهاره غيرَ ما يُضْمِرُ تشبيهًا باليَرْبُوع ، له جُحْرٌ يُقال له : النَّافِقَاءُ ، وآخرُ يُقال له :

---

(١) البقرة : ٨ .

(٢) آية : ٣ .

القاصِعَاء ، وَذٰلك أنه يَخْرِقُ الأَرْضَ حتَّى إذا كادَ يَبْلُغُ ظاهِـرَ الأرضِ أَرَقَّ التُّرابَ ، فَإذا رابَهُ رَيْبٌ دفع ذٰلك الترابَ برأْسِه فخَرج ، فظاهِرُ جُحرِه ترابٌ ، وباطنُه حَفْرٌ – أي ما حُفِر وهو الحُفْرةُ في الأَرض – وكذٰلك المنافقُ ظاهرُه إيمانٌ ، وباطنُه كُفْرٌ رغْبةً أو رهْبةً ، قال ابنُ جُريج : المنافقُ يخالِفُ قولُه فِعلَه ، وسرُّه عَلانِيتَه ، وَمَدْخلُه مَخْرَجَهُ ، وَمَشْهَدُه مَغِيبَهُ .

إن النفاقَ إظهارُ الخيرِ وإسرارُ الشَرِّ ، ومنه نِفاقٌ اعتقاديٌّ ، وهو الذي يُخَلِّد صاحبَه في النار كهـٰؤلاء الذين بينتْ أحوالَهُم سورةُ البقرة وغيرُها ، ومنه نفاقٌ عمليٌّ وهو من أكبر الذنوب .

إنَّ المؤمنَ يوافقُ سِرُّه عَلَنَهُ ، وَفِعْلُه قَولَه ، لأنَّه يُخلِص دِينَه لله عز وجل ، وإنَّ الكافرين مَحَّضُوا الكُفْرَ ظاهِرًا وباطِنًا ، والكُفْرُ والإيمانُ طَرَفَان ، وَإنَّ المنافقين هم أخبثُ الكَفَرةِ لأنَّهم ضَمُّوا إلى الكُفر استهزاءً وخِدَاعًا ، وتمويهًا ، وتدليسًا ، وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾[1] لأنهم آمنُوا بأفواهِهم ولم تُؤْمن قلوبُهم ، وأَضمَرُوا الكيْدَ للمسلمين ، وَسَعَوْا إلى الصَّدِّ عن الإسلام ، وإيقادِ نارِ الفِتَنِ بين المسلمين ، لهـٰذا ضَرَبَ لهم القرآنُ الكريمُ شَنِيعَ الأَمْثَال لكشْف ما انطوتْ عليه نفوسُهم من الخُبْث ، والمَكْر ، والضلالِ ، والجهلِ .

المَثَلُ في الآيتين :

وَإنَّ المثَلَ الذي تدبَّرناه في الآيتين الكريمتين يتَّصلُ اتِّصالًا وثيقا بما جاء في الآيات قَبله مِن وصْفِ حالِ المنافقين ونعوتهم التي نَبَّه اللهُ سبحانه عليها لِئلَّا يُغْتَرَّ بظاهر أمرهم ، وللتنفيرِ من خصالِ أهلِ النفاقِ ومسالِكهم ، لهـٰذا ينبغي

---

(١) النساء : ١٤٥ .

أن نتأمل ما جاء في هٰـذه الآيات البينات قبل تناوُل المَثَل لتتضحَ لنا مرامِيه ولتكونَ الصورةُ جليةً من جميع جوانبها .

لقد نعىٰ الله على المنافقين خُبثَهم في قوله : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ** ﴾وهـٰؤلاء كانوا في عصْر التنزيِل كعبد اللهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلول وأصحابِه ، وكان أكثرُ المنافقين في المدينة من اليهود ، ولهم نُظَراءُ في كلِّ عصر وَمِصْر . ﴿ **وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي وما هُم بداخـلين في عدادِ المؤمـنين الصادقين الذين يَشعرون بعظيم سُلطان الله ، وَيُوقنون أنه سبحانه مُطَّلعٌ على سِرِّهم ونَجْواهم ، إذ كانوا في الحقيقة مُنغمسِين في الشُّرور والمآثِم ، ضَالعين في الغِشِّ والكذبِ والخيانةِ والطمَع ، كما كانوا في الحقيقة مشركين ، منهم من يقول : عُزَيرُ ابنُ اللهِ ومنهم مَن كان على دِين آبائه من تقديسِ الأصنامِ والأوثان ، وَإن كان ظاهرُهم الإيمانَ : ﴿ **يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾(1) أي بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفرَ يعتقدونَ بجهلهم أنهم يَخدعون الله بذٰلك وأَنَّ ذٰلك نافِعُهم عنـده سبحانه ، وأنه يروجُ عليه كما يروج على بعض المؤمنين .. ولهـٰذا قابلهم على اعتقادهم ذٰلك بقوله : ﴿ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ أي وما يَغُرُّون بصنيعهم هـٰذا ، ولا يَخْدعون إلَّا أنفسَهم ، إذ ضَرَرُ عَمَلِهم لاحقٌ بهم ؛ لأَنَّهم يُلْقون بأنفسهم في مَهاوِي الهلاك والرَّدَىٰ ، إذ كيف يخادع الـمخلوقُ مَن عَرف البواطن ؟ وهـٰذا يدلُّ على أَنَّ المنافِقَ لم يَعْرِف ربَّه ، إذ لوْ عَرَفه لعرف أنه سبحانه لا يُخْدَعُ ، لذا نَفَـىٰ اللهُ عنهم الشعـورَ في مخادعتهم لله ﴿ **وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ أي وما يَفْطِنُون أَنَّ وبَال خَدْعِهم رَاجِعٌ عليهم ، فيظنون أنهم قد

---

(1) البقرة : 9 .

نَجَوْا بِخَدْعِهم وفَازوا ، وإنَّما ذٰلك في الدنيا ، وفي الآخرة حين يتحسَّرون يُقال لهم : ﴿ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾[1] .

يقول ابنُ كثير : أَعْلَمَ اللهُ عِبادَه المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم عليها ربَّهم بكفرهم وشَكِّهم وتكذيبهم غيرُ شاعرين ولا دَارِين ولكنَّهم على عَمْياءَ من أمرِهم مُقيمون .

وقد بيَّن الله عز وجل الفسادَ الذي في عقائدهم ، سواءٌ كان بالشكِّ والنفاق ، أو بالجَحْد والتكذيبِ فقال : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي لخلُوِّها عن العِصْمةِ والتوفيق ، والرعايةِ والتأييدِ فملأ الشكُّ في الإسلام قلوبَهم ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ أي نِفاقا وَرِجْسًا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[2] أي بسبب كَذِبهم في دعواهم الإيمانَ بالله واليومِ الآخرِ وهم مُكذِّبون برسله وآياته .

وكان المنافقون إذا نُصِحوا بترك الفسادِ في الأرض بالكفر والمعاصي ، وموالاةِ الكفارِ والمشركين ، والسعْي إلى تفريق الناسِ عن التصديق بالنبى ﷺ والإيمانِ بالقرآن ادَّعَوْا أنهم مُصلحون ففضَح اللهُ نواياهم فقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[3] أي ولٰكن من جهلهم لا يَشعرون بكون ما هُم عليه من الخُبث والشرِّ هو عينُ الفساد .

لقد استحوذَ عليهم الشيطانُ ، فأنسَاهم ذِكْرَ اللهِ والخَشْيةَ منه ، فأفسَدُوا في الأرض ، وَهُم يتوهَّمون أنَّهم مُصْلِحون .

* * *

---

(١) الحديد : ١٣ .

(٢) البقرة : ١٠ .

(٣) البقرة ١١ و ١٢ .

٣ - ب - مَن السفهاء على الحقيقة .

المنافقون استحوذَ عليهم الشيطانُ ، فأنساهم ذِكْرَ اللهِ عز وجل ، وصاروا من حزبِ إبليسَ يُفسدون في الأرض ويظنُّون أنهم مصلحون ، وإذا نُصِحُوا بالاستقامة والتفكُّر في آيات اللهِ ، واتِّباع نبيِّه ﷺ عن صِدْقٍ وإخلاص لِيَحْظَوْا بالسَّعادة في المَعاش والمَعاد أعرضوا ، وآزروا الباطلَ وأهلَه ، وزَعموا أنَّ ممالأَتهم للمشركين والكفار إنما يُراد بها الإصلاحُ بينهم وبين المؤمنين .
فَفَضَح القرآنُ الكريمُ نواياهم ، وردَّ عليهم وكذَّبهم في دعواهم الإصلاحَ فقال : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1] ذٰلك لأن الفسادَ أصبح غريزةً في طباعهم بما تمكَّن فيها من الشُّبَهِ ، وبما أُشْرِبَتْه قلوبُهم من الحسد ، فعَصَوْا الله ورسولَه ، ولم يَسعَوْا إلى تَبيُّن الحق واتباعه .

وكان هٰؤلاء المنافقون إذا لُفِتُوا إلىٰ عُقلاء الناسِ وحُكمائِهم الذين آمنُوا بالله ، وملائكتِه ، وكُتبه ، ورسُله ، وبالبعْث بَعْد الموت ، وبالجنَّة والنارِ وغيرِ ذٰلك مِمَّا أخبر اللهُ به في كُتبه وعلى ألسنةِ رسلِه الكرامِ مِثْل أصحابِ رسولِ الله ﷺ ، ومنهم عبدُ اللهِ بنُ سَلام وكان من قَبْل إسْلامه حَبْرًا من أحبار اليهود ، وغيرُه مِمَّن هُدوا إلى الحق وخالصِ الإيمان . كان المنافقون إذا لُفِتُوا إلى هٰؤلاء وَطُلِب إليهم الإيمانُ كما آمَن أهلُ العقل والحكمة من الناس ، وأن يُطيعوا الله ورسولَه بامتثال الأوامر ، وتركِ الزواجر ، أعرضُوا وأَبَوْا واستكبَروا وأصرُّوا على

---

(١) البقرة : ١٢ .

خُبث النوايا ، وسوءِ المقاصد نحو الحقِّ وأهلِه ، وقد فضحتهم الآياتُ من سورة البقرة ولنتدبر : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

﴿ كَما ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي من أمثال أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ومن المصْطَفَيْنَ الأخيار والصِّدِّيقين والصَّالحين في كل عصر كإبراهيمَ وعيسىٰ وموسىٰ وأتباعِهم ، ومن كل مَن استخدم عقلَه استخدامًا صحيحًا ، ونظر في الأدلة ، وأقبل على نُور الدين الحقِّ فصحَّ إيمانُه ، وصَلَح عملُه ، واستقام مسلَكُه .

و﴿ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ جَمْعُ سَفِيهٍ وهو الجاهلُ الضعيفُ الرأْي ، القليلُ المعرفةِ بمواضع المصالحِ والمضارِّ .. والسَّفَهُ هو الطَّيْشُ ، وَخِفَّةُ العقلِ ، وَضَعْفُ الرأْي . ومن لوازمه سوءُ التصرُّف ، وقد أراد المنافقون بالسُّفهاء : أتباعَ النبيِّ محمد ﷺ الواقفين عند ما كان عليه ، المُعْرِضين عن غير ما أُنْزِلَ إليه ﷺ ، وهم أهلُ الحِكْمةِ والرأي السَّديد .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ ﴾ أي هٰؤلاء المنافقون وأمثالُهم هُم السُّفهاءُ على الحقيقة لأنهم أعرضوا عن الحق مِمَّا يُؤكد ضعفَ الرأي ، وسوءَ التفكير ، ولذا جاء التعبيرُ بتأكيد وحَصْرِ السفاهةِ فيهم ، وقد تَضَمَّن تشريفَ أصحابِ رسولِ الله ﷺ الذين اطمأنَّت قلوبُهم بالإيمان ، وشَهِدت لهم أعمالُهم بالإحسان ، ولٰكن المنافقين من تمام جهلهم وسَفَههم لا يعلمون بحال أنفسِهم في الضلال ، وأنَّ السَّفَه محصورٌ فيهم وفي أمثالهم من المُلحدين والمشركين ، ومقصورٌ عليهم في الحقيقة : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ لِعَمَى بصائرِهم ، ولبُعدهم عن الهُدى .

---

(١) البقرة : ١٣ .

إنَّ شَرَّ ما تُبتلَىٰ به أمةٌ ، أو جماعةٌ ، هم أولٰئك المنافقون الذين يُظْهِرونَ الخير ، وَيُعْطُونَ النَّاسَ مِن طَرَفِ اللِّسانِ حلاوةً ، وقلوبُهم تتقِدُ بنيران الحقدِ والحسد ، وتنطوي نفوسُهم على الشر والفساد .

وكان من خِصال هٰذا الصِّنف في عصر التنزيل أنهم إذا لَقُوا أهلَ الإيمان ، أظهروا الإيمان ، وأعلَنوا به ، وقالوا ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وبدا من كلامهم الموالاةُ والمصافاةُ غُرورا منهم للمؤمنينَ وَنِفاقًا ، ومصانعةً ، وتَقِيَّةً ، ورغبةً في المغانم وما يُقَدَّرُ للأمة من الخير ، أما إذا انصرفُوا من مجالس المؤمنين إلى دعاة الفتنةِ وعُمَّالِ الإفساد وأنصارِ الباطل ، ولقوا زعماءَ الضلالِ منهم وقادتَهم في الشر والإلحاد والشركِ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي إنهم على مِثْل ما هُم عليه من إضمار السُّوء للإسلام وأهلِه ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[1] أي إنهم على عقيدةِ شياطينِهم من أصحابهم وزعماءِ الشرِّ منهم وعلى عملهم ، وإنما يستهزئون بالمسلمين ، ويَسخَرون بهم حين يُظهرون لهم أنهم مسلمون ، فكشَفَ القرآنُ الكريمُ عن هٰذا التلوُّن ، وهٰذه الذبذَبة ، وقَابَلَهم عليها بما فَضَحَ بُهتانهم فقال : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[2] أي يُجازِيهم جزاءَ الاستِهْزاء ، وَيُعاقِبُهم عقوبةَ الخِدَاع ، فأخْرَجَ سبحانه خَبَرَهُ عن جزائه إيَّاهم ، وعقابِه لهم ، مُخْرَجَ خَبرِه عن فِعْلهم الذي عليه استحقُّوا العقابَ في اللَّفْظ ، وإن اختلف المعنيان ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا

---

(١) البقرة : ١٤ .

(٢) البقرة : ١٥ .

(٣) الشورى : ٤٠ .

﴿ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[1] فالأول ظُلْمٌ ، والثاني عَدْلٌ ، فهما وإن اتفقَ لفظاهما فقد اختلف معناهما .

وقد بَيّن ابنُ جرير كما نَقَل عنه ابنُ كثير : أنَّ المكْر والخِداعَ والسخريةَ على وَجْهِ اللَّعِب والعَبَثِ مُنْتَفٍ عن اللهِ عزَّ وجلَّ بالإجماع ، وَأَمَّا على وجْه الانتقامِ والمقابلةِ بالعدل والمجازاةِ فلا يَمْتَنِعُ ذٰلك ، وَرُوى عن ابنِ عباس في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ قال : يَسْخَرُ بِهِم للنِّقْمةِ مِنْهم .

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2] .. والطُّغيانُ مُجاوزَةُ الحَدِّ في العِصيان .. والمَدُّ هو الزِّيادةُ في الشَّيءِ مُتَّصِلَةٌ به ، والعَمَهُ الضَّلال .

من حكمة الله عز وجل :

إنَّ من حكمة اللهِ عز وجلّ أنه يُمْهِلُ العصاةَ وأهلَ الضَّلال ، وَيَزِيدُهم ويُعافيهم ، ويَرزقهم فتطولُ عليهم نعمتُه ، وتُبطئُ عنهم نقمتُه ، فيعيش هٰؤلاء في ضلالهم وكُفرهم الذي غَمَرهُم دَنَسُه وعَلاهم رِجْسُه يَتَرَدَّدُون ضُلَّالًا في حَيْرة ، لا يَجِدُون إلى المَخْرَجِ مِنه سبيلا ، لأن اللهَ طَبَع على قُلوبهم وخَتَمَ عليها ، وأَعْمَى أبصارَهم عن الهُدى وأغْشَاها ، فلا يُبصِرون رُشدًا ، ولا يهتدون سبيلًا ، ويا ويلَهم مِن عذابِ اللهِ ونِقْمَتِه .

ظَلَمُوا أنفسَهم :

وهٰؤلاء الذين اختاروا النفاقَ والضلالَة على الهُدى قد ظَلموا أنفسَهم إذ اشتَروا الهلاكَ والضَّياع والشقَاء والتعاسةَ وسوءَ المصير ، فخسِروا خُسرانا مُّبينا ،

---

(١) البقرة : ١٩٤ .

(٢) البقرة : ١٥ .

وقد بين الله عز وجل لنا حالهم ، لنعتبرَ ونتعظَ ، ونتقِيَ هٰذه المسالكَ الخبيثةَ ، ولنسمَعْ ما بينه الله عز وجل فيهم : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ** ﴾[1] .

إنَّ هٰؤلاء المنافقين عَدَلُوا عن الهُدَىٰ إلى الضَّلال ، واعتاضُوا عن الهُدى بالتخبُّط في الضَّلالة ، فهل من العقل أن يَبذُلَ المرءُ الهدى ثمنًا للضلالة ؟ ويَشترِيَ الكفرَ بالإيمان ؟ إنها صفقةٌ غيرُ رابِحة ، وأصحابُها غيرُ راشدين في صنيعهم ذٰلك .

لقد عُني القرآنُ الكريم ببيان حال هٰذا الصنفِ من الناس ، والكشفِ عن خفايا نفوسهم ، وتبصيرِ أهلِ العقلِ والحكمةِ بِسُخْف تفكيرِهم ، وسوءِ مسالِكهم ، وما تَنطوي عليه قلوبُهم من الشرِّ للحق وأهلِه ، لأنَّ بلاءَ المنافقين عظيمٌ ، وداءَهم دَفين ، ومقاصِدَهم غايةٌ في السوء إذ خرجوا من الهُدى للضلالة ، ومن الجماعة إلى الفُرقة ، ومن الأمنِ إلى الخوف ، ومن السُّنَّة إلى البِدْعة .. فطريقُهم شرُّ طريق ، ومصيرُهم أسوأُ مصير : ﴿ **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[2] .

وبعد أن فَصَّلت الآياتُ من سورة البقرةِ حالَ المنافقين ضَرَبَ اللهُ لهم مَثَلَيْن فيهما من الروعةِ والجمالِ والإيجازِ والإعجازِ ما يَزيد المعنىٰ وضُوحا ويُؤكِّده ويُقرِّره في النفس .. نسأل اللهَ سلامةَ الدينِ وصِدْقَ اليقين .

---

(١) البقرة : ١٦ .

(٢) النساء : ١٤٥ و ١٤٦ .

٤ ـ ج ـ فقدوا النور وبقي لهم الإحراق .

اشتراءُ الضَّلالةِ بالهُدى معناه اختيارُ الضلالةِ على الهُدى واستبدالُها به على سبيل الاستعارة ، لأَنَّ الاشتراءَ فيه إِعطاءُ بَدَلٍ وأَخْذُ آخر .

فإن قِيل كيف اشترىٰ المنافقون الضلالةَ بالهُدى وما كانوا على هُدى ؟ أجاب عن هـٰذا السُّؤالِ بعضُ المفسِّرين فقال : جُعِل المنافقون لـتمكُّنهم من الهُدى وإعراضِه لهم[١] كأَنه في أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضَّلالة فقد عَطَّلُوه ، واستبدلُوها به ، ولأَن الدينَ القيِّمَ هو فطرةُ اللهِ تعالىٰ التي فطَرَ النَّاسَ عليها فكلُّ مَن ضَلَّ فهو مُستَبدِلٌ خِلافَ الفِطْرة .

والضلالةُ معناها الجَوْرُ عن القَصْدِ وفَقْدُ الاهتِدَاء ، يقال : ضَلَّ منزلَه ، فاستُعِير اللفظُ للذهاب عن الصَّوابِ في الدِّين .

وفي المَثَل : ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ ، ودُرَيْصٌ تَصْغِيرُ دِرصٍ ، وهُو ولَدُ الفأرةِ واليربوعِ ونظائرِهما ، ونَفَقُه أي جُحْره ، وهو مَثَلٌ يُضْرَب لِمَن يَنْسىٰ الحُجَّةَ عند الحاجة .

والضلالةُ والضلالُ نقيضُ الهُدى الذي هو الرشَاد إلى القَصْد .. وأَصلُ الضِلالةِ الحَيْرة ، ويُسمَّى النِّسيانُ ضلالةً لِمَا فيه من الحَيرة ، قال تعالى : ﴿ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٢] أي النَّاسين ، ويُسَمَّى التلَفُ والهَلاكُ

---

(١) يُقال : أَعْرَضَ لَكَ الصَّيْدُ فَارْمِهِ ، أي إِذَا أَمْكَنكَ مِن عرْضِه ، أيْ جَانبِه .

(٢) الشعراء : ٢٠ .

ضلالةً كما قال عز وجل : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] .

والرِبْح هو الفضْلُ على رأسِ المال .

والتجارةُ صِناعةُ التَّاجر ، وهو الذي يَبيع ويَشتري للربح ، ولنسمع قول الله عز وجل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾[2] .

إنَّ التَّاجِر في سَعْيه واختيارِه يطلبُ سلامةَ رأْسِ المال والرِّبح ، فإذا كان سَفِيهًا ، غيرَ متدبِّرٍ ضَيَّع كلَّ شيءٍ ، وإن المنافقين بعد أن تمكَّنوا من الهُدى والرشاد ، وقد تيسَّرت لهم أسبابُه أضاعوه بالكفر والجحود ، ولم يبقَ لهم إلا الضلالةُ والحيرةُ والهلاكُ ، وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالةُ لم يُوصَفوا بإصابة الرِّبْح وَإنْ ظَفِروا بِمَا ظَفِرُوا به من الأغراض الدنيويَّة ، لأَنَّ الضالَّ خاسِرٌ هالِك ، ولأنه لا يقال لمَنْ لم يسلَم له رأسُ المالِ قد رَبِح بل يُوصَف بانتفائه فهو في خُسران مبين .

فهل من العقل أن يدفعَ المرءُ في الضَّلالة هُدَاه ، وقد قامت عليه الأدلةُ ، ووضحت براهينُه ، وتيسَّرت أسبابُه ، ولم يبق للإنسان عُذْرٌ ، وقد أرسل الله عز وجل الرسلَ وخاتَمهم النبيَّ محمدًا ﷺ ، وأنزل عليه الوحْيَ يدعو إلى الحق ، وَيُرشد إلى الهدى ، وَيُبصِّر من العَمى ، ويُنير الطريق .

قال ابن كثير : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي بَذلوا الهُدى ثمنًا للضلالة ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ أي ما ربِحَت صَفْقَتُهم في هٰذه البَيْعة : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ أي راشِدين في صنيعهم

---

(١) السجدة : ١٠ .

(٢) البقرة : ١٦ .

ذٰلك ، وقيل : في سابق عِلْمِ اللهِ ، وبالنسبة للمثَل أي وما كانوا مُهتدين لِطُرق التجارة كما يكونُ التجارُ المتصرِّفون العالِمُون بما يُرْبَحُ فيه وَيُخْسَرُ ، وفي هٰذا ترشيحٌ للمثَل الذي ضُرِبَ للمنافقين الذين خَسِروا الهُدىٰ باختيارهم الكفرَ على الإيمان ، وبإلقائهم بأنفسهم إلى التَّهلكَةِ بالحِرْمان من السَّعادة الأبديَّة .

المَثَلُ :

لمَّا بيَّنت الآياتُ حقيقةَ صِفَةِ المنافقين عَقَّبها بِضَرْب المَثَل زيادةً في الكشْف ، وتتميمًا للبيان ، ولإبرازالصفة في مَعْرِض الْمحسُوسِ المشاهَد ، ومن الجَليِّ أَنَّ لضَرْبِ المَثَل ، واستحضارِ النظائرِ شأنًا ليس بالخَفِيِّ في إبرازِ خَبِيَّات المعاني ، ورَفْعِ الأستارِ عن الحقائق حتى تُرِيَكَ المُتَخيَّلَ في صورة المحقَّق ، والمتوهَّمَ في مَعْرِض المتيقَّن ، والغائبَ كأنَّه مُشَاهَدٌ ، وكما يقول الجُرجاني : فإن المثل إذا جاء في معرض الذم كان مَسُّهُ أوجَعَ ، وَمِيسَمُه أَلْذَعَ ، ووقْعُه أشَدَّ ، وَحَدُّه أَحَدَّ ، وفي مَعْرِض الخُصومةِ يكون في المَثَل تبكِيتٌ للخَصْم الألدِّ ، وقَمْعٌ لسَوْرة الجامِح الأَبِيِّ .

وفي المَثَل عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ وتوجيهٌ وإرشادٌ مع ما فيه من إبرازٍ للمعنىٰ في صورة تؤثِّر في النفس ، وقد جاءت الأمثالُ في كتاب الله عز وجل ، وفشَت في كلام رسولِ الله ﷺ ، كما فشَت في كلام الأنبياءِ والحكماء .

ولنتدبر قوله تعالى في المنافقين : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ١٧ و ١٨ .

تقريرُ المَثَل وتوضيحُه :

يقول الحافظُ ابنُ كثير : وتقريرُ هـٰذا المَثَلِ : أن اللهَ سبحانه شَبَّههم في اشترائهم الضلالةَ بالهُدى ، وصيرورتِهم بعد التبصرةِ إلى العَمَىٰ بِمَن استوقَد نارا ، فلما أضاءت ما حوله وانتفَع بها ، وأَبْصَر بها ما عن يمينه وشماله ، وتَأَنَّس بها ، فبينا هو كذٰلك إذْ طُفِئَتْ نارُه ، وصار في ظلام شَديد ، لا يُبْصِر ولا يَهْتدِى ، وهو مع ذٰلك أصمُّ لا يَسمع ، أبكمُ لا يَنطِق ، أعمىٰ لو كان ضياءٌ لَمَا أَبْصَر ، فلهـٰذا لا يَرجِع إلى ما كان عليه قبل ذٰلك .. فكذٰلك هـٰؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالةَ عِوضًا عن الهُدى ، واستحبابِهم الغَيَّ على الرُّشد .

قال ابن كثير : وفي هـٰذا المَثَلِ دلالةٌ على أنهم آمَنُوا ثم كَفروا ، أى كما جاءت الإشارةُ إلى هـٰذا النوعِ من المنافقين في قوله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ من سورة المنافقين[1] ، فلما سُلِبوا الإيمان طُبِعَ على قلوبهم .

وفي الآية الكريمةِ استُعِير المَثَلُ استعارةَ الأسَدِ للرجُلِ الشُّجاع ، للحال أو الصِّفةِ أو القِصَّة إذا كان لها شأنٌ وفيها غَرابة ، كأنه قيل : حالُهم العجيبةُ الشأنِ كحال الذين استوقَدوا نارًا ، فَلمَّا أضاءَت ما حولَهم من الأمكنة والأشياءِ أطفأ اللهُ نارهم التي منها استمدُّوا نُورَهم بنحو مَطَرٍ شَديد أو رِيحٍ عاصِفٍ جَرَفَ النار ، وَبَدَّدها ، فأصبحُوا في ظلامٍ دامس ، وصاروا لا يُبصرون شيئا ، لأن النور قد زال ولم يبقَ منه أثرٌ ولا عينٌ ، فهـٰذا حالُ من أَبْصر ثم عَمِىَ ، وعرَف ثم

---

(١) الآية : ٣ .

أنكَر ، ودخَل في الإسلام ثم فارقه بقلبه ، فهو لا يَرجع إليه ، ولهٰذا قال : ﴿ **فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ .

ثم جَعَلَهم مَرَّةً أُخرى كالصُمِّ البُكْم العُمْى الذين فَقدوا هٰذه المشاعرَ والحواسَّ إذْ هم لم يَنتفعوا بها وبآثارها فكأنَّهم فقدوها ، فما فائدةُ السَّمع إلَّا الإصاخةُ إلى نُصْح الناصحِ وَهَدْي الواعظِ ، وما منفعةُ اللِّسان إلا الاسترشادُ بالقول وطلبِ الدليلِ والبرهانِ والسؤالِ لمعرفة الحقِّ والتمسكِ به ، وما مَزِيَّةُ البَصَرِ إلا النظرُ والاعتبارُ لزيادة الهُدىٰ والاستبصار ، فَمَن لم يستعمِلْ سَمْعَهُ وبصرَهُ ولسانَه في شيءٍ من ذٰلك فكأنه فَقَدها ، وأَنَّىٰ لِمِثْلِه أن يخرجَ من الضلالة ، أو يَرجع إلى هُدى واستقامة ؟

وصَفَهم اللهُ عز وجل بأنهم ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ** ﴾ مع سلامة مشاعرِهم من قِبَلِ أَنَّهم فَقَدوا منفعةَ السمعِ فلا يُصْغُون لِعِظَةٍ واعظٍ ولا إرشادِ مُرشِد ، بل هم لا يَفقهون إنْ سَمِعوا فكأنهم صُمٌّ على الحقيقة ، كما فقد المنافقون منفعةَ الاسترشاد وطلب الحِكمةِ فلا يطلبون بُرهانا على قضيَّة ، ولا بَيانا عن مسألة تَخفىٰ عليهم فكأنهم لذٰلك بُكْمٌ لا يتكلَّمون ، كما فَقدوا منافِعَ الإبصارِ من النظر في آيات اللهِ الكونيةِ وفي النفس البشريةِ نظَرَ إنعام وتدبُّرٍ ، ولا يَرَوْنَ ما يَجْري في الليل والنهارِ من الحوادثِ والغِيَرِ مِمَّا قَدَّره اللهُ عز وجل فينزجِرُوا ويعتَبِروا ، بل تمرُّ عليهم الحوادثُ والأحوالُ وكأنهم صَخْرٌ أَصَمُّ ﴿ **فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ أي فهُم لذٰلك لا يَعودون من الضلَالةِ إلىٰ الهُدى الذي تَركُوه وأضَاعوه ، فهم ضائِعُون في ظُلمات بعضُها فوقَ بعضٍ ، وهٰذه حالُ كلِّ مُلحِدٍ وَمُشرِكٍ ومُنافق .

* * *

٥ - د - النفاق حيرة وضلال .

استوقد قيل معناه : أَوْقَد ، كما يقال : عَجِب واستعجب بمعنى ، وعلى هذا جاء : سَخِر واستسخر ، وقَرَأ واستقرأ ، وقد جاء استفعل بمعنى أَفْعَل في قول كعب بنِ سعد :

وَدَاعٍ دعَا يا مَن يُجيب إلى النَّدىٰ فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاكَ مُجيب

فلم يستجبه أي لم يُجِبه .

والمشهورُ الغالبُ في باب استفعل أن الهمزة والسين والتاء للطلب تقول : أستغفِرُ اللهَ ، أي أطلبُ من الله أن يغفِرَ لي .

وعليه فُسِّر – أيضا – معنى : استوقد في الآية الكريمة ، فقيل : استوقد يُراد به الطلبُ من غيره أن يُوقِدَ له على المشهُور من بابِ استفعل ، وذلك يَقتضِي حاجتَهُ إلى النار ، فانطفاؤُها مع حاجتِه إليها أنكىٰ .

ووقودُ النارِ سطوعُها وارتفاعُ لَهَبِها ، والنارُ جوْهرٌ لطيف مضيءٌ حارٌّ مُحرق ، والنورُ ضوءُها ، وضوءُ كلِّ نيِّرٍ ، وهو نَقيضُ الظلمةِ ، واشتقاقُها من نَارَ يَنُور (إذا نفَر) لأن فيها حركةً واضطرابًا والنُّور مشتقٌّ منها .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ١٧ .

والإضاءةُ فَرْطُ الإنارة ، وَمِصْدَاقُ ذٰلك قولُه تعالىٰ : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا** ﴾[1] .

وقيل : إنَّ الفعل : أضاءت يتعدَّىٰ لأنه نُقل بالهمزة من ضاء « اللازم » ومنه قولُ العباسِ بنِ عبد المطلب رضى اللهُ عنه في النبى ﷺ :

وأنتَ لَمَّا وُلِدْتَ أشرقت الأر ضُ وضاءتْ بنورِك الطـــرقُ

وعلى هذا تكون « ما » فى قوله : ﴿ **أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ** ﴾ مفعولا أي جَعَلَتِ النارُ ما حولَ المستوقِدِ مُضيئا .

وقيل : أضاءت لا يتعدَّىٰ ، لأنه يُقال ضاء وأضاء بمعنى ، فيكون الفعل مسنَدًا إلى « ما حوله » أي صارت الأماكنُ والأشياءُ التي حولَ المستوقِدِ مضيئةً بالنار ، أو يكونُ الفعلُ مسنَدًا إلى ضمير النارِ وحينئذ إمَّا أن تكونَ كلمةُ « ما » مزيدةً و « حوله » ظرفا أو تكونَ « ما » موصولةً وقعت عبارةً عن الأمكنة فتكونَ مع صلتِها مفعولًا فيه لأضاءت .

ولفظ « الذي » في الآية الكريمة : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ ...** ﴾ يقع للواحد وللجمع ، وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ **وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ** ﴾[2] إنه بهذه اللغة . ففي قوله تعالىٰ : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى** ﴾ قيل : المعنىٰ كمثل الذين استوقدوا ، ولذلك قال : ﴿ **ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ فَحُمِل أولُ الكلام على الواحدِ وآخِرُه على الجمع .

وقيل : إنما وحَّد الذي واستوقد لأن المستوقِدَ كان واحدًا من جماعة تولَّى

---

(١) يونس : ٥ .

(٢) الزمر : ٣٣ .

الإيقادَ لهم ، فلما ذهب الضوءُ رَجَع عليهم جميعا ، فقال « بنورهم » .

أمَّا جوابُ لمَّا في قوله تعالىٰ : ﴿ **فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ فاختلف النحاةُ فيه ، كما اختلفوا في عوْد الضميرِ من نورهم ، فقيل – كما عند القرطبي – جوابُ لمَّا محذوفٌ وهو طُفِئَتْ ، والضميرُ في نُورهم على هذا للمنافقين ، والإخبارُ بهذا عن حالٍ تكونُ في الآخرة ، كما قال تعالىٰ من سورة الحديد : ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ** ﴾[1] .

وقيل جواب لمّا هو « ذهب اللهُ بنورهم » والضميرُ في نورهم عائدٌ على الذي استوقَد – لأنه في معنى الجمع – وعلى هذا القولِ يَتِمُّ تمثيلُ المنافق بالمستوقِد ، لأن بقاءَ المستوقِدِ في ظلماتٍ لا يُبصر كبقاء المنافقِ في حيرته وتَردُّدِه ، والمعنى المرادُ بالآية : ضَرْبُ مثلٍ للمنافقين ، وذلك أن ما يُظهرونه من الإيمان الذي تَثْبُتُ لهم به أحكامُ المسلمين من المناكح والتوارثِ والغنائمِ والأمنِ على أنفسِهم وأولادِهم وأموالِهم بمثابة من أوقَد نارًا في ليلةٍ مُظلمةٍ فاستضاء بها ، ورأى ما ينبغي أن يَتَّقِيَه وأَمِنَ منه ، فإذا طُفئت عنه أو ذهبَتْ وصل إليه الأذى وبقِيَ متحيِّرًا فكذلك المنافقون اغتروا بكلمة الإسلامِ ثُم يصيرون بعد الموتِ إلى العذاب الأليم كما أخبر التنزيلُ : ﴿ **إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾[2] ويَذْهَبُ نورُهم ، ولهذا يقولون يوم القيامة للمؤمنين الناجين : « انظرونا نقتبس من نوركم » .

إنَّ سياقَ الكلامِ في التمثيل لذمِّ المنافقين وتبشيعِ نواياهم ، ولتقبيح أعمالهم بأنهم بعد انتفاعِهم بضياءِ كلمةِ الإسلام واقعون في ظلمة النفاقِ التي ترمي بهم إلى ظُلمة العقابِ السرمدية .

---

(١) الآية : ١٣ .

(٢) النساء : ١٤٥ .

قال السُدِّى في تفسيره نقلا عن جمع من الصحابة في قوله تعالىٰ : ﴿ **فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ** ﴾ إن ناسا دخلوا في الإسلام مَقْدَمَ النبىِّ ﷺ المدينةَ ، ثم إنهم نافقوا ، فكان مَثلُهم كمثل رجلٍ كان في ظُلمة ، فأوقد نارا ، فأضاءت ما حوله من قذىً أو أذىً حتى عرف ما يَتَّقِي منه ، فبينا هو كذلك إذ طُفئت نارُه فأقبل لا يدري ما يَتَّقِي من أذى ، فكذلك المنافق : كان في ظُلمة الشرك فأسلم ، فعرف الحلالَ والحرام ، والخيرَ والشر ، فبينا هو كذلك إذ كفَر ، فصار لا يَعرِف الحلالَ من الحرام ، ولا الخيرَ من الشر .

إن المنافقَ يعيش في الدنيا أعمى القلبِ ضالا حائرا متخبِّطا سيِّئَ السريرة ، خبيثَ النفس ، وحين تُكشَفُ الخبايا ، وتُفضَحُ النَّوايا في يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلب سليم يندمُ ولا ينفعه الندمُ .. ومن فضل اللهِ علينا أنْ بَيَّن لنا أحوالَ الكفارِ والمنافقين ليكونَ لنا في ذلك عبرةٌ ، وعظةٌ ، وليتقِىَ أهلُ الحكمةِ والبصيرةِ مسالكَ الهالكين .

مَثَل آخر :

وفي سورة البقرة ضَرب اللهُ عز وجل مثلا آخرَ لصنفٍ من المنافقين يشرح حالَهم ، ويبينُ فظاعةَ أعمالهم ، وسوءَ أفعالهم ، يقول سبحانه وتعالىٰ في تصوير حالهم :

﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ، وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ١٩ و ٢٠ .

« أو » في قوله « أو كصيِّب » بمعنى الواو كما قال الطبرى والفرَّاء ، ومن هذا في كلام العرب :

نَالَ الخِلافةَ أو كانت له قَدَرًا كما أَتىٰ ربَّه موسَىٰ على قَدَر

أي وكانت له قدرا .

وقيل « أو » في الآية لتساوي الشيئين أو المثلين أو القصتَّين بدون شكٍّ ، وذلك كقولك أعطِ المسكينَ أو ابنَ السبيل ، تريد أنهما سيَّان في استحقاق الصدقة ، ومنه قولُه تعالىٰ : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا** ﴾[1] أي الآثمُ والكفورُ متساويان في وجوب عِصيانهما ، فكذلك قوله تعالىٰ ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ** ﴾ معناه – كما يقول مفسِّر – أن كيفيةَ قصةِ المنافقين مُشْبِهةٌ لكيفيتَىْ هاتين القصتين وأن القصتين سواءٌ في استقلال كلِّ واحدةٍ منهما بوجْهِ التمثيل ، فبأيّتهما مَثَّلتَها – أي قصةَ المنافقين – فأنت مُصيب ، وإنْ مثَّلتَها بهما جميعا فكذلك .

والصيِّبُ : هو المطر الذي يَصوب أي ينزلُ ويقع ، ويقال للسحاب صيِّب أيضا ، وتنكير صيِّب لأنه أُريد نوعٌ من المطر شديدٌ هائلٌ كما نُكِّرت النارُ في المثَل الأول . وجمعُه صَيايب ، وأصلُه صَيْوِبٌ اجتمعت الياء والواو وسُبقت إحداهما بالسكون فَقُلبت الواوُ ياءً وأُدغِمت كما في : هيِّن وليِّن وسيِّد .

والسماء : هٰذه المِظَلَّةُ وَتُذكَّر وتُؤنَّث .

والرعد : الصوتُ الذي يُسمع في السحاب أحيانا عند تَجمُّعه ، والبرقُ : الضوءُ الذي يَلْمع في السحاب غالبا .

والصواعقُ جمع صاعقة : نارٌ تسقط من السماء ، والعذابُ المهلك وجسمٌ ناريٌّ مشتعل يسقط من السماء في رعد شديد .

---

(١) الإنسان : ٢٤ .

٦ - هـ - الهداية والنجاة على قدر نور الإيمان والعمل .

الصيِّب وهو المطرُ ، والظلمات ، والرعد ، والبرق ، من الظواهر الطبيعية التي يراها الناس بعيونهم ، ويسمعون أصواتَها بآذانهم فهي ظواهرُ محسوسة ، وآثارُها للناس معروفة ، نُقِل هذا المشهدُ : وهو مشهدُ مَنْ أخذتْه السماءُ في الليلةِ المظلمةِ ومع المطرِ رعدٌ وبرقٌ وخوفٌ من الصواعق وحيرةٌ شديدةٌ من حُلْكة الظلام نُقل إلى بيان حالِ صنفٍ من المنافقين وما في نفوسهم الخبيثةِ من الشكوك والكفرِ والتردُّد ، فَنَقَلَنَا المثلُ من المجهول إلى المعلوم ، وممَّا يُدرك بالعقل إلى ما تقعُ عليه العينُ وتسمعُه الأذنُ مع دقةِ التعبير وإيجازه وإعجازِه وروعةِ الصورةِ وجمالها .

ولنتدبر : ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ، وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[1] .

اسْتَحْضِر في نفسك حالَ قومٍ مُشاةٍ في صحراءَ نَزَلَ عليهم بعْد ما أقبل ظلامُ الليل مطرٌ من السماء قَصفت رعودُه ، ولمعت بروقُه ، وتَصَوَّرْ كيف يَهْوُون بأصابعهم إلى آذانهم كلَّما حَدث قاصفٌ من الرعد ، ليدفعوا شدةَ وقْعِه ، بِسَدٍّ

---

(١) البقرة : ١٩ و ٢٠ .

منافذِ السمعِ برؤوس الأنامل ، وعُبِّر عن الأنامل بالأصابع هذا التعبيرُ المجازيُّ اللطيفُ للإشعار بشدة عنايتِهم بسدِّ آذانهم ، ومبالغتِهم في إدخال أناملِهم في أصمختها ، كأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يحاول بما دَهَمَهُ من الخوف أن يغرسَ إصبَعه كلَّها في أُذنه حتى لا يكونَ للصوت منفذٌ إلى سمْعه ، لِما يخشاه على نفسه من الموت الزؤام ، ومعالجةِ الحِمام ، وهذا هو الجُبن الخالع ، ومنتهىٰ حدود الحماقة ، لأن سدَّ الآذان ليس من أسباب الوقاية من أَخْذ الصاعقة ، ونزولِ الموت ، وإن الموت هو فَقْدُ الحياة بمفارقة الروح للبدن عند انقضاءِ الأجل الذي قدَّره الخالقُ الحكيم .

هذا المشهد يُريك شدَّةَ ما فيه هؤلاء القومِ من الحيرة والدهشة ، ومع هذا كانت تمرُّ بهم لحظاتٌ يَعرفون فيها طريقَهم عندما يشتدُّ البرق ، ويُضيء لهم فيمشون في ضوئه ، فإذا انقطع واشتدَّ الظلامُ قاموا ثابتين في أماكنهم وهم متحيرون مضطربون قلقون منزعجون .

هذه الصورةُ الواضحةُ المتكاملةُ نُقِلت لبيان حالِ ضَرْبٍ من المنافقين ، يقول فيهم ابنُ كثير : وهم قومٌ يظهر لهم الحقُّ تارة ، ويشكُّون تارة أخرى ، فقلوبُهم في حالِ شكِّهم وكُفرهم وتردُّدِهم كصيِّبٍ وهو المطرُ نَزل من السماء في حالِ ظلماتٍ وهي الشكوكُ والكفرُ والنفاقُ و « رعد » وهو ما يُزعج القلوبَ من الخوف فإنَّ شأنَ المنافقين الخوفُ والفزعُ الشديدُ كما قال تعالىٰ : ﴿ **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ** ﴾[1] وقال : ﴿ **وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ** ﴾[2] .

---

(١) المنافقون : ٤

(٢) التوبة : ٥٦ و ٥٧ .

والبرقُ : هو ما يلمع في قلوب هـٰؤلاء الضربِ من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1] أي ولا يُجدي عنهم حذرُهم شيئا لأن الله مُحيط بقدرته وهم تحتَ مشيئته وإرادته ، كما قال : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾[2] .

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾[3] أي لشدَّته وقوتِه في نفسه ، وضعفِ بصائرهم ، وعدمِ ثباتها للإيمان .

وجاء عن ابن عباس : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ أي لشدة ضوءِ الحق ، كلما أضاء لهم مشَوْا فيه ، ﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾[4] أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيءٌ استأنسوا به واتَّبعوه ، وتارةً – حين – تَعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبُهم فوقفوا حائرين .

وفي معنى : ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾[4] جاء عن ابن عباس – أيضا – أي يعرفون الحقَّ ويتكلمون به ، فهم في قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسُوا منه إلى الكفر « قاموا » أي متحيرين .

وفي هذا تمثيلٌ لشدة ما فيه هـٰؤلاء المنافقون من التحيُّر والجهْل بما يأتون وما يَذَرون كالشدة التي فيها أصحابُ الصيِّب إذا صادفُوا من البرق خفقةً مع خوفٍ

---

(١) البقرة : ١٩ .
(٢) البروج : ١٧ : ٢٠ .
(٣) البقرة : ٢٠ .
(٤) البقرة : ٢٠ .

أن يخطَفَ أبصارَهم ويأخذَها بسرعة انتهزوا تلك الخفقةَ فرصةً فَخَطَوْا خُطواتٍ يسيرةً فإذا خَفِي وفَتَر لمعانُه بَقُوا واقفين متقيدين عن الحركة ولو شاء الله لزاد في قصيفِ الرعد فأصمَّهم ، أو في ضوءِ البرق فأعماهم .

وكذلك الحال في هـٰؤلاء المنافقين ... لو شاء الله أن يذهبَ بسمعهم وأبصارهم حتى لا ينجعَ فيهم وعظٌ واعظ ، ولا تُفيدهم هدايةُ هادٍ لفعل سبحانه ، لأن هذا الصنفَ يكونُ أفراده – كما يقول بعض المفسرين – كالخفافيش في نور الشمسِ ، ولكنْ فيهم بقيةٌ من الرجاء ، ورمقٌ من الحياة يوجِّههم إلى الاقتباس من نور الهداية كلما أضاءت لهم بروقُها ، وإلى المشي في الجادَّة كلما استبانوا طريقَها ، ولكنْ تحولُ دون ذلك ظلماتُ التقاليدِ العارضة ، وتقفُ في السبيل عقباتُ البدعِ المُعارضة ، والشبهاتِ المضلة .

إن هـٰؤلاء حين يظهر لهم الحقُّ يَعزمون على اتباعه ، وتسيرُ أفكارُهم في نُوره بعضَ خطوات ، ولكن لا يعتِمون أن تعودَ إليهم عَتْمَةُ التقليد ، وظلمةُ الشبهات والشهواتِ فتقيِّد الفكرَ وتعود بهم إلى الحَيرة ، فهم على سوء الحالِ ، وخطرِ المآل ، لم تنقطع منهم الآمال ، كما انقطعت ممن قال الله فيهم : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾[1] أما هـٰؤلاء فقال فيهم : ﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ** ﴾[2] ولم يقل : إنه ذهب بنُورهم كما ذهب بنور أولـٰئك ، وسَلَبهم كلَّ أنواعِ الهُدىٰ والرشاد وهم الذين ضُرِب لهم المثلُ الأول .

وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ** ﴾[2] أي لِمَا تركوا من الحق بعد معرفته .

﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[2] أي إن الله على كل ما أراد بعباده من

---

(١) البقرة : ١٨ .

(٢) البقرة : ٢٠ .

نقمة أو عفوٍ قدير .. سبحانه وتعالىٰ جل شأنه .

وهكذا يكون الناسُ يوم القيامة عندما يُعطَىٰ الناسُ النورَ بحسب إيمانهم ، فمنهم من يُعطى من النور ما يُضِيء له مسيرةَ فراسخ ، وأكثرَ من ذلك ، وأقلَّ من ذلك ، ومنهم من يُطفأ نُوره تارةً ويُضيء له أخرى ، فَيمشي على الصراط تارةً ويقفُ أخرى ، ومنهم من يُطفأ نورُه بالكلِّية وهم الخلَّصُ من المنافقين ، قال ابن عباس : ليس أحدٌ من أهل التوحيد إلا يُعطى نورًا يوم القيامة ، فأمَّا المنافقُ فيُطفأ نورُه ، فالمؤمنُ مُشفِقٌ مِمَّا يَرى من إطفاء نورِ المنافقين ، فهم يقولون : ربَّنا أتمِم لنا نورنا .

* * *

من سورة البقرة

٧ - وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه الواحد

قال الله تعالىٰ من سورة البقرة :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ . ٢٦

جاء عن جَمْعٍ من الصحابة منهم ابن عباس : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، يعني قولَه سبحانه : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا .. ﴾ وقولَه : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ .. ﴾ الآيات الثلاث ، قال المنافقون : اللهُ أعلىٰ وأجلُّ من أن يَضْرِبَ هذه الأمثالَ ، فأنزل الله تعالىٰ هٰذه الآيةَ إلىٰ قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] .

وجاء عن قتادة : لمَّا ذكر اللهُ العنكبوت والذبابَ قال المشركون : ما بالُ العنكبوتِ والذبابِ يُذكران ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ .

وفي رواية سعيد أن قتادة قال : إن الله لا يستحيي من الحق أن يَذْكُرَ شيئًا مَّا ،

---

(١) البقرة : ٢٧ .

قَلَّ أو كثُر ، وإن الله حينَ ذَكَر في كتابه الذبابَ والعنكبوتَ ، قال أهلُ الضلالة : ما أراد اللهُ من ذِكْرِ هذا ؟ فأنزل الله تعالىٰ الآية .

هذا بعضُ ما ورد في أسباب النزول ومُجمَلُها أن أهل الضلالِ من المنافقين واليهودِ والمشركين أوردوا شبهةً تتعلق ببعض الأمثالِ القرآنية كالأمثال التي ضَرَبَ اللهُ فيها مثَلًا بالذُّباب أو العنكبوتِ أو النملِ والنحلِ ونحوِ ذلك فقالوا : لا يَليق ذِكْرُ مثلِ هـٰذه المحقَّراتِ في كلام البلغاء ، وكان غرضُهم اتخاذَ ذلك حجةً للطعن بصحَّة نِسبة القرآنِ إلى الله تعالىٰ .

وقد رَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الشبهةَ ، ونزلت الآيةُ الكريمةُ تَدحَضُ باطلَهم ، وتُبْطِلُ مطاعِنَهم .

وقد أخبر الله عز وجل : أنه لا يَسْتحيي ، أي : لا يستنكفُ ، وقيل : لا يَخْشَىٰ أن يَضْرِبَ مثلا ما ، أيْ : أيَّ مَثَلٍ كان ، بأيِّ شيء كان ، صغيرا كان أو كبيرا .. سواءٌ كان هذا المثَلُ بعوضةً أو شيئا آخرَ فوقَ البعوضة ، لأن الله عز وجل يقول الحقَّ ، واللهُ لا يستحيي من الحق .

و « ما » في الآية للتقليل :﴿ **أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾، وتكون « بعوضة » منصوبةً على البدل ، كما يقال : لأسعَيَنَّ سعيًا ما ، فيصدُقُ بأدنىٰ شيء . أو انتصبت بعوضة على أنها مفعولٌ ليضرب ، ومثلًا حال من النكرة مقدَّمة عليها ، أو انتصبا مفعولين فَجَرىٰ يَضْرِب مَجْرى يَجعل .

وعند ابن جرير : يجوز أن تكون بعوضة منصوبةً بحذْفِ الجارِ ، وتقديرُ الكلام ، إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بين بعوضةٍ إلى ما فوقها ، ثم حُذِف ذِكْرُ « بين » و « إلى » إذْ كان في نَصْب البعوضةِ ودخولِ الفاء في

« ما » الثانية دلالةٌ عليهما ، كما قالت العرب : « هي أحسنُ الناسِ ما قرنًا فَقَدَمًا » يَعنون : ما بين قَرْنِها إلى قدمِها يَنصِبون الأوَلَ والثانِيَ ليدلَّ النصبُ فيهما على المحذوف من الكلام .

وقولُه سبحانه : ﴿ **فَمَا فَوْقَهَا** ﴾ فيه قولان : أحدُهما فما دونها في الصِّغَرِ والحقارة كما إذا وُصِف رَجُلٌ باللؤم والشُّحِّ فيقول السامع : نَعَمْ ، وهو فوقَ ذلك ، يعنى فيما وصفْتَ ، والثاني : فما فوقها : فما هو أكبرُ منها ، لأنه ليس شيءٌ أحقرَ (ولا أصغرَ) من البعوضة وهٰذا اختيارُ ابنِ جَرير .

فأخبر سبحانه أنه لا يستصغر شيئا يَضْرِبُ به مَثَلا ولو كان في الحقارة والصِّغَر كالبعوضة ، كما ضرب المثَل بالذباب والعنكبوت في قوله : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ** ﴾[1] . وقال : ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا** ... ﴾[2] وفي القرآن الكريم أمثالٌ كثيرة ، وإن الله سبحانه وتعالى قد خلق جميعَ الكائناتِ الحيَّةِ من أدناها إلى أرقاها ، وجَعل في كلِّ نوعٍ منها أدلةً كثيرة على كمال قدرته ، وكمالِ عِلْمه ، وكمالِ حكمتِه ، ووَجَّهَ أنظارَ الناسِ إليها ليتفكَّروا في خلقها ويتأمَّلوا في إتقان صُنعها حتى تكونَ طريقَتهم لمعرفة خالقِهم وخالقِ كلِّ شيء .

وكم في هذه المخلوقات الضعيفةِ التي يحتقرها الناسُ من عجائبَ وغرائبَ وآياتٍ دالاتٍ على وجود الخالقِ وكمالِ حكمته ، وكمالِ سلطانه ، وفي عصرنا

---

(١) الحج : ٧٣ .

(٢) العنكبوت : ٤١ .

الحاضر ارتقى البحثُ العلميُّ وصارت هذه المخلوقاتُ الصغيرةُ والدقيقةُ موضعَ دراسات مستفيضةٍ جادة، وكُتبت فيها البحوثُ، وأُلِّفت الكتبُ، واجتهد أهلُ العلمِ في تسجيل خصائصِ هذه المخلوقاتِ وصفاتِها وأنواعِ سلوكها ، وكشفوا عن العجب العُجاب مما يحيِّرُ العقلَ البشريَّ أحيانا ، ومما يدعو أهلَ العقلِ والحكمة إلى الإيمان بكمال قدرةِ الخالِق ووحدانيتِه وكمالِ علمه وتدبيره .

أما استنكارُ الذين كفروا للتمثيل بها فقد كان ناشئا عن جهْل أو تجاهُل إذ بعضُهم كان جاهلا ، وبعضُهم كان متجاهلا ، أما المؤمنون فإنهم يؤمنون بالأمثال صغيرِها وكبيرِها ، ويعلمون أنها الحقُّ من ربهم ، ويَهديهم اللهُ بها . ففي الأمثال القرآنيةِ عظةٌ وهدايةٌ وعبرةٌ والمؤمنُ يسعىٰ إلى فهمها وتدبُّرها والاتعاظِ بها .

قال بعض السلف : إذا سمعتُ المثلَ في القرآن فلم أفهمه بكيتُ على نفسي ، لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[1] .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي يعلمون أنَّه كلامُ الرحمٰنِ ، وأنه من عند اللهِ .

قال أبو العالية : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني المَثَل ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾ كما قال سبحانه في سورة المدَّثِّر : ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ

---

(١) العنكبوت : ٤٣ .

ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[1] وكذلك قال في آية البقرة : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ .

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ : يعني المنافقين ، ويَهدي به كثيرا : يعني المؤمنين ، فيزيدُ أهلَ الضلالِ ضلالةً إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد عَلِمُوه حقًّا يقينا من المثَل الذي ضربَه اللهُ بما ضربه لهم وأنَّه لِمَا ضربه لهُ موافقٌ ، فذلك إضلالُ اللهِ إياهم .

﴿ وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ : يعني بالمثَل كثيرا من أهل الإيمان وأصحابِ الفطرة السليمة فيزيدُهم هُدى إلى هُداهم وإيمانا إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد عَلِموه حقًّا يقينا أنه موافقٌ لِمَا ضربه اللهُ له مثلا ، وإقرارِهم به ، وذلك هدايةٌ من الله لهم به : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ قالوا : هم المنافقون .

قال ابن عباس : يعرفُه الكافرون فيكفرون به وقال قتادة : فَسَقُوا فأضلهم الله علىٰ فِسقهم . فسبحانَ مَن خلَق الأزواجَ كلَّها مِمَّا تُنبت الأرضُ ومن أنفسهم ومِمَّا لا يعلمون .

وأُنشد ما قال الشاعر : —

يا مَن يَرى مدَّ البعوضِ جناحَها — في ظُلمة الليلِ البهيـمِ الألْيـلِ
ويرى عروقَ نِياطِها في نحْرِهـا — والمخَّ في تلك العظـامِ النُّحَّـلِ
اِغْفِـرْ لعبـدٍ تاب مِن فَرَطَاتِـه — ما كان منـه في الزمـانِ الأوَّلِ

* * *

(١) الآية : ٣١ .

من سورة البقرة

٨ - ذَمُّ عَدم التفكر والتقليد الأعمى .

قال الله تعالىٰ من سورة البقرة :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ آية ١٧١ .

المثَل : الصفةُ والحالُ ، والنعيقُ : زجْرُ الغنمِ والصياحُ بها ، يقال : نعَق الراعي بغنمه ينعِقُ نَعِيقًا ونَعَقَانًا أي صاح بها وزجَرَها .

والدعاءُ يكونُ للقريب ، والنداءُ يكونُ للبعيد ، ولذلك قيل للأذان بالصلاة نداءٌ لأنه للأباعد .

ومعنى « الكُفر » مأخوذٌ من قولهم : كَفَر إذا غَطَّى وسَتَر ومنه قولُ الشاعر :

في ليلةٍ كَفَر النجومَ غَمامُها

أي سَتَرها ، ومنه سُمِّي الليلُ كافِرًا لأنه يغُطي كلَّ شيء بظلامه . والكفرُ ضِدُّ الإيمان ، وإن كلَّ مَنْ حُجِب قلبُه بالرَّيْن عن التوحيدِ فهو كافرٌ ، وكذلك مَنْ غَطَّى الحقَّ بأقوالِه وأفعالِه ، ومن الكفر جحودُ النعمةِ والإحسان .

إنَّ من أعظمِ النِّعمِ على العباد أن أرسلَ اللهُ عز وجل الرسلَ إليهم وأنزل الكتبَ لهداية الخلقِ إلى الحقِّ ، وإرشادِهم إلى مصالح دُنياهم ، وإلى ما يُحقق لهم الفوزَ والنجاةَ في الآخرة وأرسل سبحانه نبيَّه محمدًا ﷺ بالرسالة العامةِ لدعوة الناسِ

جميعا إلى الدخول في دينِ الله ، والانضواءِ تحت لواءِ الإسلام ، والاقتداءِ بالنبى محمدٍ ﷺ والجهادِ لإعلاء كلمةِ الله .

ومن نعم اللهِ على العباد أن مَنَحَنا العقلَ والفهمَ والتمييزَ ، وخلق لنا السمعَ والبصرَ ، وعَلَّمنا البيانَ والإفصاحَ عما في نفوسنا بالكلام . وأقام سبحانه براهينَ وحدانيتِه ، ودلائلَ وجودِه وقدرتِه وحكمتِه في كل ما تقعُ عليه العينُ في السماء والأرضِ وفي النفس ، إذ تنتقلُ المرئياتُ إلى مراكز الإدراكِ الواعي فيتمُّ التدبُّر والتأمُّلُ ويرى القلبُ السليم ، والعقلُ الحكيمُ في كل شيءٍ آيةً شاهدةً بوجود الخالقِ ووحدانيتِه وكمالِ قدرتِه وسلطانِه .

وكذلك الأذنان وهما الواسطةُ بين مراكزِ الإدراك الواعي في الإنسان وبين ما يتلقَّاه المرءُ مِمَّا يسمعُه من الآخرين فيفكِّرُ أهلُ البصيرة والفكرِ المستقيم والعقلِ السليم فيما يسمعونه ، فينفِرُون من الشرِّ ، ويُقبِلون على الخير ودعاتِه مُستجيبين للعظة الحسنةِ ، ملبِّين نداءَ الحق .

إن الإنسانَ الذي لا يَرىٰ في الآيات الكونيةِ إلا ظواهرَها ومنافعَها الماديةَ دون أن يفكِّرَ في دلالتها على وجودِ الصانعِ الحكيم ، وعلى وحدانيتِه وكمالِ قدرتِه ويطمئنَّ قلبُه بهذا الإيمانِ . إنَّ هذا الإنسانَ فَقَد حقيقيةَ البصرِ فكأنه أعمىٰ لا يَرى . وإذا لم ينتفعْ المرءُ بسمعه فلم تُفِدْه العظةُ ، ولم يتدبرْ آياتِ اللهِ التي أنزلها على نبيِّه محمدٍ ﷺ فكأنه فقَد هذه النعمةَ إذ ضاعت عليه منفعتُها بإعراضه عن سماع الحقِّ وقبولِه ، وباختياره الضلالةَ على الهدىٰ ، وبعدم إصغائِه بتدبُّرٍ وفهْمٍ إلى الدعاة الذين يُرشدون إلى دينِ الله ، ويدعون إلى الفضائل والقيمِ التي جاء بها الإسلامُ ، ويُحذِّرون من الجمود والتقليدِ لِمَا كان عليه السابقون من المشركين والملحدين وزعماءِ الضلال وأهلِ الهوى .

إن الذين يُعرضون عن الدين الحقِّ ، ولا يَنتفعون بالحواسِّ انتفاعا حقيقيا في معرفة التوحيد ، وفي الإقبال على دعوة الإسلام يقول الله عز وجل فيهم لنبيِّه ﷺ في أوائل سورة البقرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

والإنذار : هو الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسَعُ زمانُه الاحتراز ، فإن لم يتسع زمانُه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا .

فهـٰؤلاء الذين رفضوا الإيمان ، واختاروا الكفر ، وقد وضَحت لهم دلائلُ الإيمان ، وأعمى اللهُ بصائرهم عن الهُدى سواءٌ عليهم إنذارُك وعدمُه ، فإنهم لا يُؤمنون بالحقِّ الذي دعوتَهم إليه ، والهُدى الذي بيَّنتَه لهم . أي إن من كَتب اللهُ عليه الشقاوةَ فلا مُسعِد له ، ومن أضلَّه فلا هادِي له ، فلا تَذهب نفسُك عليهم حسراتٍ ، وبَلِّغهم الرسالةَ ، فمن استجاب فله الحظُّ الأوفر ، ومَن تولَّىٰ فلا تَحْزَن عليهم ، فإنما على الرسول البلاغُ ، وعلى اللهِ الحسابُ .

لقد ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوةً فهم لا يُبصرون هُدىً ، ولا يسمعون عظةً ، ولا يفقهون ولا يعقلون .

إن الختمَ مصدرُ ختمتُ الشيءَ ختْما فهو مختوم ومُخَتَّمٌ ومعناه : التغطيةُ علىٰ الشيء والاستيثاقُ منه حتى لا يدخلَه شيء ، ومنه خَتْمُ الكتابِ والبابِ وما يُشبه ذلك حتى لا يُوصَلَ إلى ما فيه ، ولا يُوضَعَ فيه غيرُ ما فيه ، وهذا الختْمُ حسيٌّ ومعلومٌ في الأوعية والظروفِ التي لا يُوصَل إلى ما فيها إلا بفضِّ ذلك عنها ثم

---

(١) الآيتان : ٦ و ٧ .

حَلِّها ، فكذلك لا يَصِلُ الإيمان إلى قلوب مَن وَصَف اللهُ أنه خَتَمَ على قلوبهم ، وعلى سَمْعهم إلا بعد فضِّ خاتَمِه وحلِّه رباطَه .

والختمُ على القلوب : عدمُ الوعْي عن الحقِّ سبحانه مفهومَ مخاطباتِه والفكرِ في آياته ، وعلى السمع : عدمُ فهمهم للقرآن إذا تُلي عليهم ، أو دُعوا إلى وحدانية اللهِ ، وعلى الأبصار : عدمُ هدايتها للنظر في مخلوقاته سبحانه ، وفي عجائب مصنوعاتِه .

إن مَثَلَ هٰؤلاء الكفارِ الذين استوى الإنذارُ وعدمُه بالنسبةِ لهم إذ انصرفت قلوبُهم عن الداعي ، إن مَثَلَهم وصِفتَهم وحالَهم كمثَل قطيعٍ من الغنم يخاطُبها الراعي بصوته العالي فلا تسمعُ الغنمُ إلا دُعاء ونداء ، لأنها لا تفهمُ ولا تعِي معنى الكلامِ الذي تُخَاطَبُ به ، ولا تُدرِك دلالاتِه ، وكذٰلك هٰؤلاء الكفارُ الذين يتصامُّون عن سماع الحقِّ فكأنهم صُمٌّ ، ولا يَستجيبون لِمَا يُدعَوْن إليه فكأنهم خُرس ، ولا ينظرون في آياته تعالى في الآفاق وفي أنفسهم فكأنهم عُمْيٌ فهم لا يَعقلون ؛ فشأنُهم شأنُ البهيم يسمع الصوتَ ولا يعِي المعنى ، وينقادُ لغيره انقيادًا بلا بصيرة كما كان يقول هٰؤلاء الكفارُ عن أنفسهم : إنهم يَتْبَعُون آباءَهم وساداتِهم ، ويُقلِّدون رؤساءَ الضلالِ دون أن يستندوا إلى دليل أو حجة ، ولنسمع الله عز وجل يُسجِّل عليهم هذا الضلال : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ** ﴾[1] وقد وبَّخهم الله عز وجل وردَّ عليهم مقالتهم الحَمقاء ، وأظهر بُطلانَ آرائهم فقال : ﴿ **أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ** ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ١٧٠ .

وفي هذا ذمٌّ للتقليد في الباطل والشرِّ ، وَنَهْيٌ للعقلاء عن أن يُسْلِمُوا زمامَهم للملحِدين أو المبتدِعَة أو المشركين ليقودوهم في مسالك الشرِّ ، وطرقِ الفساد ، كما يُقاد البعيرُ بالحبل .

وقد جاء المثَلُ المضروبُ لهؤلاء الكفارِ بما فيه من دِقَّة التصويرِ وبما تضمنته الصورةُ من حركةٍ حيةٍ ناطقةٍ لِيَزِيدَ المعنى وضوحا ، ويؤكِّدَه ويؤثِّرَ في النفس إذ لا يَقْبل عاقلٌ على نفسه أن يحيا كبهيمٍ يُقاد حيث يُريد أهلُ الباطل : ﴿ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً** ﴾ .

شَبَّه اللهُ تعالىٰ واعظَ الكفارِ وداعِيَهُم وهو محمدٌ ﷺ بالراعي الذي يَنعِقُ بالغنم والإبلِ فلا تسمعُ إلا دعاءه ونداءَه ولا تفهم ما يقول .

قال سيبويه : ولم يُشَبَّه الكفارُ بالناعق وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به ، والمعنى : وَمَثَلُك يا محمد ، وَمَثَلُ الذين كفروا كمثَل الناعِقِ والمنعوق به أي من البهائم التي لا تفهمُ فحُذِف لدلالة المعنى .

هذا وبعضُ المفسرين يلمحُ في التمثيل صورةً أخرى -أيضا- فسَّرها ابنُ زيدٍ بقوله : مَثَل الذين كفروا في دعائهم الآلهةَ من الجماد كمثَل الصائح في جوف الليلِ فَيُجيبه الصدَىٰ ، فهو يَصيح بما لا يسمع ، ويجيبه مالا حقيقةَ فيه ، ولا مُنْتَفَع . ويقول الطبرى : المرادُ مثَل الكافرين في دعائهم آلهتَهم كمثَل الذي يَنعِق بشيء بَعيد فهو لا يسمع من أجل البُعْد ، فليس للناعق من ذلك إلا النداءُ الذي يُتعِبُه ويُنصِبُه . والمعنى الأول عليه معظَمُ العلماء .

﴿ **صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ** ﴾ أي : هؤلاء الكفارُ صمٌّ عن سماع الحق ، بُكم لا يَتفوَّهون به ، عُمْيٌ عن رؤيةِ طريقِهِ ومسلكِه : ﴿**فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ أي : لا يعقلون شيئًا ولا يفهمونه .

٩ - الملحدون والجاحدون
« كأنهم حُمُرٌ مستنفرة »

إذا أراد الله عز وجل بعبد خيرا وفّقه إلى الإيمان بالقرآن الكريم ، والانتفاعِ بما جاء فيه ، والوقوفِ عند حدوده ، والعمل بمحكمه ، والتصديقِ بمتشابهه ، وتدبرِ حِكَمِهِ ، ومعرفةِ أحكامِه ، والإذعانِ لما أمر اللهُ به ، وطاعةِ نبيِّه ﷺ في نور هدايةِ الوحْي .

وأشقى الناسِ هم المعرضون عن هداية الإسلام ، هم أهلُ الجحودِ والنكرانِ وأسوأُ الناسِ حالًا ومآلًا هم الذين يتركون العملَ بما في القرآن الكريم ، ولا يتَّبعون سنَّةَ النبيِّ محمدٍ ﷺ .

إن القرآنَ الكريمَ كلامُ ربِّ العالمين ، نزل به جبريلُ الأمينُ على قلب خاتمِ النبيين ، يَهدي إلى الحق ، وإلى طريقٍ مستقيم ، وهو نورٌ لمن آمنَ به ، وعصمةٌ لمن تمسَّك به ، وعمِل بما فيه ، ونجاةٌ لمن اتَّبعه ، ورحمةٌ وعظةٌ ، وشفاءٌ لما في الصدور من الشُّبَه والشُّكوك .

دعا النبيُّ ﷺ الناسَ إلى الإسلام ، وقرأ عليهم القرآنَ فمنهم مَن آمَن ، ونفعته العظةُ ، ومنهم من تكبَّر ، ونفَر ، وأعرَض ، واختار الضلالَة ، فَقبُح عملُه ، وخاب سعيُه ، وخسِر خُسرانا مُّبينًا ، وضلَّ ضلالًا بعيدا ، وقد قبَّح اللهُ أعمالَ المُعرضين عن البرهان وعن هدايةِ القرآن ، وضَرَبَ لهم مثَلا يَكْشِف

عن نَزَقِهم وسوءِ تفكيرهم ، وعدمِ تدبُّرِهم مَّا ينفعهم ، فقال عز وجل من سورة المُدَّثر :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾[1] .

إن المُعرضين عن القرآن العظيم ، النافرين من سلطانِه المؤثِّرِ في نفوسهم بما فيه من بلاغةٍ رفيعة ، وإيجازٍ وإعجاز ، وبما فيه من البرهانِ الساطع ، والدليلِ الشافي ، ومن الحقائقِ التي لا يأتيها الباطلُ من بين يديها ولا من خَلفها ، وبما فيه من أنوار الهدايةِ الساطعة ، هـٰؤلاء قد جاء تمثيلُهم في الآيات الكريمةِ بالحمُر الوحشيةِ قد فَرَّت مذعورةً نافرةً من جماعةِ الرُّماة الذين يتتبَّعونها لصيدها وقنصِها ، وقد أصابها ذعرٌ شديدٌ فولَّت هاربةً لا تَلوي على شيء .

و « ٱلتَّذْكِرة » التذكرةُ في اللغة ما يُستذكر به الأمر ، ولمَّا كان القرآنُ مذكِّرًا بالحقائق وواعظًا بها ، وصفَه اللهُ عز وجل بأنه تذكِرة ، وأطلق عليه اسمَ « ٱلتذكرة » .

وقولُه سبحانه : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : أيُّ شيءٍ حصَل لهـٰؤلاء المعرضين عن القرآن الكريم وآياتِه ، وقد جاءهم بخيْرَي الدنيا والآخرة ، واشتمل على التذكِرة الكُبرى ، والموعظةِ العُظمى ، فَلِم لا يتدبَّرون ما فيه ، ولا يهتدون به ؟ .

وفي تفسير مقاتل : الإعراضُ عن القرآن من وجهين ، أحدُهما الجحودُ

---

(١) الآيات : ٤٩ : ٥٣ .

والإنكار ، والوجْهُ الآخرُ تَرْكُ العملِ بما فيه .

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ ﴾ أي كأن هـٰؤلاء الجاحدين في فرارِهم مِمَّا جاء به النبيُّ محمدٌ ﷺ ﴿ حمرٌ مستنفرة ﴾ قال ابن عباس : أراد الحمرَ الوحشيةَ ... وقد كانت العربُ يَضربون هذه الحمرَ الوحشيةَ مَثَلا في النِّفار والشُّرود ولا سيَّما إذا نجَم لها شاخصٌ ، أو أراد أن يقنصَها قانصٌ ، و « مستنفِرة » بكسر الفاء بمعنى أنها طلبت النِّفارَ من نفسها ، وتكلَّفَتْه تَكلُّفا ، فيكونُ ذلك أشدَّ في عَدْوِها ، وأبعدَ في نِفَارِها .

أمَّا السببُ الذي دعاها إلى النفار والهربِ ففي قوله تعالى : ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أي نَفرت وهربت من رماةٍ يرمونها .

وفي اللغة : القسْورُ الرامي وجمعُه القَسورة وهم الرماةُ والصيادون . وقيل : إن القسورةَ هو الأسدُ أي من القسْر بمعنى القهْر أي : إنَّه يَقْهَر السباعَ ، والحمُر الوحشيةُ تهرُب من السباع .

فتأمَّل الإنسانَ الذي ترجو له الخير ، وتَمُدُّ يدك إليه مُحسِنا ، وتسعَىٰ نحوه تدعوه إلى ما ينفعُه ، وتحذِّره مِمَّا يضرُّه ، وتُبصِّره وأنت تراه في حيرةٍ وضلال ، ويسعىٰ بقدميْه إلى هلاكه ، تأمَّل مثْلَ هذا الإنسانِ وعطفَك عليه ورحمتَك به ، وهو ينفِرُ منك ويصمُّ أذنيه عن سماع النصيحة ، وينفِرُّ مولِّيًا كما تفِرُّ الحمُرُ الوحشيةُ إذا رأت الصيادَ فى خِفَّة وسُرعة وطيْش . فتنطلقُ بعيدا .

ألا تَرَىٰ في رحمةِ الداعي الكريمِ محمدٍ ﷺ بقومه وبالناس جميعا ما يدعو إلى وجوب الإقبالِ عليه ، والاتعاظِ بما تضمَّنَه القرآنُ العظيم ، والانتفاع ببراهينه وآياتِه ؟ ولكنَّ المخذولين يختارون الظلامَ على النور ، وأسبابَ الشقاوةِ على

أسباب السعادة .. فكان في تشبيههم في إعراضهم عن القرآن ، واستماع ما فيه من الحِكم والمواعظ ، وَشِرادِهم عن الداعي بحُمُرٍ وحشيةٍ قد جَدَّت في عَدْوِها مِمَّا أفزعَها كان في هذا التمثيلِ والتشبيهِ تهجينٌ لحال هـٰؤلاء الكفارِ ، وشهادةٌ عليهم بالبلَهِ والغَباء والبلادة .

وفي هـٰذا المَثَلِ تَمثيلٌ لأمْرٍ مَعْنَوِيٍّ مقرونٍ بظواهرَ تُدْرَكُ بالحسِّ الظاهر ، بصورةٍ تُدْرَكُ بالحسِّ الظاهر مقرونةٍ بحالةٍ معنويةٍ نفسيَّة ، وهي في المشبَّه به صورةُ الحُمر الوحشيةِ وقد فاجأها الصيادون بحبالهم وَنِبالِهم فنفَرت مولية ، وفَرَّت هاربةً في سرعةٍ وخِفةٍ مبتعدةً عن مجال الصيادين . فهذه صورةٌ حِسيَّةٌ بخطوطها ومجالِها وما فيها من حركة ، أمَّا الحالةُ النفسيةُ المعنويةُ فهي الشعورُ بالخوف والذعرِ وما ينطوي عليه هذا الشعورُ من الكراهية للصياد .

وهذه الصورةُ الرائعةُ الموضِّحةُ للمعنى مُنتزَعَةٌ من الواقع مِمَّا يجعل تأثيرَها أقوىٰ في النفس؛ إذ الغرضُ من هذا التمثيلِ التنفيرُ من الإعراض عن هدايةِ القرآنِ الكريم ، مع تقبيحِ صورةِ المُعرِضين وذمِّهم ، وهذا يقتضي العنايةَ بالقرآن ، والعملَ بما جاء فيه ، وتدبُّر آياتِه ، وتحليلَ ما أحلَّه الله ، وتحريمَ ما حرَّم الله .

ثم وَصف الوحْيُ من حال أولٰئك المكذِّبين ما هو أشدُّ غرابةً ، فبيَّن أنهم بلَغُوا في العناد حدًّا لا يتقبلُه عقلٌ مستقيم ، ولا يستسيغه ذوقٌ سليم ، ولنتدبر قول الله تعالىٰ : ﴿ **بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً** ﴾ وهذا من التعنُّت والإسرافِ في العناد وعدمِ الإصغاءِ إلى الحجَّة والبرهانِ ، إذ طَلَبَ زعماءُ المعاندين أن يُعطىٰ كلُّ واحدٍ منهم كتابا مفتوحا يقول فيه ربُّ العالمين : إني قد أرسلتُ إليكم محمدًا ﷺ . وذلك أن أبا جهلٍ وأمثالَه من قريش قالوا : يا محمدُ، آتنا بكتُبٍ من ربِّ العالمين مكتوبٍ فيها أنِّي قد أرسلتُ إليكم محمدًا-

ﷺ – كما جاء في سورة الإسراء : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ، وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴾[1] .

وقال ابن عباس : كانوا يقولون : إن كان محمدٌ صادقًا فليُصبح عند كلِّ رجلٍ مِنَّا صحيفةٌ فيها براءتُه وأمنُه من النار . ومقصودُهم أن يُؤْتَوْا ببراءةٍ من عذاب جهنمَ قبل أن يَعملوا العملَ المُنجِّي منها ، وهـٰذا دأبُ قِصَار النظر الذين يطلبون النهايةَ في البداية ، ويريدون بلوغَ الغايةِ قبل تكلُّف المسير إليها ؛ ولمَّا كان فعلُهم هذا دالًّا على مكابرتهم وفسادِ رأيهم زَجَرَهم عنه بِكَلَّا ، فقال تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ .. كَلَّا : أي ليس يكون ذلك ، وفي هذا ردٌّ لقولهم وما اقترحُوه ، ﴿ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أي لا أُعطيهم ما يتمنَّون لأنهم لا يخافون الآخرة اغترارا بالدنيا وهـٰذا هو الذي أفسدهم وجعلهم يُعرِضون عن التذكرة والانتفاع بها .

ثم أكَّد ختامُ سورةِ المدَّثر أن القرآن الكريمَ عظةٌ وهُدىً وتنبيهٌ ، فمن شاء من العباد أن يَذْكُرَه ولا ينساه ويجعلَه نُصْبَ عينيه فعَل لأن به سعادتَه في الدارين . ثم ردَّ المشيئةَ إلى نفسه سبحانه وتعالىٰ فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[2] أي لا يَقْدِرُون على الاتِّعاظ والتذكُّرِ إلا بمشيئة اللهِ لهم ذٰلك ، إذ لا يقع في مُلْكِه سبحانه إلا ما يشاء ، فمن اتَّقىٰ اللهَ ورجَع عن معاصيه تائبا كان أهلا لرحمة الله : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ . فطوبَىٰ لمن خاف ربَّه وأقلَع عن ذنبه .

---

(١) الإسراء : ٩٠ : ٩٣ .

(٢) المدثر : ٥٤ : ٥٦ .

١٠ - الطيِّب والخَبيثْ

نَظَّر القرآنُ الكريمُ بين الاستعدادِ الطيِّبِ الفِطرىِّ في النفس الطيبة ، وبيْن الاستعدادِ السيِّىء في النفس الخبيثة ، فالنفسُ الطيبةُ كالأرض الطيبة ، يُجدى معها التعليم ، وتنفعُها العظةُ ، وتُثمِر فيها النصيحةُ ، ويُفيدها التوجيهُ والإرشادُ إلى الحق والهدى ، أما النفسُ الخبيثةُ فإنها لا تنتفع بعِلم ، ولا تُوقِظُها من الغفلة العظةُ ، ولا تَقْبل النصحيةَ ، بل هي لا تطلب إلا الخبيث ، ولا تركَن إلا للخبيث .

والله عز وجل يقول : ﴿ **وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** ﴾(٥٨) .

﴿ **وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ** ﴾ أي التربةُ الطيبةُ يخرجُ نباتُها سريعا حسَنا ، والخبيثُ : الذي في تُربته حِجارة أو شَوْك والأرضُ السبخة .

نَكِدا : نَصْب على الحال ، وهو العَسِرُ الممتنع من إعطاء الخير .

وهذا تمثيلٌ ، قال مجاهد : يعني أن في بني آدمَ الطيبَ والخبيثَ . إن الآيةَ الكريمةَ تضعُ أمامنا صورةً نراها ونعرفُها ، وتضعُ أمامنا الشيءَ وضِدَّه ليزدادَ فهمُنا ويتضحَ المعنَىٰ المرادُ لذوي العقول فيُقبلون على الطيب ، ويَجْتَنِبون الخبيث ، فمن الأرض ما يَقْبل الماء ، ويَحْيَا به ، وينفعُ الإنسانَ وسائرَ الحيوان ، ومنها ما

يُعطِي الحنظلَ والشوكَ وما لا يقبل الماءَ ولا يحيا به ، كذلك الحالُ في الناس ، ولذا قال أهل العلم : مَعنى الآيةِ التشبيهُ ، شَبَّه تعالى السريعَ الفهمِ بالبلد الطيِّب والبليدَ بالذي خَبُث .

وقال آخرون : هذا مَثَلٌ للقلوب ، فقلبٌ يَقْبلُ الوعْظَ والذِّكرىٰ ، وقلبٌ فاسقٌ ينبو عن ذٰلك .

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – : في هذه الآية : مَثَلٌ ضربَه للمؤمن والكافر ، فالمؤمنُ طيِّبٌ ، وعملُه طيِّبٌ ، كما البلدُ الطيِّبُ ثمرُه طيِّب ، أمَّا الكافرُ فَمَثَلُه كالبلْدةِ السبِخَة المالحةِ ، فالكافرُ هو الخبيث ، وعملُه هو الخبيث .

﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ﴾ أي كما صَرَّفنا من الآيات ، وهي الحججُ والدلالاتُ في إبطال الشِّرك ، كذلك نصرِّفُ الآياتِ في كل ما يحتاجُ إليه الناسُ ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ أي لقومٍ ينتفعون بهذه الآياتِ فيكونون أهلًا لرحمةِ اللهِ عز وجل ، وقد خَصَّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذٰلك .

وقد ضربَ النبيُّ محمدٌ ﷺ لما جاء به من الدِّين والخير العامِّ للبشر كلِّهم مَثَلا بالغيثِ العامِّ الذي يأتِي الناسَ في حال حاجتهم إليه فيحيا به أصحابُ القلوبِ الطيبةِ والفِطَرِ السليمة ، كاختلاف الأرضِ في قبولها الغيثَ وانتفاعِها به . وهو مَثَلٌ رائع ، وواضحٌ ، يُنَبِّه ذوى البصائر ، ويُوقِظُ ضمائرَهم فيبادرون إلى الخيرات ، ويزدادون من المبرات . وقد رَوَىٰ هذا المثلَ أبو موسى عبدُ الله بنُ قيسٍ الأشعرى ، وخرَّجه البخاريُّ في « كتاب العلم » .

قال : قال النبيُّ ﷺ : « مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به من الهُدَىٰ والعِلم ، كمثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصاب أرضًا : فكان منها نقيَّةٌ قَبِلَت الماءَ فأنبتتْ الكلأَ والعُشْبَ

الكثير ، وكانت منها أجادِبُ أمسكت الماءَ ، فنفع اللهُ بها الناسَ فشرِبُوا وسَقَوا وزرعُوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماء ، ولا تُنبِتُ كلأً .

فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين اللهِ ونفعَه ما بعثنى اللهُ به ، فَعَلِم وعَلَّم . ومَثَلُ مَن لم يَرْفَعْ بذٰلك رأسًا ولم يقبلْ هُدَىٰ اللهِ الذي أُرْسِلتُ به » .

مَثَلُ : أي صِفَةُ ، الهدى : أي الدلالةُ الموصلةُ إلى المطلوب « والعلم » المرادُ به معرفةُ الأدلةِ الشرعيةِ فهو من عطفْ المدلول على الدليل ، لأن الهدى هو الدلالةُ الموصلةُ للمقصِد ، والعلمُ هو المستفاد ، والمدلولُ لهذه الدلالة .

« الغيْث » المطَر الذي يأتى عند شِدَّةِ الحاجة إليه .

« نَقِيَّة » أي طيبةٌ صِفَةٌ لـمحذوف أي أرضٌ طيبة .

« الكَلأَ » النباتُ يابسُهُ ورطْبُه « والعُشب » وهو من النبات الرطب ، وهو من ذِكْر الخاصِّ بعد العام .

« أجادِب » وهي الأرضُ الصَّلبةُ التي لا تَشْرَبُ الماءَ ، ولا تُنبِت وهو جَمْع أجْدب كأفضلَ وأفاضل « قِيعان » جمع قاع وهو الأرضُ المستويةُ الملساء .

« فَقُه » أي فهِم فهمًا دقيقا وصار له سَجِيَّة .

قال القرطبى : ضرب النبيُّ ﷺ لما جاء به من الدِّين مثَلا بالغيث العامّ الذي يأتى الناسَ في حال حاجتِهم إليه ، وكذٰلك كان حالُ الناسِ قبل مبعثه ﷺ ، فكما أن الغيثَ يُحيي البلدَ الميتَ ، فكذٰلك علومُ الدين تُحيي القلبَ الميِّتَ ، ثم شبَّه ﷺ السامعين له بالأرض الـمختلفةِ التي ينزلُ بها الغيثُ ، فمنهم العالمُ

العاملُ المعلِّمُ ، وهذا الصنفُ من الناس بمنزلة الأرضِ الطيبةِ شَرِبت ، فانتفعت في نفسها ، وأنبتتْ فنفعَتْ غيرَها .

ومنهم الجامعُ للعلم المستغرقُ لزمانه فيه غَيْرَ أنَّه لم يعملْ بنوافلِه أو لم يتفقَّهْ فيما جمع لعَدَم ثُقوب ذِهْنِه ، وفَقْدِه قوةَ الاستنباطِ لكنَّه أدَّاه لغيره .. فهذا الصِّنفُ بمنزلة الأرضِ التي يَستقرُّ فيها الماءُ ، فينتفعُ به الناسُ ، وهو المشار إليه بقوله ﷺ : « نَضَّر اللهُ امرأً سمع مقالتي فأدَّاها كما سَمِعَها فَرُبَّ مبلِّغٍ أوعَىٰ من سامع » .

ومنهم مَنْ يسمعُ العِلْمَ فلا يحفظُه ، ولا يَعْمَلُ به ، ولا ينقلُه لغيره ، فهو بمنزلة الأرضِ السبِخَةِ أو الملساءِ التي لا تَقْبَلُ الماءَ ولا تحفظُه .

وقد جمع الرسولُ ﷺ في المثَل بين الطائفتين الأُوليين المحمودتين : « فكان منها نقيةٌ قبِلت الماءَ فأنبتت الكلأَ والعُشبَ الكثير ، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماءَ فنفع اللهُ بها الناسَ فشرِبوا وسقَوا وزرعُوا » فالتي أنبتت الكلأَ والعشب الكثير مَثَلٌ : للعالم العامل المعلِّم . انتفع في نفسه ونفَع غيرَهُ . أمَّا الأجادبُ التي تُمسِك الماءَ فنفع الله به الناسَ فذٰلك مَثَلٌ للعالم الذي يؤدِّي العلمَ لغيرِه وينفعُ الناسَ ولا ينتفعُ بِعْلِمه تمامَ الانتفاع .

أمَّا من انتفع بالعلم في نفسه ، ولم يُعَلِّمْه غيرَه ، فهو داخلٌ في القسم الأول وإن كان أدنىٰ منه إذ الأولُ عَلِم وعَمِل وعَلَّم ، وهذا لم يُعلِّم غيره . وذلك قولُه ﷺ « فذٰلك مَثَلُ مَنْ فَقُه في دينِ اللهِ ونَفَعَه ما بعثني اللهُ به ، فَعَلِم وعَلَّم » . فكلا الصنفين عَلِم في نفسه ، وعَلَّم غيره ، وإن كان الأولُ انتفع أيَّما انتفاع بعلْمِه كالأرض تَحْيا بالنبات .

أمَّا القِيعانُ المستويةُ الملساءُ فإنها لا تَحْيا بالماءِ ولا تُمْسِكه فتنفعَ مَثَلٌ

لـهؤلاء الـمعرضين عن الهُدى والخير كالصُّمِّ لا يسمعون عظةً ولا ينتفعون بعِلم ، ولا خير فيهم ، ولا نفْع منهم للآخرين .

ولمح الحافظُ في قول الرسول ﷺ : « ومَثَلُ مَن لم يَرفَع بذلك رأسًا ، ولم يقبلْ هُدَىٰ اللهِ الذي أُرسِلْتُ به » لمح طائفتين ، قال عن الأولى : مَن دَخَل في دينِ الله ، وسَمِع العلمَ ولم يعملْ به ، ولم يُعلِّمه أحدًا ، ومثالُها من الأرض السبِخَة ، وأُشير إليها بقوله ﷺ : « مَن لَمْ يَرْفَع بذٰلك رأسًا » أي أعرض عنه فلم يَنْتَفِع به ولا نفَع ، والأُخرى : مَن لم يدخُل في دين اللهِ أصلا ، بل بلَغَهُ فكفَر به ، ومثالُها من الأرض الصمَّاء المستويةِ التي يمرُّ عليها الماءُ فلا تنتفعُ به ، وأُشير إليها بقوله ﷺ : « ولم يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الذي جِئْتُ به » .

سبحان من أحيا الأرضَ الطيبةَ بالغيث ، وأحيا قلوبَ عبادِه الموحدين بما جاء في كتابه وعلى لسانِ رسوله ﷺ . سبحان من ضرب الأمثالَ لعباده ليتدبَّروا وينتفعوا وليُقبلوا على الخير وعلى كل نافع ، ويَجتنِبُوا الشرَّ والفسادَ ويحذروه ... وصلى الله على نبيه الأمين .

* * *

١١ - أ - في كل سنبلة مائة حبة .

من أعظمِ القُربات النَّفَقةُ في سبيل اللهِ وابتغاءَ مرضاتِه سبحانه وتعالىٰ ، والسخيُّ قريبٌ من الله عز وجل ، قريبٌ من جنَّات النعيم ، إذ المالُ محبوبٌ ، جُبلت النفوسُ على الرغبة فيه ، والسعْي لتحصيله ، وادخارِه ، ومهما كثُر المالُ طمَحَ الإنسانُ إلى المزيد ، وبالمال يُمتحَن العبادُ ، إذ شاء العليمُ القديرُ أن يكونَ المالُ عمادًا ، لا غِنى للأمة عنه ، به تُبنى المدارسُ ، وتُقام المصحَّاتُ والمشافي ، وبه تُبنى المصانع ، وتُعَدُّ العُدَّةُ لإرهاب العدو ، وحمايةِ العقيدة ، وصيانةِ المقدسات ، ودرءِ الشرور ، وردِّ العدوان ، ونُصرةِ الحق ، وإن الأمةَ لا تَقْوَىٰ على النهوض بأعباء تعليمِ أبنائِها إلا بالمال ، ولا تستطيعُ القيامَ بمسؤوليات الدفاع والحمايةِ والإعداد للجهاد إلا بالمال ، هذا إلى جانب إحياءِ الأرضِ وما يتطلَّبُه من إقامةِ السدود ، وحفرِ الآبار ، وشقِّ التُّرعِ والقنواتِ وإيجادِ الوسائلِ اللازمةِ للزراعة والانتفاعِ ببركات الأرضِ وخيراتِها .

وشاءت إرادةُ اللهِ عز وجل أن يَبْسُطَ الرزقَ لمن يشاء ويُضَيِّقَ الرزقَ على من يشاء ، وأن يكون في العباد القويُّ الكاسب ، والضعيفُ ، والمريضُ ، والعاجزُ ، واليتيمُ ، والأرملةُ ، والمسكينُ ، والفقيرُ ، ولا غِنى لإنسان عن المال ، لذا كان الغِنَىٰ امتحانًا واختبارًا وكان الأسخياء الصالحون أحبابَ اللهِ عز وجل إذا بذلوا المالَ يرجون وجْه اللهِ مُقِرِّين بفضله ، موقنين بأن النعمَ كلَّها من الله

عز وجل ، وأن المالَ مالُه ، وأن الشحَّ به في وجوهه الصحيحة مذموم .

وقد وعد الله عز وجل أهلَ السخاء بالبركة والنماءِ والتطهيرِ وتزكيةِ نفوسهم ، ووعدهم سبحانه بمضاعفة الثوابِ ، وبحسن العاقبةِ التي هي خيرٌ من الدنيا وما فيها ، وقد رغَّب الله عز وجل عبادَهُ في البذل ، والإنفاقِ في سبيله ابتغاءَ وجهِه الكريم ، وَشَوَّقَهم إلى التنافس في هذا الميدانِ بِضَرْبِ المَثَلِ الذي يُصَوِّرُ لهم المعْنَىٰ ، ويقرِّبه من الأفهام والعقول ، وَيُحبِّبُ النفوسَ الطيبةَ في الإنفاق الذي يعودُ نفعُه على الفرد والجماعة ، وهَيَّا نتدبرْ قولَه تعالىٰ من سورة البقرة : ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (٢٦١) .

شَبَّه سبحانه نفقةَ المُنفق في سبيله سواءٌ كان المرادُ الجهادَ أو جميعَ سُبل الخيرِ من كل برٍّ بمن بَذَر بذْرًا فأنبتت كلُّ حبةٍ سبعَ سنابلَ اشتملت كلُّ سنبلةٍ على مائة حبةٍ ، واللهُ يضاعف لمن يشاء فوقَ ذلك بحسب حالِ المُنفِق وإيمانه ، وإخلاصِه ، وإحسانِه ، ونَفْعِ نفقته ، وبحسب قدْرها ووقوعها موقِعَها ، فإن ثوابَ الإنفاقِ يتفاوتُ بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمانِ والإخلاصِ والتثبُّت عند النفقة ، وهو إخراجُ المالِ بقلْبٍ ثابتٍ ، قد انشرح صدرُه بإخراجه ، وسمحَت به نفسُه ، وخرج من قلبه قبلَ خروجه من يده ، فهو ثابتُ القلبِ عند إخراجه ، غيرَ جَزِعٍ ولا هَلِعٍ ، ولا مُتْبِعِه نفسَه ترجُفُ يدُه وفؤادُه[1] .

كما يتفاوتُ أَجْرُ المنفقِ بحسبِ نفعِ الإنفاقِ ومصارفِه بمواقِعِه ، وبحسب طيبِ المُنْفَقِ وزكائه[2] .

---

(١) ابن القيم : أمثال القرآن ص ٥٠ ، تحقيق د / ناصر بن سعد الرشيد ، مطابع الصفا / مكة .

(٢) المصدر السابق بقليل من التصرف

وفي هذا المثَل ما يدُّل على فضيلة الجهادِ وأن فيه الثوابَ العظيمَ إذ الحسنةُ تضاعَفُ للمنفِق في سبيل إعلاءِ كلمةِ اللهِ وإعزازِ الدينِ الحقِّ ، ونصرةِ أهلِهِ إلى سبعِمائة ضِعف .

وقد روى البُستِيُّ في صحيح مسنِده – كما جاء عند القُرطبي في تفسيره – أن ابن عمرَ قال : لما نزلت هذه الآيةُ قال رسولُ الله ﷺ : « رَبِّ زِدْ أمتي » فنزلت : ﴿ **مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** ﴾[1] ، قال رسول الله ﷺ : « ربِّ زِدْ أمتي » فنزلت ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[2] .

أمَّا سببُ نزولِ هذا المثَل الذي يُبين شرفَ النفقةِ في سبيلِ اللهِ وحُسْنَها ، وقد ضُمِّنَ التحريضَ على ذٰلك ، والحثَّ عليه ، فقد رُوي أن هذا المثلَ نَزل في شأن عثمانَ بنِ عفانَ وعبدِ الرحمن بنِ عوفٍ ، رضي الله عنهما ، وذلك أن رسولَ اللهِ ﷺ لما حث الناسَ على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك ، جاءه عبدُ الرحمن بن عوف بأربعةِ آلاف فقال : يا رسولَ الله ، كانت لي ثمانيةُ آلاف ، فأمسكتُ لنفسي ولعيالي أربعةَ آلافٍ ، وأربعةَ آلاف أقرضتُها لربي ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك اللهُ لك فيما أمسكتَ ، وفيما أعطيتَ » .

وقال عثمان بنُ عفان : يا رسولَ الله علىَّ جِهاز مَن لا جِهازَ له ، فنزلت الآيةُ فيهما ، رضي الله عنهما .

وسبلُ اللهِ كثيرة ، وأعظمُها الجهادُ في سبيل الله لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا .

---

(١) البقرة : ٢٤٥ .

(٢) الزمر : ١٠ .

قال سعيد بنُ جبير : « في سبيل الله » أي في طاعة الله ، وقال مكحول : يعنى به الإنفاقَ في الجهاد من رباطِ الخيل وإعداد السلاحِ وغيرِ ذلك .. وجاء عن ابن عباس : هو الجهادُ والحجُّ يُضَعَّف الدرهُم فيهما إلى سبعِمائةِ ضِعْفٍ ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ** ﴾ .

قال ابن كثير : وهذا المثَلُ أبلغُ في النفوس من ذكر عددِ السبعمائة ، فإن هذا فيه إشارةٌ إلى أن الأعمالَ الحسنةَ يُنَمِّيها اللهُ لأصحابها كما يُنمِّي الزرعَ لمن بَذَره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السنَّةُ بتضعيف الحَسَنة إلى سبعمائة ، جاء في مسند الإمام أحمدَ أنَّ عياض بن غُطيف عاد أبا عبيدة بنَ الجراح مع جماعةٍ وهو مريضٌ ، وسَمِعَه يقول : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول : مَن أنفق نفقةً فاضِلةً في سبيل اللهِ فبسبعِمائة – ضعف – على نفسِه وأهلِه ، أو عاد مريضًا ، أو مَازَ أذىً ، فالحسنةُ بعشرِ أمثالها ، والصومُ جُنَّةٌ ما لم يَخْرِقْها ، ومن ابتلاه اللهُ عز وجل ببلاء في جسده فهو له حِطَّةٌ « أي إنَّ المرضَ يَحُطُّ من سيئاتِ المؤمنِ على قدْر صبْره » .

وعند الإمام أحمدَ عن أبي مسعودٍ البدريِّ : أن رجلا تصدَّق بناقة مخطومةٍ في سبيل الله ، فقال رسولُ الله ﷺ : « لَتُأتَيَنَّ يومَ القيامةِ بسبعِمائة ناقةٍ مخطومة » . وعند مسلم والنسائى عن الأعمش : « لك بها يومَ القيامة سبعُمائة ناقة » .

وفي المسند – أيضا – أن خُرَيم بنَ فاتك قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق نفقةً في سبيل اللهِ تُضَاعف سبعَمائة ضِعفٍ » .

هذا بعضُ ما جاء في فضل العملِ الصالح والإنفاق في سبيل الله ، وقولُه سبحانه : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ فيه حذفُ مضافٍ تقديرُه : مَثَلُ نفقةِ الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل اللهِ كمثَل حبَّةٍ أو : مَثَلُ الذين يُنفقون أموالَهم كمثَل زارعٍ زَرَع في الأرض حبةً فأنبتت الحبةُ سبعَ سنابلَ ، يعني أخرجت سبعَ سنابلَ في كلِّ سُنبلة مائةُ حبَّة ، فشبَّه المتصدقَ بالزارع ، وشبَّهَ الصدقةَ بالبذْر فيُعطيه اللهُ بكلِّ صدقةٍ له سبعَمائة .

و ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ أي يُخرجون ويبذلون من الإنفاق و ﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الأصلُ في السبيل الطريقُ فيه سهولةٌ وما وضَح منه ، يذكَّر ويُؤنَّث ، ويُستعمل في الخير والشر ، ويضاف إلى الله وإلى المؤمنين فيقال سبيلُ الله ، وسبيلُ المؤمنين ، كما يُضاف إلى المجرمين فيقال : سبيلُ المجرمين أي طريقُ الشرِّ والفساد .

أمَّا سبيلُ اللهِ فقد ورد أنه يُطلَق ويُراد به الإنفاقُ في الجهاد ، ويُطلق ويرادُ به الإنفاقُ في كل ما أَمَر اللهُ به من وجوه الخير ، لكنَّ استعمالَه في الجهاد أكثر .

قال ابن الأثير : وسبيلُ اللهِ عامٌّ يقع على كل عمَلٍ خالصٍ سُلك به طريقُ التقربِ إلى الله عز وجل بأداء الفرائضِ والنوافلِ وأنواعِ الطاعات ، وإذا أُطلق فهو في الغالب واقعٌ على الجهاد حتى صار لكثرة الاستعمالِ كأنه مقصورٌ عليه .

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ الحبةُ اسمُ جنسٍ لكل ما يَزرعه ابنُ آدمَ ويقتاتُه ، وأشهر ذلك البُرُّ ، وحبَّةُ القلب : سويداؤُه ، والحِبَّةُ – بكسر الحاء – بذور البقْل مِمَّا ليس بقوت .

و ﴿ سَنَابِلَ ﴾ جمعُ سنبلة فُنْعُلةٌ من أَسبل الزرعُ إذا صار فيه السنبلُ أي

استرسل بالسنبل كما يَسترسل السِّتر بالإسبال ، وقيل : معناه صار فيه حبٌّ مستور كما يُستر الشيءُ بإسبال السِّتْر عليه .

﴿ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ يعني على سبعِمائة وذلك حسب حالِ المتصدق وصدقِ نيتِه وخلوِّ مالِه من الشبهات والحرام ووضعِه المالَ موضِعَه .

﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي فضلُه واسعٌ لا يُحَدُّ عطاؤُه ، عليمٌ بنية المنفِق ، وبمن يستحقُّ ومن لا يستحق .

* * *

١٢ - ب - لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً .

ضَرَبَ اللهُ عز وجل مَثَلا للمتصدِّق في سبيل اللهِ بالزارع ، إذا كانَ الزارعُ حاذقا في عمله ، ويكونُ البذرُ جيِّدا ، وتكونُ الأرض طيبةً عامرةً يكونُ الزرع أكثرَ ، والعطاءُ أعظمَ ، والخيرُ أوفرَ فكذلك المتصدقُ إذا كان صالحا ، والمالُ طيِّبا ويضعُه في الموضِع المناسب فيصيرُ الثوابُ بإذن الله أكثر ، ولذا قالت طائفة من العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ إنه إعلامٌ بأن الله عزَّ وجلَّ يضاعف لمن يشاء أكثرَ من سبعِمائة ضعف ، وقد رُوي عن جَمْع من الصحابة كما جاء عند ابنِ ماجةَ : أن رسول الله ﷺ قال : « مَن أرسل بنفقةٍ في سبيل اللهِ ، وأقام في بيته ، فله بكل درهم سبعُمائةِ درهم ، ومن غزا بنفسه في سبيل الله ، وأنفق في وجهه فله بكلِّ درهم سبعُمائة ألفِ درهم ، ثم تلا : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ من قوله تعالىٰ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ... ﴾[1] .

إن هذا المَثَل بيَّن لنا فضلَ الإنفاق في سبيل اللهِ وثمرتَه وبيَّن لنا المعنى وقرَّبه بهذا التصويرِ المحسوسِ الذي برز من خلاله أن الأعمالَ الصالحةَ في سبيل اللهِ يُنمِّيها اللهُ عز وجل لأصحابها كما يُنمِّي الزرعَ لمَن بذَره في الأرض الكريمةِ الصالحةِ بفضله ، وإحسانه .

وفي هذا المَثَل ترغيبٌ في الإنفاق ، وبيانُ كيف تبلغُ المضاعفةُ إلى ذلك الحدِّ

---

(١) البقرة : ٢٦١ .

في العِظَم حتى يَرْغَبَ المؤمنون المخلصون في التنافس في الخيرات ، والمبادرةِ إلى المكرُمات ، ويُروِّضوا أنفسَهم على البذل والسخاءِ ممّا يحقق لهم الأمنَ والكرامةَ في الدنيا ، ويجعلُهم أهلا لرحمة اللهِ في الآخرة .

وفي هذا المثلِ – أيضا – دليلٌ على أن الزراعة من أعظم أبوابِ الخير ، وأن اتخاذَ الزرعِ من أعلىٰ الحرف ، وأشرفِ المهنِ التي يتخذُها الناس ، والمكاسبِ التي يشتغلُ بها العمالُ ولذٰلك ضرب الله به المثلَ فقال : ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ** .. ﴾ الآية ، وإننا في عصر الصناعةِ ، والتقدمِ العلميِّ الهائلِ نرى جميعَ الأمم تُعنىٰ بالزراعة ، وتَسعىٰ إلى الإفادة من بركات الأرضِ وما أودع اللهُ فيها من الخيرات ، وإن أعظم ما يَشْغَلُ بالَ العالم المتحضِّر في هذه السنين هو ما يتصل بما يسمونه « الأمْنَ الغذائيَّ » وتتضافر الجهودُ في هذا الميدان ، وتُنفَقُ الأموالُ ، وتُوضع البرامجُ ، وتُرسم الخِططُ ، وتتعاون الدولُ من أجل « الأمن الغذائى » .

ولقد حث الإسلامُ على الزراعة ، وجعلها من فروض الكفايةِ إذ يجبُ على الإمام أن يجبُرَ الناسَ عليها ، وما كان في معناها من غرس الأشجار .. وقد روى هشامُ بنُ عروةَ عن أبيه عن عائشةَ – رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « التمِسُوا الرزقَ في خبايا الأرض » ومن خبايا الأرضِ الزرعُ ، وعليه حثَّ رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح مسلم : « ما من مسلم يَغرِسُ غرسًا ، أو يزرعُ زرعًا فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلَّا كان له صدقةٌ » .

المن والأذى مبطل للأعمال :

إن الله سبحانه وتعالىٰ لا يقبل من الأعمال إلَّا ما كان خالصا لوجهه

الكريم ، وإن الصدقةَ في سبيل اللهِ من أعظمِ وجوهِ الخيرِ وأعمِّها نفعا ، وقد وعد اللهُ عز وجل المتصدِّقين بمضاعفة الثواب ، ثم بَيَّن سبحانه لعباده أن ذٰلك الحكمَ والثوابَ إنما هو لمَن لا يُتْبِعُ إنفاقَه مَنًّا ولا أذىً لأن المنَّ والأذىٰ مبطلان لثواب الصدقةِ كما أخبر سبحانه وتعالىٰ في قوله بعد إيراد المثَل :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ... ﴾[1] .

المفردات :

المنُّ : ذِكْرُ النعمةِ على معنى التعديدِ لها والتقريعِ بها ، مِثْل أن يقول : قد أحسنتُ إليك ونَعَشتُك ، ونحو ذلك ، وقيل : المنّ : هو التحدُّثُ بما أعطىٰ حتى يبلغَ ذٰلك المعْطَىٰ فيؤذيَه .. والمنُّ والأذى مِمَّا يدلُّ على لُؤم الطبع ، والمنُّ من الكبائر ، ثبت ذلك مما ورد في صحيح مسلم وغيرِه ، وأن المنَّانَ أحدُ الثلاثةِ الذين لا ينظر اللهُ إليهم ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم . ففي الحديث الذي أخرجه النَّسائيُّ ورواه ابنُ عمر : « ثلاثةٌ لا يدخلون الجنَّة : العاقُّ لوالديه ، والمدمنُ الخمر ، والمنانُ بما أعطىٰ » وفي بعض طرق مسلم : « المنانُ هو الذي لا يُعطي شيئا إلا مِنَّةً » وفي صحيح مسلم أن أبا ذَرٍّ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثةٌ لا يكلِّمهم اللهُ يومَ القيامة ، ولا ينظرُ إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذابٌ أليم : المنانُ بما أعطىٰ ، والمسبلُ إزاره ، والمنفقُ سِلعتَه بالحلِف الكاذب » .

---

(١) البقرة : ٢٦٢ : ٢٦٤ .

هذا في المنِّ ومعناه وحكمِه ، أما الأذى فهو السبُّ والتشكِّي ، وهو أعمُّ من المنِّ ؛ لأن المنَّ جزءٌ من الأذى لكنه نُصَّ عليه لكثرة وقوعِه ، وللتنبيه إليه .

إنَّ المنَّ والأذى يَكشفان مِمَّن ظهرا منه أنَّه إنما كان يريد مقصِدا دنيويا ، وأنه لم يجعل عملَه خالصا لوجه الله عز وجل فلهـٰذا كان المنُّ والأذى مُضيِّعين للعمل ، مُبطلين للصدقة إذ بَيَّنَ كلُّ واحدٍ منهما أنها لم تكن صدقةً وإنما كانت لأمر آخرَ كأنْ يُريد من المنفَقِ عليه جزاءً بوجهٍ من الوجوه ، أو ينتظرَ ثناءً أو حسنَ صِيت ومنزِلة ، وإنما الأعمالُ بالنيات والمقاصدِ ولكل امرئٍ ما نوىٰ ، فعلى المرء أن يريدَ وجْهَ الله تعالىٰ وثوابَه بإنفاقه على المنفَق عليه ، ولا يرجو منه شيئا ولا ينظرُ من أحواله في حالٍ سِوى أن يُراعِيَ استحقاقَه كما قال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا** ﴾[1] .

إن المتصدق الذي يريد بركاتِ الدنيا والدينِ وخيرَ الدنيا والآخرةِ ينبغي له أن يكونَ عطاؤُه لله ، وأكثرُ قصدِه ابتغاءَ ما عند الله ، وأنه إنما يفعلُ ما يفعلُ ليشكرَ المنعِمَ سبحانه وتعالىٰ ، ولأنَّ دينه حَضَّه على الرحمة ، وبعثَه على تطهير المالِ بالزكاة والصدقات .

قال الماوردى : وإذا كان العطاءُ على هذا الوجهِ خاليا من طلب جزاءٍ وشُكْرٍ وعُريا عن امتنان ونشْرٍ كان ذلك أشرفَ للباذل ، وأهنأَ للقابل ، فأما المعطِي إذا الْتمس بعطائه الجزاء، وطلب به الشكرَ والثناء كان صاحبَ سُمعة ورياء، وفي هذين من الذمِّ ما يُنافي السخاء . وقد شُبِّه طالبُ الجزاء من المتصَدَّق عليه بالتاجر الذي يُريد الربحَ فهو غيرُ مستحقٍّ للأجر ولا للحمد . وقد قال ابنُ عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ** ﴾[2] أي لا تُعطي عطيةً تلتمسُ بها أفضلَ منها .

---

(١) الإنسان : ٩ .

(٢) المدثر : ٦ .

قال أهل العلم : فمَن أنفقَ في سبيل اللهِ ولم يُتبِعْه منًّا ولا أذى كقوله : ما أشدَّ إلحاحَك ؟ وخَلَّصنا اللهُ منك . ! وأمثال هذا ، فقد تضمَّن اللهُ له بالأجر ، والأجرُ الجنَّة ، ونفىٰ عنه الخوفَ بعد موتِه مِمَّا يستقبل ، ونفىٰ عنه الحزنَ على ما سلَف من دنياه ، لأنه يَغتبِط بآخرته ، فقال : ﴿ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ وكفىٰ بهذا فضلًا وشرفًا للنفقَة في سبيلِ اللهِ تعالىٰ .

إن مقابلة سؤالِ الـمحتاج بالقول الطيبِ والدعاءِ له، وإدخالِ السرورِ على نفسه بجميلِ الكلام ، والتواضعِ له ، والرفقِ به ، والبشاشةِ في وجهه خيرٌ من إعطائه المالَ مع العبوسِ ، والكلمةِ الجارحة أو المنِّ عليه بالمعروف ، وقد وَجَّهنا اللهُ عز وجل إلى هذا الأدبِ العالي في معاملة أهلِ الضعفِ والمسكنةِ ليكونَ ذٰلك هو مسلكَ أهلِ الإيمانِ من القادرين مع إخوانِهم من أهل الحاجة ، ولنسمع قولَ اللهِ عز وجل : ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** ﴾ .

« قول معروف » أي ردٌّ جميل أولىٰ وأفضل .

« ومغفرة » أي عفوٌ عن السائل وتجاوزٌ عنه إذا ألحَّ وأغلظ وجفىٰ خيرٌ من التصدُّق عليه مع المنِّ والأذى .

وفي الحديث : « الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ وإنَّ من المعروف أن تلقىٰ أخاك بوجْه طَلِق »- أخرجه مسلم - ، فَيتلَقَّىٰ السائلَ بالبشر والترحيب ، ويقابلُه بالطلاقة ولينِ الجانبِ ، ليكونَ مشكورا إنْ أعطىٰ ، ومعذورًا إن مَنع .

* * *

١٣ ـ ج ـ المحبطات .

إنَّ مقابلةَ المحتاجِ بكلام يسرُّه، وابتسامةٍ تُرضيه خيرٌ له من الصدقة مع الإيذاءِ بسوء القول ، أو سوءِ المقابلة ، وقد وَضَع اللهُ عز وجل دستورا لحُسن المعاملةِ بين الناسِ في قوله سبحانه : ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى** ﴾[1] لأنك بالكلمة الطيبةِ والقولِ الحسن والبشاشةِ إنْ خَيَّبْتَ رجاءَهُ في النَّوال المادىِّ فقد أفرحتَ قلبَه بِحُسن خلقِك وبإظهارك المؤاخاةَ وهوَّنْتَ عليه ذُلَّ السؤال .

ولقد قررت هذه الآيةُ الكريمةُ مبدأً عامًّا في شريعتنا الغراءِ ، وهو : « درءُ المفاسدِ مُقدَّم على جلْب المصالِح » فقد دلَّت على أنَّ الخيرَ لا يكون طريقًا إلى الشر ، وعلى أن الأعمال الصالحةَ يجب أن تكونَ خاليةً من الشوائب التي تُفسدها ، وتَذْهبُ بفائدتها كُلِّها أو بعضِها ، كما دلَّت الآيةُ على أنَّ مَنْ عجَز عن نوع من أنواع البرِّ فعليه أن يجتهدَ في إحسان عملٍ آخرَ يُؤدِّي إلى مِثل غايتِه ، فمن شَقَّ عليه أن يتصدَّق من غير مَنٍّ ولا أذىً ، فعليه أن يجبُرَ قلبَ الفقير بقولِ المعروف .

﴿ **وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ** ﴾[1] أي واللهُ غنىٌّ عن صدقة عبادِه ، فلا يأمرهم ببذل المالِ لحاجةٍ إليه ، بل ليُطهرَهم ، ويزكِّيَهُم ويؤلِّفَ بين قلوبهم ، ويُصلِحَ نفوسَهم وأحوالَهم الاجتماعيةَ ليكونوا أعزَّاء بعضُهم لبعضٍ ناصرٌ ومعينٌ ، ومن

---

(١) البقرة : ٢٦٣ .

الخير للأمة أن يظهرَ أفرادُها في مظهرِ المتعاونين كما قال سبحانه : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ** ﴾[1] وذٰلِكَ مِمَّا يُعزِّزُ مَقامَها ، ويحفظُ كرامتَها ، ويجعلُها مهيبةَ الجانبِ ، مرهوبةً في أعيُن أعدائِها .

وهو سبحانه ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ لا يعاجِلُ بالعقوبة مَنْ مَنَّ وآذى بصدقتِه .

وفي هذه الجملة سَلْوةٌ للفقراء ، وتعليقٌ لقلوبهم بحبلِ الرجاءِ بالله الغنيِّ الحليم ، وتهديدٌ للأغنياء وإنذارٌ لهم بألَّا يغترُّوا بحِلْم اللهِ وإمهالِه إيَّاهُم وعدمِ تعجيلِ العقوبةِ على الكفرِ بنعمتِه سبحانه ، إذ مَن وَهَبَ المالَ قادرٌ علىٰ أن يسلُبَهُ من أيدي الأشِحَّاءِ بالخير ، المُنكرين لفضل الله .

أبان الله عز وجلَّ لعباده أنَّ تَرْكَ المَنِّ والأذَىٰ شَرطٌ لحصول الأجر والثوابِ على الإنفاق في سبيله ، ثم خاطَب عباده ، ونهاهم نهيًا لا هوادةَ فيه عن إبطال صدقاتِهم بالمنِّ والأذَىٰ فقال : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ** ﴾[2] فانظُرْ إلى عنايةِ القرآنِ الكريم بالتنفير عن هاتين الرذيلتين ، لأن فيهما هدْمَ الفائدةِ المقصودةِ من الصدقة ، وَإبْطَالًا لها ، وهو تخفيفُ بؤسِ المحتاجين ، وكشفُ أذَىٰ الفقرِ عنهم ، فكيف يُزادون أذىً على ما هُم فيه ، وإنَّ كلَّ عمَلٍ لا يؤدِّي إلى الغاية منه فقد حَبِط وبطَل كأن لم يكن ، فما بالُك إذا أُتْبِعَ بضدِّ الغاية ونقيضِهَا .

فمن أراد أن تكونَ صدقتُه كمِثْل حَبَّةٍ أنبتتْ سبْعَ سنابلَ في كلِّ سُنبلة مائةُ حبَّةٍ وهو يرجو مع ذلك أن يضاعِفَ الله عز وجل له الثوابَ إلى ما فوق السبعمائةِ فعليه : أن يتحرَّىٰ في صدقته طَيِّبَ ماله وحلالَه ، وأن يُخلِصَ النيَّةَ ، وأن يبذُلَ

---

(١) المائدة : ٢ .

(٢) البقرة : ٢٦٤ .

المالَ عن طِيب نفسٍ مع التواضع والرفقِ ونسيانِ المعروف الذي بَذلَه ، فما أحسن عطْفَ الأغنياءِ على الفقراء رغبةً في ثواب اللهِ تعالىٰ ، وما أحسَنَ أن يشعرَ الفقراءُ بمحبَّة الأغنياءِ ورحمتِهم ومواساتِهم ومؤاخاتِهم وعدمِ التِّيهِ عليهم !

ومن الآداب التي ينبغي للمؤمن أن يأخذَ بها نفسَه مع أخيه الْـمحتاجِ ما جاء من حديث عمرَ – رضي الله عنه – أن النبى ﷺ قال : « إذا سأل السائلُ فلا تَقْطعُوا عليه مسألتَه حتَّى يفرُ غَ منها ، ثمُ ردُّوا عليه بوقارٍ ولينٍ أو ببذلٍ يسيرٍ أو ردٍّ جميل ، فقد يأتيكم من ليس بإنس ولا جانٌّ ينظرون صنيعَكم فيما خَوَّلكم اللهُ تعالىٰ » .

أي قد تأتى الملائكةُ في صور البشرِ لاختبار العبادِ كما في قصة الأبرصِ والأقرعِ والأعمىٰ التي خَرَّجها مسلمٌ وغيرُه وذٰلِكَ أن مَلَكًا تصوَّر في صورة أبرصَ مرةً ، وأقرعَ أخرىٰ ، وأعمىٰ أخرى امتحانا للمسؤول من أصحاب الأموالِ والثراء .

إنَّ ثواب الصدقةِ لا يفِي بخطيئة المَنِّ والأذىٰ ، وكذٰلك الرياءُ فمن تَصدَّق وقصدُه أن يمدحَه الناسُ ويُثنوا عليه بالصفات الْـجميلة ، ليُشْكَر بينهم أو لأيِّ مقصدٍ دنيويٍّ مع قطْعِ نظرِه عن معاملة اللهِ عزَّ وجل وطَلَبِ مرضاتِه وجزيلِ ثوابِه بطلَت صدقتُه ، وقد لفت اللهُ عباده إلى أنَّ كلًّا من المرائي وذي المنِّ والأذىٰ أتَىٰ بعمل غيرِ مقبول ، ولا صحيحٍ بل هو باطلٌ ومردودٌ عليه .

ولنتدبر : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ..** ﴾ .

وفي هذا التشبيهِ مَثَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ الذي يَمُنُّ وَيُؤذى بصدقته بالذي يُنفِقُ مالَه رِئَاءَ الناسِ لا لوجْه اللهِ تعالى ، وبالكافر الذى يُنفق ليُقالَ : جوادٌ ، وَلِيُثْنَىٰ

عليه بأنواع الثَّناء ، ففي كِلا الحالَيْن تضيعُ ثمرةُ العمل ، ويُحْبَطُ الأجْرُ ، ويَثبتُ الوِزْر .

ثم مَثَّل اللهُ عز وجل هذا المنفِقَ - أيضا - بصفوانٍ عليه ترابٌ فيظنُّه الظانُّ أرضًا مُنبتةً طيِّبة ، فإذا أصابه وَابِلٌ من المطَر أَذهب عنه الترابَ ، وبقِي صَلْدًا ، فكذٰلك هذا المُرائي بصدَقته .

ولنتدبَّر : ﴿ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ..** ﴾[1] .

والصفوانُ : جَمْعٌ مفردُه صفوانَةٌ ، ومنهم من يقول : الصفوانُ يُستعمل مُفردا أيضا ، وهو الصخْرُ الأملسُ .. و « والوابلُ » المطرُ الشديدُ ، والصلْدُ : الأملسُ من الحجارة الذي لا شيءَ عليه من التراب .

فتأمَّل هذا التصويرَ الرائعَ الذي يُجلِي المعنىٰ ، ويوضِّحُه ، ويؤكِّدُه ، ويجعلُ النفسَ تتأثَّرُ به .. انظرْ إلى صفة عمَلِ المرائي الذي يُنافق بعمله شُبِّهَت بصفة ترابٍ على حجَر أملسَ نزل عليه ماءُ مطرٍ شديدٍ فأزال الترابَ وترَك الحجرَ صلْدا نقيًّا لا ترابَ عليه .

والوجْهُ المشترَكُ بينهما أن الناسَ يَرَوْن أن لهٰؤلاء المرائين أعمالا كما يُرىٰ الترابُ على الصفْوان، فإذا جاء يومُ القيامة، وصاروا إلى الله، وكُشفت السرائر، اضمحلَّ ذٰلك كلُّه وذهب، لأنَّه لم يكن لله، كما يُذْهِبُ المطرُ الشديدُ ما كان على الحجَر من التراب، أي أن المخذولَ لا يَجِدُ لنفسه شيئا من ثوابِ العمل، بل يقال له: أخذت حظَّك من الثوابِ مِمَّن عَمِلت من أجلهم في دُنياك.

---

(١) البقرة : ٢٦٤ .

فالمَنُّ والأذىٰ والرياءُ تكشِفُ عن النية في الآخرة فَتَبْطُلُ الصدقةُ ، كما يكشِفُ الوابلُ عن الصفوان وهو الحجَرُ الكبيرُ الأملس .

﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ أي أن المرائِيَ ، والكافرَ والمانَّ لا يقدرون على الانتفاع بثوابِ شيءٍ من إنفاقهم وهو كسبُهم عند حاجتهم إليه ، إذْ كان لغير اللهِ ، فَعُبِّرَ عن النَّفقَة بالكسْب ، لأنهم قصَدُوا بها الكسب .

إنَّ الأجرَ والثوابَ عند اللهِ عزَّ وجل للمخلِصين من أهل التقوىٰ والمحبةِ الذين يتحرَّوْنَ تزكيةَ نفوسِهم ، وإصلاحَ أحوالِهم .

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1] أي لا يَهْديهم إلى ما فيه خيرُهم ورشادُهم ، وقد اختاروا الضلالةَ على الهُدىٰ ، أمّا الإيمانُ فإنه يَهدي قلبَ صاحبِه إلى الإخلاص ، وَوَضْعِ النفقاتِ في مواضعِها الصحيحةِ ، وإلىٰ الاحتراس من أسباب المهالكِ .

وفي هذا تَعْريضٌ بأن كلًّا من الرِّياء والمَنِّ والأذىٰ من صِفَاتِ الكافرين التي يَنبغِي لأهل الإيمانِ أن يَجتنبوها .

ومن الحكمة : مَن مَنَّ بمعروفه سقَط شكرُه ، ومن أُعجِبَ بعمله حَبِطَ أجرُه . وفي أن المرائِيَ لا يَخفَىٰ على الناس فعلُه قالوا :

ثوبُ الريـاءِ يَشِفُّ عَمَّـا تحتـه ... فَإذا اكتسيْتَ بِه فإنَّكَ عَار .

نعوذ بالله من الرياء ...

* * *

(١) البقرة : ٢٦٤ .

١٤ - د - جنَّـة بِرَبْـوَة .

المَثَلُ في القرآن الكريم فيه إعجازٌ وروعةٌ ودقةٌ وجمالٌ وفيه بيانٌ وإيضاح ، وتنعكسُ منه على نفس المتدبِّرِ أنوارٌ تُريك المعنىٰ الذي يُدْرَكُ بالعقل كأنه ماثِلٌ للعِيان ، وحاضرٌ شاخص أمام عينِ الإنسان ، فيزدادُ الشعورُ به ، ويَقوىٰ تأثيرُه في القلب ، ويُنِيرُ للعقل سبيلَه ، فإن كان المثَلُ للتحذير من شرٍّ اجتنبه ، وإن كان في المَثَل ترغيبٌ في خيرٍ تعلَّقت به النفس ، وسعَت إليه ، وجدَّت فيه ، وازدادت منه ، وحَرَصتْ عليه ترجو النجاة ، ورحمةَ اللهِ في الدار الأبديةِ ، وطمأنينةَ النفسِ وسكينَتها في الدار الفانية .

إنَّ المثَلَ في القرآن العظيم يؤثِّرُ في النفس ، وينيرُ الطريقَ أمام العقل ، وقد ضرب القرآنُ مثلًا لصاحب الصدقةِ الذي يَمُنُّ بها ، ويؤذي المتصدَّقَ عليه بسببها ، أو يرائي بصدقته يطلبُ ثوابَ العمَل ثناءً على ألسنةِ الناس ضَرب اللهُ عزَّ وجل مثَلا له ولبطلانِ عملِه بصفْوانٍ وهو الحجَرُ الأملسُ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ وهو المطرُ الشديدُ فتركه صَلْدا لا شيءَ عليه .

يقول ابنُ القيم : وتأمَّل أجزاءَ هـٰذا المثَلِ البليغِ وانطباقَها على أجزاء المُمثَّل به تَعرِف عظمةَ القرآنِ وجلالتَه ، فإنَّ الحجَر في مقابلة قلبِ هذا المرائي والمانِّ والمؤذِي ، فقلبُه في قسوته عن الإيمان والإخلاصِ والإحسان بمنزلة الحجَر ، والعملُ الذي عَمِله لغير اللهِ بمنزلة الترابِ الذي على ذٰلك الحجرِ فَقُوَّةُ ما تحتَه وصلابتُه تمنعُه من الثبات والنبات عند نزولِ الوابل ، فليس له مادةٌ متصلةٌ

بالذي يَقْبَلُ الماء ، ويُنبِتُ الكلأ ، وكذٰلك قلبُ المرائي ليس له ثباتٌ عند وابِلِ الأمرِ والنَّهْي والقضاءِ والقدر ، فإذا نزل عليه وابلُ الوحْي انكشف عنه ذلك الترابُ اليسيرُ الذي كان عليه فبَرزَ ما تحته صَلْدا ، لا نباتَ فيه ، وهذا مثَلٌ ضربَه اللهُ لعمَل المرائي ونفقتِه لا ينتفِعُ بثواب شيءٍ من إنفاقه وهو في أشدِّ الحاجة إليه في يومٍ لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنون إلَّا من أتىٰ اللهَ بقلب سليم ، لأن العمل في الدنيا لم يكن خالصا لوجْه الله تعالىٰ .

وفي المقابل فإنَّ المؤمنَ الصالحَ الذي يرجو وجْهَ اللهِ وحده بعمله ، ويُخلِصُ النيـةَ والـقصد ، فإنَّ نفسَه تزكـو بالخيرات والبركات ، وإنَّ ثوابَ عملِـه يضاعَفُ ، ويُبارِكُ اللهُ له . وقد ذكَر اللهُ سبحانه وتعالىٰ مَثَلَ الذين يُنفقون أموالهم طلبًا لرضا ربِّهم ، وتزكيةً لأنفسهم عن إخلاص وصدْقٍ بعد أن ذكر سبحانه مثَلَ الذين يُنفقون أموالهم ثم يُتْبعون ذٰلك بالمنِّ والأذى ومَثَلَ الذين يُنفقون أموالَهم رئاءَ الناس ؛ إذ بضدِّها تتميزُ الأشياءُ وَتُتَبيَّنُ ، وتصيرُ أكثرَ وضوحا .

قال اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾[1] .

﴿ **ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ** ﴾ أي طلبا لرِضوانه وهـو مفعـولٌ من أجلـه ، ﴿ **وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ عطفٌ عليه ، أي كلاهما مفعولٌ من أجله ، وقال ابن عطيةَ : لا يصحُّ في « تثبيتا » أنه مفعولٌ من أجله ، لأن الإنفاقَ ليس من أجل التثبيت ، و « ابتغاءَ » نُصِبَ على المصدر في موضع الحال ، وكان يَتوجَّهُ

---

(١) البقرة : ٢٦٥ .

فيه النصبُ على المفعول من أجله ، لكنَّ النصبَ على المصدر هو الصوابُ من جهة عطفِ المصدرِ الذي هو « تثبيتًا » عليه .

والتثبيتُ : هو تحقيقُ الشيءِ وترسيخُه ، ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي وهم متحقِّقُون مُتثبِّتون أنَّ الله سيَجزيهم على ذٰلك أوفرَ الجزاء ، وقال الشعبيُّ : « تصديقا ويقينا » وعند السدِّى وغيرِه : ﴿ تثبيتا ﴾ معناه وتيقُّنا أي أن نفوسهم لها بصائرُ ، فهي تُثبِّتهم على الإنفاق في طاعة اللهِ تثبيتا .

يقال : ثَبَّتُّ فلانا في هٰذا الأمرِ . أي صَحَّحتُ عزمَه ، وقويَّتُ فيه رأيَهُ أُثبِّتُه تَثْبيتا ، أي أنفسُهم موقنةٌ بوعْد اللهِ على تَثْبِيتهم في ذٰلك .

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ الجنَّة : هي البستانُ وهي قطعةُ أرضٍ تَنبُتُ فيها الأشجارُ حتى تُغطِّيَها ، والرَّبوةُ : ثلاثُ لغات في الرَّاء هي المكانُ المرتفعُ ارتفاعا يسيرا ، معهُ في الغالب كثافةُ تُراب ، وما كان كذٰلك فنباتُه أحسن .

وقال الخليل : الربوةُ أرضٌ مرتفعةٌ طيبة ، وخَصَّ اللهُ تعالىٰ بالذكر التي لا يجري فيها ماءٌ من حيث العُرفِ في بلاد العرب ، فَمثَّلَ لهم ما يُحِسُّونه ويُدركونه ، وقال ابنُ عباس : الربوةُ : المكانُ المرتفعُ الذي لا تَجري فيه الأنهارُ ، لأنَّ قوله تعالىٰ : ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ يدلُّ على أنها ليس فيها ماءٌ جارٍ ، والمعروف من كلام العرب أن الربوةَ ما ارتفعَ عَمَّا جَاوره سواءٌ جرى فيها ماءٌ أو لم يجرِ .

﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ أي مطرٌ شديدٌ ﴿ فَـَٔاتَتْ ﴾ أي أعطتْ ﴿ أُكُلَهَا ﴾ أي الثمرَ الذي يُؤكَلُ ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ أي أعطت ضِعْفَي ثَمرِ غيرِها من الأرضين ، وقيل : حَملتْ مرتين في السنة ، والأوَّلُ أكثرُ أي أخرجت من الزرع ما يُخرِجُ غيرُها في سنتين .

وهذه ربوةٌ مباركةٌ ، عظيمةُ الخيراتِ وقد أكدت الآيةُ الكريمةُ مَدْحَ هذه الربوةِ بأنها إن لم يُصبها مطرٌ شديد وهو الوابلُ فإنَّ المطرَ الليِّنَ أو الخفيفَ الرذَاذَ يَكفيها وينوبُ منابَ الوابلِ في إخراج الثمرةِ ضِعفين وذٰلك لكرَم هذه الأرضِ وَطِيبها ، فهي لا تُمْحِلُ أبدا ، فإن لم يشتدّ المطرُ كفاها الطلُّ وهو الرذاذ . قال المبرِّد : تقديرُه : فطلٌّ يكفيها ، وفي الصحاح : الطلُّ أضعفُ المطرِ والجمْعُ الطِّلال . وكذٰلك عمَلُ المؤمن لا يبور أبدا – بفضل الله وإحسانه – بل يتقبلُه اللهُ ويُكثِّره ويُنمِّيه ، كلٌّ عاملٍ بحسبه .

وبهذه الصورةِ الرائعةِ الجميلةِ التي تُوحِي بالخيرات والبركاتِ شبَّه اللهُ سبحانه نُموَّ نفقاتِ المؤمنين المخلصين الذين يرجون رحمةَ الله والذين يُربِّي اللهُ صدقاتِهم كتربية الفُلُوّ – المهر الصغير – والفصيلِ بنمو نباتِ الجنةِ بالربوة الموصوفةِ بهذه الأوصافِ الجميلةِ بخلاف الصفوانِ وهو الحجرُ الأملسُ الذي انكشف عنه ترابُه فبقِي صلدا ، وبه ضُرِبَ المَثَلُ لمن لا نَصيبَ لهم من ثواب الآخرةِ على صدقاتهم بسبب الرياءِ والمنِّ والأذى . وفي الحديث الذي خرجه مسلمٌ وغيرُه عن أبي هريرة أن النبى ﷺ قال : « لا يتصدقُ أحدٌ بِتَمْرة من كسْبٍ طيِّب إلا أخذها اللهُ بيمينه فيُربِّيها كما يُربِّي أحدُكم فُلُوَّه أو فَصِيلَه حتى تكونَ مِثْلَ الجَبل أو أعظمَ » .

والفلوُّ : ولدُ المُهْر ، والفصيل : ولدُ النَّاقة .

وفي الحديث تصويرٌ لصفة الصدقةِ المقبولةِ ومضاعفةِ الثواب لها بفضل الله بصورة محسوسةٍ وهي تربيةُ المُهرِ الصغيرِ أو الفصيلِ فينمو ويكبُر .. واللهُ عز وجل يُضاعف لمن يشاء وهذا معنىٰ « حتى تكونَ مثْلَ الجَبَل أو أعظم » وفي

التـمثيل زيادةُ بيانٍ وتوضيحٍ للمعنىٰ وتقريبُه من الأفهام ليتنافسَ الـمتنافسون في مجال الخيرات والمَبَرَّاتِ دون أن يخشىٰ الـمؤمنُ من ذي العرشِ إقلالا .

يقول مفسِّرٌ تعليقا على المثَل القرآنيِّ في الآية الكريمة : أي مَثَلُ المنفقين أموالَهم ابتغاءَ رضوانِه تعالىٰ ، وتمكينا لأنفسهم في مراتب الإيمانِ والإحسانِ باطمئنانها حين البذلِ حتى يكونَ ذٰلك سجيَّةً لها ، كمثَل جنَّةٍ جيدةِ التربةِ ملتفةِ الشجر ، عظيمةِ الخِصبِ ، تُنبت كثيرا من الغلات ، نزل عليها مطرٌ كثيرٌ فكان ثمرُها مِثْلَيْ ما كانت تُغِلُّ ، وإنْ لم يُصبها الوابلُ فطَلٌّ ومطرٌ خفيفٌ يكفيها لجودة تربتِها ، وكرمِ مَنْبتِها ، وحسنِ موقعِها ، وهـٰكذا كثيرُ البرِّ كثيرُ الجـود ، إن أصابَهُ خيرٌ كثيرٌ أغدقَ ووسَّعَ في الإنفاق ، وإن أصابه خيرٌ قليلٌ أَنْفَقَ بقَدْرِه ، فخيرُه دائم ، وبرُّه لا ينقطع .

وإنما قال ﴿ **من أنفسهم** ﴾ أي بعضِ أنفسِهم ولم يقل وتثبيتا لأنفسهم ، لأن إنفاق المالِ وَجْهٌ من وجوهِ التثبيت والطمأنينة ، وبذْلُ الروح وَجْهٌ آخرُ ، وكَمَالُهُ ببذل الروح والمالِ معًا ، كما قال سبحانه وتعالىٰ في سورة الحجرات : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ** ﴾[1] .

وقد هدانا اللهُ بهـٰذا أن نقصِدَ بأعمالنا طلبَ رِضَاه وتطهيرَ نفوسِنا مِن رذائل الشحِّ ونحوِه : ﴿ **وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ فهو سبحانه يُجازي كُلًّا من المخلص والمرائي بما هو أعلمُ به .

* * *

---

(١) الآية : ١٥ .

١٥ - هـ - السّلامة في الإخلاص وحُسْن الخاتمة .

إنَّ الناسَ منهم المؤمنُ والكافرُ ، والمؤمنون يتفاوتون بحسب الإخلاص ، والجِدِّ في الطاعة ، والمداومةِ على العمل الصالح ، وَصِدْقِ النيَّةِ وسلامتِها من الرياء ، وخيرُ الناسِ من طال عمرُه وصَلَح عملُه ، وشَرُّ الناسِ من فُتِنَ في آخر عُمْرِه ، وخُتِم له – والعياذُ بالله – بأعمال أهلِ الشقاء .

والإنسانُ العاقلُ الذي يحبُّ نفسَه فإنَّه يرجو لها الخير ، ويسعَىٰ في سلامتها ، ويختارُ الطريقَ الصحيحَ ويلزَمُه حتى ينتهِيَ الأجل ، وينقضِيَ العمرُ ، وهو على الدين الحقِّ ثابتٌ ، وبكلمة التوحيد معتصِمٌ ، وبسنَّة النبيِّ ﷺ متمسِّك ، ولطريقِهِ ملازمٌ ، وبطاعة ربِّه قائم .

وإن الكفْر والشركَ والجحودَ أعظمُ أبوابِ الشرِّ والفسادِ ولا يُقبل لكافر ولا لمشرك ولا لملحد عمَلٌ من أعمال الخير والبرِّ إذ الكفرُ يَمْحَقُه ويُبطِلُه ، وكذٰلك الحالُ إذا صدَر العملُ الصالحُ عن رياءٍ ورغبةٍ فيما عند الناسِ من حُسن الذِّكرِ والمنزلةِ والسمعةِ إذ لا يَقبل اللهُ من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم سبحانه وتعالى جل شأنُه وتباركت أسماؤُه .

وقد حَثَّ اللهُ عز وجل عباده على الجدِّ في الطاعة ، والإخلاصِ في العمل ، والمداومةِ على منهج الحقِّ وطريقِ الخيرِ والإيمانِ حتى ينقضِيَ الأجل ، وضرَب الله عز وجل المثَلَ لذوي التدبُّر والتفكُّرِ ليتعظوا ويَعتبروا ، ويتخذوا من المثَل نورًا لقلوبهم ، وضياءً لنفوسهم حتى يعبروا الدنيا وهم في أمْن وسلام .

ولنتدبر قوله تعالىٰ من سورة البقرة :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

فهيَّا نتفكَّر في هذا المثَل القرآنيِّ بما فيه من إيجاز وإعجازٍ وقوةٍ وتصويرٍ واضح الخطوطِ ، مؤدٍّ للغاية ، مُبيِّنٍ للمقصود من أقرب طريق .

ومن أقوال العلماءِ في هذا المثَلِ ما جاء عن السُّدِّى أنَّ هذه الآيةَ مَثَلٌ آخرُ لنفقةِ الرِّياء .

وقد جاء عن ابن عباسٍ قولُه : هذا مثَلٌ ضرَبه الله للمُرائين بالأعمال يُبطلها يومَ القيامة أحْوجَ ما كان إليها ، كمثَل رجلٍ كانت له جنَّةٌ ، وله أطفالٌ لا ينفعونه ، فكبِر ، وأصاب الجنةَ إعصار ، أي ريحٌ عاصف فيه نارٌ فاحترقت ، ففقَدها أحوجَ ما كان إليها .

ومنهم مَن رَبَطَ بين النهي عن إبطال الصدقةِ بالمنِّ والأذىٰ وبين المثل الذي جاء في هذه الآية الكريمةِ ، فقد حُكي عن ابن زيدٍ أنه قرأ قولَه تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ... ﴾ الآية ، وقال : ثم ضَرَبَ في ذٰلك مثلًا فقال : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. ﴾ الآية والهمزةُ في « أيودُّ أحدُكم » للإنكار ، والإعصارُ : الريحُ التي تستديرُ في الأرض ثم تَسْطَعُ نحوَ السماءِ كالعمود .

---

(١) البقرة : ٢٦٦ .

فإن قلت : كيف قال : ﴿ **جَنَّةٌ من نَّخيلٍ وأعنابٍ** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **لهُ فيها مِن كلِّ ٱلثمَراتِ** ﴾ ؟ فالجوابُ : أنه لمَّا كان النخيل والأعنابُ أكرمَ الشجر ، وأكثرَها منافعَ خَصَّهما بالذِّكر ، وجَعل الجنةَ منهما ، وإن كانت محتويةً على سائر الأشجارِ تغليبا لهما على غيرهما ، ثم أردفَهما ذِكْرَ الثمرات ، ومن الثمرات ثمرُ النخيلِ والأعنابِ ، وهٰذا من باب ذِكْرِ ما يقعُ الاهتمامُ به مَرَّتين ، عموما وخصوصا ، ومثْله قولُه تعالىٰ : ﴿ **فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ ونخْلٌ وَرُمَّانٌ** ﴾[1] إلا أنه في آية البقرةِ بدأ بالتخصيص وفي آية الرحمٰنِ بدأ بالتعميم .

ويجوز أن يُراد بالثمرات مطلقُ المنافع التي كانت تحصل له في الجنة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ** ﴾[2] بعد قوله : ﴿ **جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ** ﴾[3] .

قال صاحبُ الكشَّاف : وفي الآية الكريمةِ مَثَلٌ لمَن يعملُ الأعمالَ الحسنةَ لا يبتغي وجْهَ الله ، فإذا كان يومُ القيامةِ وجَدها مُحبَطَةً فيتحسَّرُ عند ذٰلك حسرةَ مَنْ كانتْ له جَنَّةٌ مِن أبْهَىٰ الجنَّاتِ وأجمعِها للثمار ، فبلغ الكِبَرَ وله أولادٌ ضِعاف ، والجنةُ معاشُهم ومُنْتَعَشُهم فهلكتْ بالصاعقة .

وقد نظَر هذا المفسرُ وغيرُه إلى الرياء وأنه مُحبِطٌ للأعمال ، مضيِّعٌ للثواب ، ومبطِلٌ للعبادات ، فيتحسَّرُ المرائي في يومٍ لا ينفع فيه الندمُ ولا الحسرة ، كحسرة هذا الذي كان له بستانٌ جميل رائعٌ مبهِجٌ له فيه من كل الخيراتِ والبركاتِ ما ينفع ويسرُّ ، ثم أحرقه الإعصارُ ودمَّره تدميرا ، وهو في حالة عجْزٍ عن العمل وضعْفٍ عن السعْي وله أولادٌ صِغارٌ لا ينفعونه بشيءٍ إذ هم في حاجة مِثْله ، وبهٰذا يتَّضِحُ

---

(١) الرحمٰن : ٦٨ .
(٢) الكهف : ٣٤ .
(٣) الكهف : ٣٢ .

المعنىٰ المقصود ، وتنفذُ العِظةُ إلى القلوب ، وتثِيرُ كارثةُ مِثْلِ هـٰذه الأسرةِ الانتباهَ لأن أحدا لا يودُّ لنفسه هـٰذا ، فكذٰلك العاقلُ يحرِصُ على صحةِ الإيمان ، وسلامةِ اليقين ، وإخلاصِ القصد والاتجاهِ والنيةِ ، وحُسْنِ العمل .

وفي توضيحٍ لابن عباس رضي الله عنهما – : أن هذا المثَلَ ضربه اللهُ تعالىٰ للكافرين والمنافقين ، كهيئة رجلٍ غَرس بستانا فأكثرَ فيه من الثمَر ، فأصابه الكِبَر ، وله ذريةٌ ضعفاءُ – أي صِبيان بناتٌ وبنون – فكانت معيشتُه ومعيشةُ ذرِّيته من ذٰلك البستان ، فأرسل اللهُ على بستانه رِيحًا فيها نارٌ فأحرقته ، ولم يكن عنده قوةٌ فيغرسُه ثانية ، ولم يكن عند بَنيه خيرٌ فيعودون على أبيهم ، وكذٰلك الكافرُ والمنافقُ إذا وردَ إلى الله تعالىٰ يوم القيامة ليست له كَرَّةٌ يُبْعَث فيَرُدُّ ثانية ، كما ليست عند هـٰذا – أي صاحبِ المثَل – قوةٌ فيغرِسُ بستانَه ثانية ، ولم يكن عند مَن افتقَرَ إليه عندَ كِبَرِ سِنِّه وضَعْفِ ذرِّيته غِنًى عنه .

فكما يُوحِي المثَلُ بالتحذير من الرياء ، والتحذيرِ من المَنِّ والأذىٰ لتخويف أهلِ الإيمانِ من هذه الخصالِ ، فكذٰلك يدلُّ المثَلُ على التحذير من الكُفر والنفاقِ ،والتخويفِ من عواقبهما إذْ هناك شدائدُ الموت ، وعذابُ القبْرِ وضَمَّتُه ومخاوفُه ، وأهوالُ البعثِ و خِزْيُ الموقِفِ وندامتُه ، ويَرى كلٌّ من الكافر والمنافقِ دركتَه في نار جهنَّم ويتمنَّى الرجْعَةَ ، ولا رجعةَ ، ولكنها الحياةُ الأبديَّةُ في كرْب وغمٍّ وهَمٍّ وعذابٍ شديدٍ متواصِلٍ لكل مُلحدٍ ومُشركٍ وكافرٍ ومنافق . إنها النارُ أبدًا ولا يجدون شيئا من النعيم أو الرحمةِ أو الراحةِ كهـٰذا الذي عَصفت الريحُ الشديدُ ببستانه فأتت عليه وأهلكتْه وليس له من أولاده مَن يقدر على إعانته ، وقد وَهَن عظمُه ، واشتدَّ بُؤسُه وتضاعفت آلامُه ، وليست له قدرةٌ على العمل ، وقد فات الأوان .

وينقل ابنُ كثير وغيرُه من المفسِّرين ما قاله البخاريُّ عند تفسير هذا المثَل : إنَّ ابنَ جُريج قال : سمعتُ عبدَ الله بنَ أبي مُليكةَ يحدِّثُ عن ابن عباس ، وسمعتُ أخاه أبا بكرِ بنِ أبي مُليكة يحدِّث عن عُبيدِ بنِ عمير قال : قال عمرُ بنُ الخطاب يوما لأصحاب النبيِّ ﷺ : فِيمَن تَرَوْنَ هذه الآية نزلَتْ : ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ** ﴾[1] ، قالوا : اللهُ أعلمُ ، فغضِبَ عمرُ فقال : قولوا : نعلمُ أو لا نعلمُ ، فقال ابن عباس : في نفسي منها شيءٌ يا أميرَ المؤمنين ، فقال عمر : يا ابنَ أخي ، قُل ولا تَحقِر نفسَك ، قال ابنُ عباس : ضُرِبت مثَلا لعملٍ ، فقال عمرُ : أيُّ عمَل ؟ قال ابنُ عباس : لعمَلٍ ، قال عمرُ : لرجل غنيٍّ يعملُ بطاعة الله ، ثم بَعث اللهُ له الشيطانَ فَعَمِل بالمعاصِي حَتَّى أحرقَ أعمالَه .

وفي لفظٍ على لسان ابن عباس : لعمَل رجلٍ غنيٍّ يعمل بطاعة اللهِ ثم بَعث اللهُ عز وجل له الشيطانَ فعَمِل في المعاصي حتى أحرق عملَه . أي زادت سيئاتُه على حسناته والعياذُ بالله أو خُتِم له بالشكِّ ونحوه أعاذنا اللهُ عز وجل . ويوضحه ما جاء في روايةٍ أخرى : فإذا فَنِي عمرُه واقترب أجلُه خَتَم ذٰلك بعمَلٍ من أعمال الشقاء .

وفي لفظٍ منسوب إلى عمر : هذا مَثَلٌ ضُرِبَ للإنسان يعملُ عملًا صالحًا حتى إذا كان عندَ آخرِ عُمرِه أحوجَ ما يكون إليه عَمِل عملَ السَّوء . قال ابنُ عطيةَ : فهٰذا نظرٌ يَحْمِلُ الآيةَ على كلِّ ما يَدْخُل تحت ألفاظِها . نسأل اللهَ العفوَ والعافيةَ وحسنَ الخاتمة والموتَ على التوحيد والإخلاص .

---

(١) البقرة : ٢٦٦ .

١٦ - و - إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا

رَوىٰ الحاكمُ في مُسْتَدْرَكه : أن رسولَ اللهِ ﷺ كان يقول في دعائه « اللهُمَّ اجعَلْ أوسعَ رزقِك عَلَيَّ عند كِبَرِ سِنِّي وانقضاءِ عُمري » .

وقد بَيَّن لنا الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ أن من سعادة المرءِ أن يُطِيلَ اللهُ عمرَه ويرزقَهُ الإنابة .

إنَّ من بُشْرَيَات الخير ، وأماراتِ الفلاح أن يُسْتَرَ العبدُ عند آخر عمرِه ، وأن يثبُتَ على طريق الاستقامة ، وأن يُرزقَ التوبةَ النصوح ، فإذا رُزِق العبدُ في آخر عمرِه رِقَّةَ القلب ، ويقظةَ الضمير ، والخوفَ من الرَّبِّ ، والرجاءَ في رحمته وعَفْوِه وإحسانِه ، والاجتهادَ في الطاعة ، والبكاءَ على المعاصي ، والأسفَ على التفريط ، واشتدت رغبتُه فيما عندَ اللهِ من الثواب والرحمةِ كان ذٰلك أمارةً على حُسن الخاتمة ، وإذا حَسُنت الخاتمةُ ، ومات العبدُ مستورا خَيِّرا موحِّدا صالحًا مخلصًا فتلك هي السعادةُ بإذن اللهِ تعالىٰ .

ومن أمارات الشقاوةِ أن يُحْسِنَ المرءُ العملَ في أول عمرِه ثم ينعكسَ سيرُه ، فيشِحَّ بعد أن كان سخيًّا ، وينقطعَ عن الطاعة بعد الجدِّ فيها ، أو يطلبَ المنزلةَ في الناس بعد الإخلاص وصدْقِ النية ، ونحوَ ذٰلك مِمَّا لا يُرضي الربَّ سبحانه وتعالىٰ ، إن المرء الذي يفعلُ ذٰلك ، وهو يستقبل الحياةَ الثانية ، ويُدْبِرُ عن الفانية إنما يَجْنِي على نفسه إذ يَلْقَىٰ ربَّه وهو مُثْقَلٌ بالسيئات ، مُفَرِّطٌ في الطاعات ، مضيِّعٌ ما أسلفه فيما تقدَّم من عمره من الصالحات ، وهو في موقف الكُربات

أحوجُ ما يكون إلى شيءٍ من الحسنات ، وقد ضاق به الحالُ ، وانقطعت الآمالُ ، إذ لا ينفع الندمُ ، وقد انقضى زمنُ العمل ، وجاء وقتُ الحسابِ فالجزاء .

إنَّ الإنسانَ العاقلَ لا يَودُّ أن يكون له موردُ رزقٍ كريمٍ كبستانٍ فيه من صنوف الثمرِ ما ينفعُ ويُبهِجُ ويَسُرُّ ، يَسْعَدُ به وهو في شبابه وقوتِه وقدرتِه على السعي والكدْحِ ثم تُصيبُه الآفةُ ويأخذُه إعصارٌ فيه نارٌ فيحترقُ البستانُ بما فيه ، وقد بلغ صاحبُه سِنَّ الشيخوخة ووهَنَ العظمُ منه واشتعل رأسُه شَيبا ، ولم تَعُدْ له طاقةٌ على العمل ، ولا قدرةٌ على السعي ، وليس له من الأهل ما يقْوىٰ على ذٰلك أيضا بل إنه يعول مَن هم في حاجةٍ مثلُه إلى مَن يعملُ ويكدحُ ، إن المرء لا يودُّ لنفسه مثلَ هٰذا المآلِ عند الشيخوخةِ فيقعَ في الضيق والحرجِ الشديدِ والحيرة . كذٰلك الحالُ بالنسبة لأهل العقلِ والحكمةِ ينبغي لهم أن يتبصَّروا في أمر دنياهم فلا تشغَلُهم الفانيةُ عن الباقية ، وأن يُجدِّدَ العاقلُ التوبةَ ، ويعيشَ على الخوف والرجاءِ ، وأن يداوِمَ على الطاعة ، وأن يلزمَ طريقَ الاستقامةِ مع الإخلاصِ وصدقِ النيَّة . لهٰذا دعانا اللهُ عز وجلَّ إلى التفكُّر في آياته ، وتأمُّلِ الأمثالِ التي يضربُها للناس لتنفَعَهُم ، وتبصِّرَهم ، وتهدِيَهُم فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] . قال ابنُ عباس : تتفكَّرون في زوال الدنيا وفنائِها وإقبالِ الآخرة وبقائها ، ويقول ابن كثير : أي تعتبرون ، وتفهمون الأمثالَ والمعاني ، وتُنزلونها على المراد منها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[2] .

---

(١) البقرة : ٢٦٦ .

(٢) العنكبوت : ٤٣ .

وقال غيرُه : أي لتتفكَّروا في الأمثال ، وتَعْتَبِروا بما اشتملتْ عليه من العِبَر فقد بَيَّن اللهُ لكم بضرْب الأمثالِ التي بلغت الغايةَ في الوضوح دلائلَ شريعتِه وأسرارَها ، وحِكَمَها ، وفوائدَها ، وغاياتِها لتتفكَّروا وتكونَ لكم من ذٰلك العظةُ فتضعُوا الأمورَ في مواضعها الصحيحةِ كالنفقات وغيرِها ، وتَقصدوا دوما بالطاعات وجْهَ اللهِ تعالىٰ بلا مَنٍّ ولا أذىً لأحد ولا رياء .

إن النفقةَ في سبيل اللهِ من أعظم وجوهِ الخير ، وأعمِّها نفعا ، وأدَلِّها على صدْق اليقين ، وسلامةِ الإيمانِ إذا صدَرت عن سخاءِ نفس ، وطيبِ خاطر وإخلاصٍ ورغبةٍ فيما عند اللهِ وحده من الرحمة والثواب ، لهٰذا عُني القرآنُ الكريمُ بأمر المالِ بصفة عامة ، وبالإنفاق منه بصفة خاصة ، فوضَّح الأحكام وبَيَّن الحلالَ والحرام ، وضَرَب الأمثالَ لزيادة الإيضاح ، وإنارةِ السبيل ، وللتأثير في النفوس والقلوبِ ، وتبصيرِ ذوي الألبابِ بما ينبغي ومالا ينبغي حتى توضعَ الأمورُ في مواضعها الصحيحة ، وعلى النحو الذي يكون سببًا في مرضاة الربِّ ويُؤدي بالمؤمن إلى جنة الرضوان .

وفي الأمثال التي سبق تدبُّرها من سورة البقرةِ بيَّن اللهُ سبحانه وتعالىٰ ما يجب أن يتصفَ به المنفِقُ عند البذلِ في سبيل اللهِ للنفع العامِّ كالجهاد وإقامةِ المِصحَّاتِ ودورِ اليتامى والأرامِلِ ومعاهدِ العلم لمُدارسَة القرآنِ الكريم وعلومِه والسنة النبويةِ المطهَّرةِ وما يتصلُ بها ، وبناءِ المساجد ونحوِ ذٰلك أو للنفع الخاصِّ بمساعدة المحتاج والضعيفِ والمَدينِ والمسكينِ وابنِ السبيلِ وسائرِ أهلِ العجْز والحاجةِ إذ على المنفق أن يكونَ مخلصا لله عز وجل ، وأن يقصدَ تطهيرَ النفسِ من رذيلة الشحِّ مستعينا بربِّه على الطاعة مبتعدا كلَّ الابتعادِ عن الرياء ، كما يجبُ أن يتحلَّىٰ بعد البذْل والإنفاقِ بالبُعد عن المنِّ بالمعروف والتحدثِ به وإيذاء المنفَقِ

عليه ، كما يجب أن يراقِبَ المؤمنُ ربَّه في جميع أعمالِه وألَّا ينقطع عن عملِ الخيرِ والطاعةِ حتى يلقَىٰ رَبَّه وأن ينظرَ دائما في عمل الآخرةِ راجيا خائفا .

بعد أن بيَّنت الأمثالُ ما يجب أن يتصفَ به المنفقُ بيَّن الله عز وجل بعد ذٰلك صفاتِ المال المبذول ، فإلى جانب كونِ المنفِق مخلصا صادقَ النية مبتغيا وجْهَ الله عز وجل بصدقته غيرَ مانٍّ على الفقير ولا مؤذٍ له بقولٍ ولا بإشارةٍ ينبغي له أيضا أن يختارَ المالَ من جيِّد ماله ، وأحبِّه إليه وأطيبِه ، وبذٰلك يتمُّ الإرشادُ والنصحُ في وجوه البذلِ والنفقةِ في سبيل الله ، ويكتملُ المقصودُ لدى المتدبر . يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ** ﴾[1] أي أنفقوا من جياد أموالِكم المكسوبةِ من النقد وسلعِ التجارة والماشية ، وممَّا أخرجنا من الأرض من الحبوب والثمارِ وغيرِها ، قال ابن عباس : أمرهم بالإنفاق من أطيَبِ المالِ وأجْودِه وأنفَسِه ، ونهاهم عن التصدق بِرُذَالة المالِ ودنيِّه – وهو خبيثُه – فإن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيِّبا ، ولهٰذا قال : ﴿ **وَلَا تَيَمَّمُواْ** ﴾ أي لا تَقْصِدوا ﴿ **ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ** ﴾ أي ولا تَقْصِدُوا الخبيثَ الرديءَ من أموالكم فتَخُصُّوه بالإنفاق منه، وكيف تَقصدون الخبيثَ كالرديء من الطعام والتمرِ وغيرِهما وتتصدَّقون به وحده ، ولستم تَرْضَوْنَ مثلَه لأنفسكم إلا أن تتساهلوا فيه تساهلَ من أغمَضَ عينيه عنه ، فلم يَرَ العيبَ فيه ولن يَرْضَىٰ ذٰلك أحدٌ لنفسه إلا وهو يَرى أنه مَغبُون مغموصُ الحقِّ ، ألا ترى أنَ الواحدَ منا لا يقبل الرديءَ هديةً إلا بإغماضٍ فيه وتساهلٍ مع المُهْدِي ، واستحياءٍ منه ، فقد يُقبَل في هذه الحالةِ مالا قَدْرَ له في نفسه ، ومالا حاجةَ للمُهدَىٰ إليه به .

---

(١) البقرة : ٢٦٧ .

وإذا كان الأمرُ كذٰلك في المال الرديء ، فالمالُ الحرامُ من باب أولى ، إذ المؤمن الصالحُ يتصدقُ من خالص مالِه وطيبِه وحلالِهِ ، ولا يقصد المالَ الحرامَ فيتصدقَ منه ، لأن المال الحرامَ لا بركةَ فيه ، ولأن الصدقة منه مردودةٌ غيرُ مقبولة .

﴿ وَٱعلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[1] أي أن الله غنيٌّ عن صدقاتكم وإنما أمركم بها لمنفعتكم في العاجلة والآجلة ، فلا تتقرَّبوا إليه بما لا يقبلُه لرداءته أو لكونه من كسب حرام ، وهو سبحانه المستحقُّ للحمد على جلائل نعمائه ، وهو المحمودُ في جميع أفعالِه وأقوالِه وشرعِه وقَدَرِه ، لا إلٰهَ إلّا هو ولا ربَّ سواه .

ولما كان الشيطانُ عدوَّ الإنسانِ فقد حَذَّر الله عباده من وسوسته بأن يُغرِيَ أصحابَ الأموال بالبُخل ، ويخوفَهم الفقرَ ليُمسكوا ما بأيديهم فلا يُنفقوا في سبيل الله ، إذ يُخيِّل إليهم أن الإنفاقَ يَذهبُ بالمال ، ولابد من إمساكه والحرصِ عليه لحاجات الزمان ، والشيطانُ مع نهيه عن الإنفاق في وجوه الخيرِ خشيةَ الإملاق يأمر بالمعاصي والمآثمِ والمحارمِ ويدفع الأشقياءَ إلى تبديد المالِ في المعاصي ومخالفةِ الخلَّاقِ العظيم ، ولنتدبر : ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ، وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾[2] أي لا تشِحُّوا في أبواب الخيرِ فإن الله وعدكم مغفرةً لخطاياكم ، وخلَفًا في الدنيا ، وبركةً في المال والأهل ، وهو سبحانه واسعُ الرحمةِ والفضلِ ، وقد وعَد ووعدُه حقٌّ وَصِدق ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[3] . وما مِن يوم يُصبح

---

(١) البقرة : ٢٦٧ .

(٢) البقرة : ٢٦٨ .

(٣) سبأ : ٣٩ .

فيه العبادُ إلا ملكان ينزلان يقول أحدُهما : « اللهم أعطِ مُنفقا خلَفا ، ويقول الآخر : اللهم أعْطِ مُمسكا تلَفا » أخرجه البخاري ومسلم . فسبحان من ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾[1] أي فيفرق بين الحق والباطل ، ويسهُلُ عليه التفرقةُ بين الوسواس والإلهام ، فيهتدي بنور الدين ، وينفقُ في سبيل اللهِ ولا يَخشى من ذي العرش إقلالا .

* * *

(١) البقرة : ٢٦٩ .

١٧ - أ - آكل الربا متخبط في الدنيا ويبعث كالمجنون في الآخرة .

قالَ اللهُ تعالىٰ في سورة البقرة :

﴿ **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ** ﴾ (٢٧٥) .

وذٰلكَ بعد الآيات التي ذُكِرَ فيها الأبرارُ الذين يُؤدُّون النفقاتِ ، ويُخرِجون الزكوَاتِ ، ويَصِلُون القَراباتِ وذوي الحاجاتِ في جميع الأحوال والأوقاتِ ، وقد وَعَدَهُمُ سبحانه الأجرَ العظيمَ يومَ القيامةِ على ما فَعَلُوا من الإنفاق في الطاعات مع الرغبةِ فيما عندَ اللهِ من الرحمة والثوابِ ، وفيهم يقول عَزَّ وجلَّ : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (٢٧٤) .

لَمَّا ذَكَر تعالىٰ هـٰؤلاء الأبرارَ شَرع سبحانه في ذِكْر أَكَلةِ الرِّبا وأموالِ الناسِ بالباطل وأنواعِ الشُّبهات ، فأخبر عنهم يومَ خُروجِهم من قبورهم ، وقيامِهم منها إلى بَعْثهم ونشورِهم إذ يقومُ آكِلُ الرِّبا قِيامًا مُنكَرًا فَظِيعا ، يقول ابنُ عباس : آكِلُ الرِّبا يُبعَثُ يومَ القيامةِ مجْنونًا يُخْنَقُ .

وشَتَّان بين مصيرِ الفريقين ، فريقِ أهلِ الصلاحِ والتقوىٰ الذين يُنفِقُون من الحلال الطيِّبِ ، يَرجون عفْوَ اللهِ ورحمَتَه ، ويبذلون أموالَهُم في وجوه الخير ،

ويبادِرُون إلى سدِّ حاجةِ الْـمحتاجين ، وينظرون دوما إلى عمـل الآخرةِ لا تشغَلُهم عنها الفانيةُ ، فهـؤلاءِ يُبعَثُون وقلوبُهـم مطمئنةٌ بفضل اللهِ ورحمتِه لا يخافون من أهوال القيامةِ وشدائِدِها إذْ يَرون مقاعدَهم من جَنَّات النَّعيم ، ولا يَحزنُون على ما خَلَّفوه في دنياهم .

أمَّا فريقُ آكلي الرِّبا فيقومون من قبورهم وَهُم في فَزَع ورعبٍ وقد رَبَتْ وزادتْ أموالُ الرِّبا في بطونهم حتى صارت كالبيوت الضخمةِ إذا قاموا مالتْ بهم بطونُهم فيَسْقطون ، وآل فرعونَ يمشون على بطونهم مُقبلِين ومُدْبِرين حتى يُفْصَلَ بين العباد ، ويُدْفَعَ بهم إلى دركاتِهم من جهنَّمَ وبئس المصير .

إن المقابلةَ بين حالي الفريقين تَبعثُ على التفكُّر والتأمُّل ، وتدفعُ أهلَ العقلِ والحكمةِ إلى اختيار الأفضلِ والرغبةِ فيما يكون سببا في السلامة والفوزِ والفلاحِ ويحققُ البركةَ في الدنيا والسعادةَ في الآخرة : ﴿ **يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَـوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِ** ﴾(١) كما يَبْعث التأمُّلُ على النفور من خصال الشرِّ والخوفِ من الكسب الحرامِ الذي يؤدي الإنسانَ إلى الهلاك والعذاب . إن المقابلةَ بين الأمرين المُتَضادَّين تَزِيدُ المعنى وضوحا ، وتُبيِّن المَزايا ، وترغِّب في الحَسَنِ ، وتُنَفِّرُ من القَبِيح في الخصال والأعمالِ والأقوالِ التي تُزرِي بالإنسان وتجعلُه مَحَلَّ سُخطِ اللهِ وغَضَبِه .

وهيا نتدبَّر حالَ أكلةِ الرِّبا في الآية الكريمةِ والمثَلَ الذي ضُرِبَ لهم وَشُبِّهَ به حالُهم لتقبيح مَسْلكِهم ولإنذار الـمخالفين قبل فواتِ الأوانِ ، إذِ النادمُ لا ينفعُه ندمُه يومَ الدين .

﴿ **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَـوٰاْ** ﴾ « يأكلون » معناه : يأخذون ويكسبون فعُبِّر

---

(١) البقرة : ٢٧٦ .

عن الأخْذ بالأكل ، لأن الأخذَ إنَّما يُرادُ به الأكلُ ، إذ الأكلُ أقوَىٰ مقاصِدِ الإنسانِ في المال ، ولأنه يدلُّ على الجشَع ، وهو أشدُّ الحِرص ، فَأُقيم هـٰذا البعضُ من توابعِ الكسبِ مقامَ الكسبِ كلِّه ، فاللباسُ والسُّكْنَىٰ والادِّخارُ والإنفاقُ على العيال داخلٌ في قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ** ﴾ أي يأخذونه ويكسبونه ويفعلونه .

والرِّبَا : في اللغة معناه الزيادةُ مطلقا ، مِن رَبَا الشيءُ يربُو إذا زاد ، ثم إن الشرعَ قد تصرَّف في هـٰذا الإطلاقِ فقصَرَهُ على بعضِ موارِدِهِ ، فمرةً أُطلِق لفظُ الربَا على كسْب الحرام ، كما قال تعالى في اليهود : ﴿ **وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ** ﴾[1] ، والمرادُ المالُ الحرامُ مُطلقًا كالرشوة ، واستحلالِ أموالِ الأُمِّيين حيث قالوا : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ** ﴾[2] . وفي هـٰؤلاءِ اليهودِ يقول سبحانه : ﴿ **سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ** ﴾[3] ، أي المالِ الحرام ، وعلى هـٰذا فيدخل في النهْي عن الربا النَّهْيُ عن كلِّ مالٍ حرامٍ بأيِّ وجْهٍ اكتُسِبَ .

والربا الذي عليه عُرْفُ الشَّرع شيئان : تحريمُ النَّسَاء ، والتفاضلِ في العقود والمطعومات على النَّحو الذي بَيَّنه الشارعُ الحكيمُ ووضَّحته سُنَّةُ النبى الأمينِ ﷺ .

وفي الحديث الذي رواه الأئمةُ واللفظُ لمسلم عن أبي سعيدٍ الخدرى قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « الذهبُ بالذهب ، والفِضَّةُ بالفضة ، والبُرُّ بالبُرِّ ،

---

(١) النساء : ١٦١ .

(٢) آل عمران : ٧٥ .

(٣) المائدة : ٤١ .

والشعيرُ بالشعير ، والتَّمرُ بالتمر ، والمِلْحُ بالمِلح مِثْلًا بِمِثْل ، يدًا بيد ، فَمَن زادَ أو استَزادَ فقد أربَىٰ ، الآخِذُ والمُعْطِي فيه سواءٌ » .

وفي حديث عُبَادةَ بنِ الصامت : « فإذا اختلَفَتْ هٰذه الأصنافُ فبِيعُوا كيف شِئتُم إذا كان يدًا بيد » .

ولفظُ روايةِ عُبادةَ بنِ الصامت عند أبي داود : « الذهبُ بالذهب تِبْرُها وعَيْنُها ، والفضةُ بالفِضَّة تِبْرُها وعينُها ، والبُرُّ بالبُرِّ مُدْيٌ بِمُدْيٍ ، والشعيرُ بالشعير مُدْيٌ بِمُدْي ، والتمرُ بالتمر مُدْيٌ بمُدْي ، والمِلْحُ بالمِلح مُدْيٌ بِمُدي ، فَمَن زاد أو ازداد فقد أَربَىٰ ، ولا بأسَ ببيع الذهبِ بالفضةِ والفضَّةُ أكثرُهما يدًا بِيَد ، وأمَّا نَسِيئةً فَلَا ، ولا بأسَ بِبَيْع البُرِّ بالشعير والشعيرُ أكثرُهما يدًا بيد ، وأمَّا نسيئةً فلا » وأجمع العلماءُ على القول بمقتضىٰ هٰذه السنةِ ، وعليها جماعةُ فقهاءِ المسلمين ، مع اختلافٍ يسير في إلْحاق بعضِ أصنافِ المطعومات ببعضٍ عِنْد بعضِهم ، ولكنَّ السنَّةَ إذا ثبتتْ فلا قولَ معها لأحَد .

وَمُدْيٌ بِمُدْي : أي مِكْيالٌ بمِكْيال ، والمُدي مِكْيال ضخْمٌ لأهل الشامِ ومصر كما قال ابنُ الأعرابي وَجَمْعُه أَمْداء ، وقيل : المُدْي : مِكيال لأهلِ الشام يُقال له : الجَرِيب يَسَعُ خمسةً وأربعين رِطْلًا ، وهو غيرُ المُدِّ إذ المُدُّ مِكْيالٌ وهو رِطْلٌ وثُلثٌ عند أهلِ الحجازِ والشافعيِّ ، وَرِطْلان عند أهلِ العراقِ وأبي حنيفةَ .

والتِّبْرُ : قِطَعُ الذَّهَبِ والفضَّةِ قبل أن تُضرَبَ ، وتُطْبَعَ دَرَاهِمَ أو دَنانِيرَ ، واحِدَتُها تِبْرَةٌ ، والمضروبُ من الذهب والفضةِ يُسمى (عَيْنًا) ، وقد حَرَّم الشارعُ الحكيمُ أن يُباعَ مثقالُ ذهَبٍ عَيْن بمثقالٍ وشيءٍ من تِبْرٍ غيرِ مَضْرُوب ، وكذٰلك حَرَّم التفاوتَ بين المضْرُوب من الفِضَّة وغيْرِ المضْروب مِنها ، وذٰلِكَ

مَعْنى ما جاء في الأثَر : «تِبْرُها وعَيْنُها سَواءٌ » .

﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ أي لا يقومون مِن قُبورهم كما قال ابنُ عباس وغيرُه ، وقال بعضُهم : يُجْعَلُ مَعه شيطانٌ يَخْنُقُه . وفي الآية الكريمةِ تشبيهُه بالْمجنون أي يُبعَث كالْمجنون عقوبةً له ، وتَمقِيتًا عِنْدَ جميعِ أهلِ المحشر .

﴿ يَتَخَبَّطُهُ ﴾ : وَزْنُه يَتَفَعَّلُه من خَبَطَ . يَخْبِطُ ، كما يقال : تَمَلَّكَهُ ، والخَبْطُ : كُلُّ سيْرٍ على غَيرِ هُدىً كَخَبْطِ العَشْواء ، ويقال : خَبَطَهُ الشيطانُ وتَخَبَّطَهُ إذا مَسَّهُ بأذىً وأَفْسَدَهُ ، و ﴿ ٱلْمَسِّ ﴾ الجُنون ، وقد جَعَل اللهُ عز وجل هٰذه العلامةَ لأكَلَةِ الرِّبا ، وذٰلك أنه أَرْبَاهُ وزادَهُ في بُطونهم فَأَثْقَلَهُم ، فهم إذا خَرجوا من قبورهم يَقومون ويَسقُطون ، ويُقال : إنهم يُبعثُون يومَ القيامةِ قد انتفختْ بطونُهم كالحُبَالَىٰ وكُلَّما قامُوا سَقَطوا ، والناسُ يَمْشُونَ عليهم ، وقال بعضُ العلماءِ : إنما ذٰلِكَ شِعارٌ لهم يُعرفون به يوم القيامة ثُمَّ العذابُ من وراءِ ذٰلك .

وقد شُبِّهَتْ حَالُهُم هٰذه بحال الذي لا يقومُ إلَّا كما يقومُ الذي يتخبَّطُه الشيطانُ من المَسِّ ، مِمَّا يدلُّ على بشاعةِ أَكْلِ الرِّبا ، فقد ضَرَب اللهُ لآكِلِه مَثَلًا بصُورةِ المجنُون ذي الحركاتِ المضطَرِبةِ يَمشي على غيرِ استواءٍ في تعثُّر وعِوَجٍ ، يَصْطَدِمُ بالأشياء ، فَيَخْبِطُه جدارٌ أو شجَرةٌ أو حيوانٌ أو يَسقطُ في حُفرة وهٰكذا تأتيه الخَبَطَاتُ من كلِّ جانب ، بعد أن فَقَد توازنَه وقد تَخَبَّطَهُ الشيطانُ وأَفْقَدَهُ وَعْيَه — أعاذنا الله عز وجل من ذٰلك — وكان من دعاءِ الرسولِ ﷺ كما عِند النَّسائي عن أبي اليَسَرِ : « وأعوذُ بكَ أنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ المَوْتِ » وقد ثَبَتَ الصَّرَعُ من الجِنِّ وَمِن أدلَّتِه هٰذا الدعاءُ .

هـٰذه الصورةُ وَضَّحت لنا هذا اللونَ من العَذاب بَعْد البعثِ وقد ضَرب اللهُ بِها مَثَلًا لعَذَاب الذين يأكلُون الرِّبَا ، فلا يُقْلِعُون عنه ، ولا يَتُوبُون منه ، ولا يَرجِعُون إلى بَارِئهم نادمين ، وَيَرَوْنَ أنهم لا يَفعلون مُنكرًا فَظيعًا ، وهي صورةٌ مُنْتَزَعَةٌ من الواقع تُقَرِّبُ المعنىٰ المرادَ وَتُوضحُ مِقْدَارَهُ .

إنهم رَفَضُوا حُكْمَ اللهِ في الرِّبا وتَحريمَه والنَّهْيَ عنه ، واعترضُوا بقولهم : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ** ﴾ وهو تشبيهٌ في غير محلِّه وحجةٌ مردودةٌ على أصحابها .

* * *

١٨ - ب - أحل الله البيع وحرم الربا .

مَثَّلَتْ آيةُ سُورةِ البقرةِ حالَ المُرابين في الدنيا كالمُتخبِّطين في أعمالهم بسبب الصرع والجنونِ ، فقد شُبِّه حالُ القائمِ بحرصٍ وجشعٍ إلىٰ تجارة الدنيا بقيام الْـمجنون ، لأنَّ الطمعَ والرغبةَ تستفِزُّه حتى تضطربَ أعضاؤُه ، وهذا كما كانت تقول العربُ للمُسْرِعِ في مَشْيِه يَخْلِطُ في هيئة حركاتِه إمَّا مِن فَزَعٍ أو غيرِه : قد جُنَّ هَـٰذا .

أمَّا جمهورُ المفسِّرين فعلىٰ أنَّ المرادَ بالقيام القيامُ من القُبور حين البعثِ كما جاءت به قراءةُ ابنِ مسعودٍ – رَضِيَ اللهُ عنه : « لا يقُومون يوْمَ القيامةِ إلَّا كَما يقومُ الذي يتخبَّطُه الشَّيطانُ من المسِّ » وبذٰلك قال ابنُ عباس وغيرُه .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[1] أي إنما جُوزي المرابون بذٰلك لاعتراضهم على أحكام اللهِ في شَرْعه ، وقَولِهم : إنما البيعُ نظيرُ الرِّبا ، فَلِمَ حُرِّمَ هـٰذا وأُبِيحَ هـٰذا ؟ وهذا اعتراضٌ منهم على الشرع ، أي : هـٰذا مثلُ هـٰذا ، وقد أَحَلَّ هـٰذا وَحَرَّم هـٰذا ... ! .

وشَتَّان بين البيْعِ والرِّبا ، وفرقٌ كبير بين المعاملتين ، ومن ثَمَّ قال الحقُّ سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[1] إذ في البيع ما يقتضي حِلَّه ، وفي الربا من المفسدة ما يَقتضي تحريمَه ، واللهُ عزَّ وجل هو العالم بحقائق الأمورِ

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

ومصالحها ، وما ينفعُ عبادَهُ فيُبيحُه لهم ، وما يَضرُّهم فينهاهم عنه ، وهو سبحانه أرحمُ بهم من الوالدة بولدها الطفلِ .

إنَّ البيْعَ يقعُ باختيار كلٍّ من البائع والمشتري ، وتتحققُ به مصالحُ كثيرة ، إذ ينتفع المشتري بالسلعة انتفاعا حقيقيا كمن يشتري قَمْحًا فهو قد يأكلُه أو يبذرُه في الأرض ، أو يتاجرُ فيه . وإن الثمن الذي يُدفَعُ مقابلٌ للمَبيع مقابلةً مُرضِيَةً للطرفين البائعِ والمشتري . وعلىٰ هٰذا قِسْ إذا وَقَع البيعُ بِشرُوطِه وفيما أُحِلَّ بَيْعُه ، أمَّا الربا فهو إعطاءُ الدراهمِ والمِثْليَّاتِ وَأَخْذُ الزيادةِ في وَقْتٍ آخرَ ، فما يُؤخَذ من المَدِين زيادةً علي رأس المال لا مقابلَ لهُ من عَيْن ولا عَمَل ، والزيادةُ تؤخَذ من المدين بالكُره والاضطرار .

ولذا كان من رحمة اللهِ بالعباد أنْ حَرَّمَ عليهم التعاملَ بالربا ، سواءٌ رِبا النَّسيئةِ أو رِبَا الفضْلِ .

وَرِبا النَّسيئةِ : يكون بإقراض قَدْرٍ مُعيَّن من المال لزمنٍ محدود كسنَةٍ أو شهرٍ أو غيرِ ذٰلك مع اشتراط الزيادةِ في نظير امتدادِ الأجل . ولقد كان صاحبُ الدَّين إذا حَلَّ الأجلُ قال للمقترِض : إما أن تَقْضِي وإمَّا أن تُرْبِي ، أي تَزِيد في الدَّين ، فحرَّم اللهُ سبحانه ذٰلك وأحلَّ البيعَ لعباده لِمَا فيه من المصالح والمنافعِ التي لا غِنَى لأحد عنها ، وأوضح سبحانه أنَّ الأجلَ إذا حَلَّ ولم يكُنْ عنْدَ الغَرِيمِ ما يُؤدِّي أُمهِل إلى الميْسَرة ، وقد أعلن النبيُّ ﷺ تَحْرِيمَ الرِّبا يومَ عرفةَ وأكَّد ذٰلك ، فقال : « ألا إن كُلَّ رِبًا موضوعٌ ، وإن أولَ رِبًا أضعُه رِبانا ؛ رِبا عباسِ بنِ عبدِ المطلبِ فإنه موضوعٌ كلُّه » فبدأ ﷺ بعمِّه وأخصِّ الناسِ به .

أمَّا رِبا الفضلِ فيكون في بيْعِ الشيء بنظيره مع زيادةِ أحدِ العِوَضين على الآخر

كأن يَبيعَه إردبًّا من القمح الهندىِّ – مثَلا – بثلاثَ عشرةَ كيلةً من القمح البلدىِّ ، أو يبيعَه قنطارا من القطن المصرىِّ بقنطارٍ وثُلث من القطنِ السودانىِّ ، وهٰكذا الحكمُ في جميع المكيلاتِ والموزوناتِ والنَّقْدين – الذهبِ والفضة – وفي الحديث : « لا تَبيعُوا الذهبَ بالذهب ، والوَرِقَ بالوَرِق ، والبُرَّ بالبُرِّ ، والتمْرَ بالتمْر والشعيرَ بالشعير ، والمِلْحَ بالمِلح إلا سَواءً بسواءٍ ، عَيْنًا بِعَيْن ، يدًا بِيَد » .

وفي الحديث : « الدينارُ بالدينار ، والدرهمُ بالدرهم لا فضلَ بينهما ، مَن كانتْ له حاجةٌ بِوَرِقٍ فليصْرِفْها بِذَهَب ، وإنْ كانت له حاجةٌ بذَهَب فليصْرِفْها بِوَرِقٍ هَاءَ وَهَاءَ » رواه علىٌّ – رضي الله عنه – واللفظُ للدارقطني وورد معناه عند غيره .

و « هَاءَ وَهاء » قال ابن الأثير : هو أن يقول كلُّ واحد من البَيِّعَيْنِ « ها » فيُعطيَه ما في يده ، يعني مقابضةً في المجلس ، وقيل معناه : هاكَ وهاتِ ، أي خُذ وأَعْطِ ، ويقال للواحد هاءَ ، وللاثنين هاؤُمَا ، وللجمْع هاؤُم .

قال العلماء : فقولُه عليه السلام : « الدينارُ بالدينار والدرهمُ بالدرهم لا فضلَ بينهما » إشارةٌ إلى جنس الأصلِ المضْروب ، بدليل قولِه عليه السلام : « الفضةُ بالفضَّة والذهَبُ بالذهب » فكلٌّ من الفضة والذهبِ لا يجوزُ بيْعُ بعضِه ببعض إلا مِثْلا بِمِثْلٍ سواءً بسَواء حتى ولو اختلفت الألوانُ كالذهب الأحمرِ والأصفرِ والفضةِ البيضاءِ والغبراءِ – مثَلا – .

عقد الربا مفسوخ :

وقد حَرَّم اللهُ عز وجل الرِّبا ، وجاء الوعيدُ شديدًا بشأنه ، وأحلَّ لهم البيعَ

والشراءَ وتبادُلَ الخيْرات والمنافع إذ التقليبُ في السِّلع والخيراتِ تتوقفُ عليه مصالحُ العباد ، وإنَّ عَقْدَ الرِّبا مفسوخٌ لا يجوز بحال ، لِمَا رواه الأئمةُ واللفظُ لمسلم عن أبي سعيد الخدري قال : جاء بلالٌ – رضي الله عنه – بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ وهو تَمْرٌ أحمرُ بِصُفْرةٍ كثيرُ اللِّحاء – واللِّحاءُ هو ما كَسَا النَّواةَ – عَذْبُ الحَلاوة ، فقال له رسولُ الله ﷺ : « مِن أين هٰذا ؟ فقال بلال : من تَمْر كان عندنا رديءٍ ، فَبِعْتُ منه صَاعيْن بصاع لمَطْعَم رسولِ الله ﷺ ، فقال النبيَّ ﷺ عند ذٰلك : أَوْهِ عَيْنُ الرِّبا ، لا تفعلْ ، ولٰكن إذا أردتَ أن تشتريَ التمرَ فبِعْه بِبَيْع آخرَ ، ثم اشتَرِ به » وفي رواية : « هٰذا الرِّبَا فَرُدُّوه ثم بِيعُوا تَمْرَنا واشتَروا لنا من هٰذا » ، قال بعضُ العلماء : فقولُه : « أَوْهِ عينُ الربَا » أي هو الربا المُحَرَّمُ نفسُه لا ما يُشْبِه ، وقولُه : « فردُّوه » يدلُّ على وجوب فسْخِ صَفْقةِ الرِّبا ، وأنها لا تصحُّ بوجْه ، وهو قولُ الجمهور لأن الرسولَ ﷺ لم يأمُرْ بِلالًا بردِّ الزيادةِ على الصاعِ لتصحيح الصفقةِ في مقابلة الصاعِ ولكنَّه عليه السلامُ قال : « لا تَفْعَلْ » وفي لفظ الرواية الأخرى : « فَرُدُّوه ثُم بِيعُوا تمْرَنا ، واشتَروا لنَا مِن هٰذا » .

إن في تحريم الربا مصالحَ كثيرةً للبلاد وللعباد ، فهو ينزِعُ البركةَ من الأموال ، ويُقَسِّي قلوبَ المتعاملين به ، ويمنعُ المتهاونين بشأن التحريمِ من الاشتغال بالمكاسب الصحيحةِ مثْلِ الحِرَف ، والصناعات ، والتجارةِ ، إذ يرى المرابي أنَّ ماله ينمو عن هٰذا الطريق الخبيثِ دون أن يبذلَ مشقةً فيألفُ الكسل ، ويتركُ العمل الجادَّ ، ويركنُ إلى الانتفاع من وراء حاجةِ الناس واضطرارِهم ، دون رأفةٍ بفقير ، ولا شفقةٍ على بائس ، ولا رحمةٍ بحائر ، ولذا يُرَىٰ المرابون تزدادُ أطماعُهم في أوقات الأزماتِ وفي أزمنة القحطِ والشدائد ، وحين تندلعُ نيرانُ الحروب

وتشتدُّ الحاجةُ إلى الأقوات والكساءِ والدواءِ ويُضطرُّ كثيرٌ من الناس إلى الاستدانة .

هٰذا وإنَّ الربا من أقوى الأسبابِ لزرع العداوةِ في القلوب ، وإثارةِ المشاحنات والخصوماتِ إذ هو يَنزِعُ عاطفةَ التراحم من القلوب ، ويجعلُ القسوة تَحِلُّ مَحِلَّ الرحمة ، والطمعَ مَحِلَّ المروءة ، ويَحْرِمُ الناسَ من مزايا المعروفِ والإحسانِ والمَودَّةِ والرفقِ فيما بينهم ، وإن سعادةَ الناسِ حقًّا في تعاونهم على البِرِّ والتقوىٰ وتراحُمِهم وقتَ الشدائدِ والمِحَن ، وفي تساندهم ، وتساعدِهم ، وشَدِّ بعضِهم أَزْرَ بعضٍ ، وهٰذه المعاني عُمَلٌ نادرةٌ لدى أصحابِ الربا وآكلي أموالِ الناسِ بالباطل .

أليس من الظلم البيِّن أن يأخذَ الإنسانُ مالَ أخيه بدون عِوَض ؟ أليس في أخذ المالِ بلا عِوَضٍ عن طريق الرِّبَا وَشِبْهِه ظُلمٌ واضح ؟ ألسنا نُقِرُّ بأن للمال حقًّا وحُرمةً ، وأنه لا يجوز لغير مالكِه الاستيلاءُ عليه بطريق غير مشروعٍ كالقهر واستثمارِ حالاتِ الاضطرار ؟ وفي الأثَر : « حُرْمَةُ مالِ الإنسانِ كحُرمةِ دَمِه » .

إنَّ أشدَّ الأزماتِ الاقتصاديةِ في العالم وراءها الرِّبا ، وإن كثيرا من الويْلات التي لحِقَت عددًا كبيرا من المجتمعات سَبَبُها الربا ، وكم كان الربا سببًا في خراب بيوتٍ كانت عامرة ، وقد جاء في حديث ابنِ مسعودٍ عند أحمدَ وغيرِه : « إن الرِّبَا وإنْ كَثُر فعاقبتُه إلى قُلٍّ » وقد لَعَن رسولُ اللهِ ﷺ الأطرافَ المتصلةَ بِعَقْد الربَا : المقترضَ وصاحبَ المالِ ، وكاتِبَه ، وشاهديْه ، مِمَّا يُؤكِّد بشاعةَ الربا ، وسوءَ أثرِه في الدنيا ، وسوءَ عاقبته في الآخرة .

﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ قال جعفر الصادق : حَرَّم اللهُ الرِّبَا ليتقارضَ الناسُ ، وجاء في الحديثِ الذي رواه ابنُ مسعود : « قَرْضُ مَرَّتين يَعْدِلُ صدقةَ مَرَّة » أخرجه البزار ، وقال بعضهم : حَرَّم اللهُ الربا لأنه مَتْلَفَةٌ للأموال مَهْلَكَةٌ للناس .

﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ قال السدى وغيرُه : وهـٰذا حُكْم اللهِ تعالىٰ لِمَن أَسْلَمَ من كُفَّار قُريش وغيرِهم وَمَن كَانَ يَتَّجِرُ هنالك ، وَسَلَف : معناه : تَقَدَّم في الزمن وانقضىٰ ، أي فَمَن بلَغَه تحريمُ الرِّبا وَنَهْيُ اللهِ عنه ، فتركَه فَورًا بلا تَراخٍ ، ولا تردُّدٍ بمقتضَىٰ هـٰذا النَّهْي ، فله ما كان أَخَذَهُ قبل التحْرِيم من الربا ، وعليه أن يَكُفَّ عن هـٰذه المعاملةِ وألَّا يأخذَ الرِّبا بعد ذٰلك ﴿ وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يَحْكُم فيه بِعَدْلِه .

﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أي إلىٰ الرِّبا فَفَعَلَهُ بعد بُلوغ نَهْي اللهِ لَهُ عَنه ، فقد استوجبَ العقوبةَ ، وقامت عليه الحجةُ ، ولهـٰذا قال : ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ .

* * *

١٩ - نفوس غير مطمئنة

قال الله تعالىٰ من سورة فُصِّلت : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ ٤٩ : ٥١ .

يَضرِب اللهُ عزَّ وجل الأمثالَ في كتابه العزيزِ للعظة والاعتبارِ ، وللهداية والإرشادِ ، ولتوجيهِ النفوسِ نحوَ الخير ، والتنفيرِ من السوء والشرِّ ، والمثَل من أفضل أساليبِ التربيةِ ، وأعظمِها تأثيرًا في النفس ، وأقواها في توضيح المعنىٰ وتقريبِه ، فحقيقةُ المثَل ما جُعِلَ كالعَلَم للتَّشبيه أي تشبيهِ حالِ الثاني وهو المضروبُ له المثَلُ بحال الأوَّلِ ، كقول كعب بنِ زهير :

كانت مواعيدُ عُرقُوبٍ لهَا مثَلًا ... وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

فمواعيدُ عُرقوب علَمٌ لكل مالا يَصِحُّ من المواعيد ، وعرقوبٌ رجلٌ من العمالقة يُضْرَبُ به المثَلُ في خُلفِ الوَعد ، يقال : مواعيدُه مواعيدُ عُرقوب ، فصار ذٰلك عَلَمًا على خُلف الوعد .

قال البلغاء : سُمِّيت الحِكَمُ القائمُ صِدقُها في العقول أمثالًا لانتصاب صورِها في العقول ، مشتقةٌ من المُثول الذي هو القيامُ أمامَ الشخص ، يقال : مَثَل بين يديْه إذا انتصب قائما أمامه ، و « فلانٌ أمثَلُ من فلان » أي أشْبهُ بما له من الفضل .

وغايةُ المثَل القرآنيِّ إصلاحُ النفوس ، وصقْلُ الضمائر ، وتهذيبُ الأخلاق ، وتقويمُ المسالك ، وتصحيحُ العقائد ، وتنويرُ البصائر ، والهدايةُ إلى ما فيه خيرُ الفردِ وصلاحُ الجماعة ، والتنبيهُ إلى المساوئ لِتُجتنَبَ ، وإلى المحاسن لتُقْبِلَ عليها النفوسُ الطيبةُ ، والقلوبُ الزاكية .

ومن الأساليب القرآنيةِ التي تَهْدِف إلى إصلاح النفوس ، وصلاحِ الجماعة وخيرِها عرضُ نماذجَ بشريةٍ ، وتحليلُ نفسياتها ، والكشفُ عن الخبايا التي قد تخفَىٰ على الناس ، أو لا يُمكن لهم الوصولُ إليها ، فإذا كان النموذجُ صالحا خَيِّرا مستقيما كان مِثَالا يُحتذىٰ ، وقدوةً لغيره في طريق الخيرِ والبرِّ والنفعِ وتنميةِ الحياةِ الإنسانيةِ بالقيم العاليةِ والفضائلِ السليمة ، والخصالِ الحميدةِ والأخلاقِ المستقيمة ، والأعمالِ الفاضلة ، وفي القرآن الكريمِ نماذجُ كثيرةٌ للنفوس الطيِّبةِ والهممِ العالية ، وأصحابِ المراتبِ السامية في مدارج الكمالِ الإنسانيِّ بجانبيه الروحي والمادى ، منهم بَعْد الرسلِ والأنبياءِ أصحابُ رسولِ الله ﷺ وغيرُهم من الربانيين والحكماءِ الموفَّقين أهلِ التقوى .

وفي القرآن الكريم -أيضا- نماذجُ للنفوس التي تَنطوي على الشرِّ والسوءِ في المعتقَدات أو في المسالك والخصالِ ، وفي عدمِ صحةِ النظرةِ إلى الحياةِ الدنيا ومتاعِها ، أو في سوء التفكيرِ والاتجاهِ ونحوِ ذٰلك من العِوَج والانحرافِ عن الصراط السويِّ ، والغايةُ هي هدايةُ الناسِ إلى الحق ، وإرشادُهم إلى ما فيه

خيرُهم وصلاحُهم وتبصيرُهم بمواطنِ الضعف ، والجوانبِ التي تُؤدي الإنسانَ إلى الخِذلان وسوءِ المصيرِ ليكونَ في ذلك عبرةٌ لذوي العقولِ والألباب .

وفي الآيات السابقة – من سورة فُصِّلت – يصفُ العليمُ الخبيرُ بخلْقه وبما تَنطوي عليه نفوسُهم من القلق والاضطراب ، ما هم عليه من هلَع إذا مَسَّهم الشرُّ جَزِعوا ، وإذا مَسَّهم الخيرُ مَنَعُوا مع البطَر والطَّيش والأَثَرةِ وحُبِّ الذات ، والرغبةِ في الاستئثار بالمنافع .

ولنتدبر :

﴿ **لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ** ﴾ أي لا يملُّ من دعائه بالخير والخيرُ هنا المالُ والصحةُ والسلطانُ والعِزُّ ونحو ذٰلك .

﴿ **وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ** ﴾ أي الفقرُ أو المرضُ ونحوُهما .

﴿ **فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ** ﴾ واليأسُ هو انقطاعُ الرجاءِ من حصول الخيرِ ، والقَنوطُ (بالفتح) وهو من اتصفَ بالقُنوط (بِضَمِّ أوله) ومعناه ظهورُ أثرِ اليأسِ على الإنسان من المذلَّة والانكسارِ ، فهٰذا الإنسانُ يئوسٌ مِن رَّوْحِ اللهِ ، قَنُوطٌ من رحمته سبحانه ، وقيل : يئوسٌ من إجابة الدعاء ، قَنوط بسوء الظنِّ بربه .

والآيةُ الكريمةُ تقدمُ لنا صورةً لنفسٍ شَرِهَةٍ طامعةٍ لا تعرفُ القناعة ، ولا تقفُ في مطامحها عند حدٍّ ، هي نفسُ الشخصِ الذي لا يَمَلُّ من طلبِ الخيرِ كالجاه والمالِ والصحةِ والرفاهيةِ لنفسه ، يكررُ ذٰلك بلسانه ، ويسعَىٰ إليه بالعمل ، ويسأَلُ المزيدَ من نعيم الدنيا ، ويعيشُ تحت تأثيرِ الغرائزِ الفرديةِ من حبِّ النفس ، وحبِّ التَّسلُّط والغلبةِ ، والاستئثار بالمنافع ، فهو يطلبُ ويطلبُ ، ولكنه لا يَعرِف فضلَ المُنْعِم عليه ، ولا يَشكرُ لله ، ولا ينفعُ الآخرين ، ولا ينظرُ لعمل

الآخِرة ، ومهما أُوتِيَ من خير الدنيا لا يَقْنَعُ ، كما جاء في الأثر الذي أخرجه البخارى : « منهومان لا يَشْبعان : طالبُ علْمٍ وطالبُ مال » وفي الأثر – أيضا – « لو كان لابنِ آدمَ واديان من ذَهَبٍ لتمنَّى لهما ثالثًا » .

إن النفس التي وصفتها الآيةُ الكريمةُ ليست هي نفسَ المؤمنِ الطموحِ الذي هَذَّبه الدينُ ، وآمن بأنَّ الإنسانَ مُختبَرٌ بالسراء والضراءِ وبالخير والشر ، وبالصحة والمرضِ ، وبالغِنى والفقرِ لِيُعْرَفَ صبرُه وشكرُه إذ المؤمنُ إذا أصابته سراءُ شكَر فكان خيرًا له ، وإذا أصابتْهُ ضراءُ صبَر فكان خيرًا له ، أمَّا الموصوفُ في الآية الكريمةِ فهو صاحبُ النفسِ القلقةِ التي تَجْنَحُ إلى الأثَرَة والتفاخرِ بدليل أنَّ صاحبَها إن مَسَّه الشرُّ يَئِس ، وإن تبدَّلتْ نعماؤُه بأساءَ قَنِط ، وتبدَّلت نفسُه جُملةً من الأمل إلى اليأس ، ومن الرِّضَىٰ إلى السُّخط ، ومن الرجاء إلى القنوط ﴿ **وإن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ** ﴾ وهٰذا دليلٌ على حبِّ الذات والإفراطِ في الإقبال على مُتع الحياةِ الدنيا ، والرغبةِ في أن يَرَىٰ دوما وجهَها المبتسمَ ، وهٰذا من ضيق الفكرِ إذ الحياةُ خشونةٌ ونعومة ، وخيرٌ وبأسٌ ، ونعيمٌ وبُؤس ، والمؤمنُ لا ييأس من رحمة اللهِ أبدًا ، وإن أصابه الخيرُ اطمأنَّ ، وإن أصابه الشرُّ رَضِي بقضاء الله .

إنَّ اليأسَ يَشُلُّ في الإنسان قوةَ التفكير ، ويُضعِفُ إرادتَه ، ويُوهِنُ عزْمَه ، واليائسُ بعيدٌ من رحمة الله ، تراه متبدلَ الأحوال ، متغيرَ الأطوار ، إنْ أحسَّ بخيرٍ بَطِر وتعظَّم ، وإن شعَر ببؤس ذَلَّ وخَضَع لأنه شديدُ الحِرص على الجَمْع ، شديدُ الجزَع عند الفقْد .

ثم من أحوال هذا اليائسِ القَنوطِ الغُرورُ والادِّعاءُ ونسيانُ الآخرة ، ولنتدبَّر ما

جاء فيه : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾ :

الرحمةُ هنا العافيةُ والرخـاءُ والغِنَـى ، والضراءُ السُّقْـمُ والشدةُ والفقـرُ ، ﴿ ليقولَنَّ هـٰذا لى ﴾ . أي هذا أستحقُّه على الله لرضاه بعملي ، فَيَرىٰ الـمخذولُ النعمةَ حتْما واجبًا على الله تعالىٰ ، ولم يعلم أنه ابتلاءٌ بالنعمة والْمحنةِ ليُتَبَيَّن شكرُه وصبرُه ، وقال ابنُ عباس : ﴿ هَـٰذَا لِى ﴾ أي هـٰذا من عندي ، وهـٰذا على النحو الذي ادَّعاه قارونُ لَمَّا قال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾[1] .

فهـٰذا المغرورُ المُدَّعي يَرَىٰ نفسَه أهلًا للغِنَى والثروة ، وإن كشَفَ اللهُ عنه ضُرًّا أصابَهُ في نفسه أو شدةً في معيشتِه ووهبَه العافيةَ بعد المرض ، والرخاءَ بعد الشدةِ فإنه يقول : هذا حَقِّي وصَل إليَّ معتقدا أنه يستأهلُ النعمةَ ، وأن غيرَه من الفقراء يستأهلُ الشقاء والشدة ، كأنه قد عَلم سِرَّ قسمةِ اللهِ المعيشةَ بين الناس ، وهذا الغرورُ يدفعُ صاحبَه إلى أحد أمرين :

– إمَّا أن يُنكرَ أنه مسؤولٌ أمام اللهِ ، فهو يقول كما قال الله عنه : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ ويطلب لدنياه كأنه يعيش أبدًا ظانًّا أنه لا حسابَ ولا عقابَ على الآثام التي يقترفُها الإنسانُ في دنياه ، فهو إمَّا أن يُنكِر البعثَ أو يتمنَّى على الله الأمانِيَّ بلا عقيدةٍ صحيحةٍ ولا عَمَلٍ صالح ، فيقول كما حَكَت الآيةُ الكريمةُ عنه : ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أي ولئِن كان البعثُ حَقًّا فإنَّ لي عند ربِّي الجنةَ إذ في نظره يَستوي حالُ الدنيا وحالُ الآخرة ، أو كما يقول أهلُ الجهل : سعيدُ الدنيا سعيدُ الآخرة ، ومحرومُ الدنيا محرومُ الآخرة ، وهـٰذا من سوءِ الاعتقاد ، وفسادِ التفكيرِ ، كما قال صاحبُ الجَنَّتين : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[2] .

---

(١) القصص : ٧٨ .

(٢) الكهف : ٣٦ .

وقد تَوعَّد الحقُّ تباركَ وتعالىٰ أمثالَ هـٰؤلاء بعذابٍ غليظٍ تشتدُّ آلامُه لفساد اعتقادِهم ، فقال سبحانه : ﴿ **فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ . لقد نَسِي هـٰؤلاء أن اللهَ يُملِي لهم ، ويُؤخِّرُهم ليومٍ تَشْخصُ فيه الأبصارُ ليُنْبِئَهم بما عَمِلوا ويَجْزِيَهم عليه ، ويُذِيقَهم عذابًا شديدًا لا يَجدون منه مَفَرًّا . إنَّ هـٰؤلاء يَعرفون ربَّهم في الشدة ، ويَنْسَون شُكْرَه في الرَّخاء والنعمةِ ، فإذا كشَفَ اللهُ عن أصحاب هـٰذه النفسيةِ الضُرَّ والشدةَ تَرفَّعوا عن الانقياد للحقِّ ، وبَطِرُوا النعمةَ ، وتكبَّروا عن طاعة الربِّ ، وإذا مَسَّهم الشرُّ ، وأصابهم الضُرُّ أكثروا من الدعاء والاستغاثةِ ، وفيهم يقول اللهُ تنبيهًا لذوي العقولِ والبصائر : ﴿ **وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ** ﴾ .

* * *

٢٠ - لا يُغني حذر من قدر.

ما شاء اللهُ كان ، وما لم يَشأْ لم يكُن ، وقضاءُ اللهِ نافذٌ في وقته لا محالة ، وَكُلُّ شيءٍ عنده سبحانه بمقدار ، وما أصاب المرءَ لم يكن لِيُخْطِئَهُ ، وما أخطأَهُ لم يَكُنْ لِيُصِيبَه .

وقد رُوي أن رسولَ اللهِ ﷺ خطَب ، فقال : « كُلُّ مَا هُو آتٍ قَرِيب ، ولَا بُعْدَ لِمَا هو آتٍ ، لا يُعجِّل اللهُ لعَجَلة أحدٍ ، ولا يَخِفُّ لأمْر الناسِ ، ما شاء اللهُ لا ما شاء الناسُ ، يُرِيدُ اللهُ أمْرًا ، وَيُرِيدُ الناسُ أَمْرًا ، مَا شَاءَ اللهُ كانَ ولوْ كَرِهَ النَّاسُ ، ولا مُبْعِدَ لِمَا قَرَّبَ اللهُ ، ولا مُقَرِّبَ لِمَا بَعَّدَ اللهُ ، لا يَكونُ شَيءٌ إلَّا بإذنِ اللهِ جَلَّ وعَزَّ » .

إنَّ الإنسانَ إذا قَوِي يقينُه بقضاء اللهِ وقَدَرِه عاش مطمئنَّ القلب ، ساكنَ النفس ، لا يجزعُ إذا أصابه الشرُّ ونَزل به المكروهُ ، ولا يطغَىٰ إن أصابه الخيرُ ، وهُيِّئَت له أسبابُ النَّعيم لِعِلْمِه أنَّ ذٰلك مِمَّا يُقدِّره اللهُ عزَّ وجل فهو يعيشُ صابرًا على البلاء ، شاكرًا على الرخاء والنَّعماءِ ، مُطيعًا ربَّه على كل حالٍ لا يَسخطُ ، ولا يَقْنَطُ ، ولا يَغْترُّ ويتكبَّر .

وإنَّ المؤمنَ يُوقن أنَّ لكل إنسانٍ أجَلا ، وأن الآجالَ بيد اللهِ وحده ، إذ الآجالُ كالأرزاق ، فكما أنَّ أحدًا لا يموت حتى يستوفِيَ رزقَه الذي قدَّره له

خالقُه ، فكذٰلك فإنَّ أحدًا لا يموت حتى يستوفِيَ أيامَهُ وساعاتِه المقدَّرَةَ له في الدنيا ، وكما لا يستطيعُ أحدٌ أن يَفِرَّ من رزقه فكذٰلك لا يستطيع أحدٌ أن يَفِرَّ من الموت في وقتِه .

وقد قَصَّ القرآنُ الكريمُ قِصَّةَ قوم خرجُوا من ديارهم وهم ألوفٌ لحذرِ الموتِ ، إذْ حَلَّ بديارهم وباءٌ ، أوْ أُمِروا بالجهاد فخافُوا الموت ، ففرُّوا هاربين ، فقال لهم اللهُ عزَّ وجَلَّ موتُوا فماتُوا ، أماتهم اللهُ عزَّ وجل قبل آجالِهم عقوبةً لهم ، ثم بَعَثَهُمْ إلى بقيَّةِ آجالهم . ليكونَ في ذٰلك عبرةٌ لهم ولأهل العقْلِ والبصيرةِ في كل زمان .

وفي قِصَّتِهم يقول اللهُ عزَّ وجل من سورة البقرة : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴾ ٢٤٣ .

﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ تقريرٌ لِمَن سَمِع بِقصَّتهم من أهل الكتاب ، وتَعْجِيبٌ من شأنهم ، ويجوزُ أن يُخَاطَبَ به مَن لم يَرَ ، ولم يَسْمَعْ لأنَّ هٰذا الكلامَ جَرى مَجْرَىٰ المَثَل في مَعْنَى التعجُّب .

ومن أخبار هٰؤلاء عند المفسِّرين : أنهم قومٌ من بَني إسرائيلَ وقَع فيهم الوباءُ ، وكانوا بقريةٍ يقال لها : دَاوَرْدَانُ من نواحي شرقيِّ واسط بينهما فرسخٌ ، فخرجُوا منها هاربين ، فنزلوا واديًا فأماتهم اللهُ تعالىٰ .

واختلفت الروايةُ في عددهم فجاء عن ابن عباسٍ أنهم كانوا أربعةَ آلافٍ ، وعنه : كانوا ثمانيةَ آلافٍ ، وعنه أنهم كانوا أربعين ألفًا ، ومنهم مَن قال : كانوا ثمانين ألفًا .. فهم كانوا أكثرَ من عشرة آلافٍ لقوله تعالىٰ : ﴿ **وَهُمْ أُلُوفٌ** ﴾ وهو جَمْعُ الكثْرة ، ولا يُقال في عَشرة فما دُونها .

وقال ابنُ زيْد في لَفْظَةِ أُلوف : إنَّما معناها وَهُم مُؤْتَلِفُون ، أي لم تُخْرِجهم فُرْقَةُ قومهم ولا فِتنةٌ بينهم ، إنما كانوا مُؤتلفين ، فخالفت هـٰذه الفِرقةُ فَخَرَجَت فِرارًا من الموت ، وابتغاءَ الحياةِ بزعْمِهم فأماتهم اللهُ في مَنْجَاهُمْ بِزَعْمِهم . فألوفٌ على هـٰذا جَمْعُ آلِف وليس جَمْعَ أَلْف وذٰلك مِثْلُ جالسٍ وَجُلوس وقاعِدٍ وَقُعُود .

وكما جاء الخلافُ في عددهم ، جاء – أيضا – في سبب خروجِهم فَحكىٰ النقَّاشُ أنهم فَرُّوا من الحُمَّىٰ ، وجاء عن ابن عباسٍ أنهم خرجُوا فِرارًا من الطاعُون ، وقيل : إنهم فرُّوا من الجهاد لمَّا أمرهم اللهُ به على لسان حِزْقيلَ النبيِّ عليه السلامُ فخافوا الموتَ بالقتْل في الجهاد فخرجُوا من ديارهم فِرارا من ذٰلك ، فأماتهم اللهُ لِيُعَرِّفَهم أنَّه لا يُنجِيهم من الموت شيءٌ ، ثم أحياهم ، وأمرهم بالجهاد بقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] .

قال ابنُ عطيَّةَ : وهـٰذا القَصصُ كلُّه لَيِّنُ الأسانيدِ وإنما اللازمُ من الآية الكريمةِ أن اللهَ تعالىٰ أخبر نبيَّه محمدًا ﷺ إخبارًا في عبارة التنبيه ، والتوقيف عن قوم من البشر خرجُوا من ديارهم وهم أُلوفٌ فِرارا من الموت فأماتهم اللهُ تعالى ثم أحيَاهم ليَرَوْا وَكُلُّ مَنْ خَلَفَ مِن بعدهم أن الإماتةَ إنَّما هي بيدِ اللهِ تعالىٰ لا بيد غيرِه ، فلا معنىٰ لخوفِ خائفٍ ولا لاغترار مُغْتَرٍّ ، وجعل اللهُ عزَّ وجلَّ هـٰذه الآيةَ مُقَدِّمةً بَيْن يَدَيْ أَمْرِ المؤمنين من أُمَّة محمدٍ ﷺ بالجهادِ ، هـٰذا قولُ الطبَريِّ وهو ظاهِرُ وَصْفِ الآيةِ .

وَأَشْهَرُ الرواياتِ وأصحُّها عند القُرطبيِّ أنهم خَرجوا فِرارا من الوباء كما جاء عن

---

(١) البقرة : ٢٤٤ .

ابنِ عباسٍ قال : خرجُوا فِرارا من الطاعون فماتوا فَدَعَا اللهَ نبيٌّ مِنَ الأنبياء أن يُحْيِيَهُم حتَّى يَعبدوه ، فأحياهم اللهُ . وقال الحسن : خرجُوا حِذارًا من الطاعون فأماتهم اللهُ ودوابَّهم في ساعةٍ واحدة . وقد أحياهم اللهُ ليعتبروا ويعتبرَ غيرُهم ويعلموا أنَّه لا مفرَّ من حُكم اللهِ وقضائِه . قال ابنُ كثير : وفي هٰذه القصةِ عِبرةٌ ودليلٌ على أنه لن يُغْنِيَ حذَرٌ من قَدَرٍ وأنَّه لا ملجأَ من اللهِ إلا إليه ، فإن هٰؤلاء فرُّوا من الوباء طلبًا لطُول الحياة ، فَعُوملوا بنقيض قصْدِهم ، وجاءهم الموتُ سَريعًا في آن واحدٍ .

لقد مات هٰؤلاء القومُ مِيتةَ رجُلٍ واحدٍ بأمر اللهِ سبحانه ومشيئتِه ، وتلك مِيتةٌ خارجةٌ عن العادة كأنَّهم أُمِروا بشَيءٍ فامتثلُوه امتثالًا من غير إباءٍ ولا توقُّف كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] ، ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ .

وهٰذا تشجيعٌ للمسلمين على الجهاد والتعرُّضِ للشَّهادة وأنَّ الموتَ إذا لم يَكُنْ مِّنه بُدٌّ ، ولم ينفعْ منه مَفَرٌّ فأولىٰ أن يكونَ في سبيلِ الله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي فيما يَضرِب لهم من الأمثَال ، وفيما يُرِيهم من الآيات الباهرةِ ، والحُججِ القاطعةِ والدلالاتِ الدامغةِ على وقوع البعثِ والحياةِ بَعْد الموتِ يومَ القيامة ، وعلى أنَّه لا يُغني حذَرٌ من قَدَر ، وأن الفلاحَ والفوزَ في طاعة اللهِ عزَّ وجل وامتثالِ أوامره .

وكما أن الحذَر لا يُغني من القَدَر كذٰلك الفِرارُ من الجهاد وتَجَنُّبُه لا يُقرِّب أجلًا ، ولا يُباعِدُه بل الأجلُ المحتوم ، والرزقُ المقْسُومُ مُقَدَّرٌ مقنَّنٌ لا يُزاد فيه ولا

---

(١) يس : ٨٢ .

يُنْقَصُ منه . لذا أَمَرَ اللهُ عز وجل بالقتال في سبيل الله بعد أن ساق هذه القصةَ فقال سبحانه : ﴿ **وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1] .

وهذا خطابٌ لأمة محمدٍ ﷺ بالقتال في سبيل اللهِ في قول الجُمهور ، وهو الذي يُنْوَىٰ به أن تكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا ، قال النحاس : ﴿ **وقاتِلُوا** ﴾ أَمْرٌ من الله تعالى للمؤمنين أَلَّا تَهْرُبوا كما هَرَبَ هـٰؤلاء ﴿ **وٱعلمُوٓا۟ أنَّ ٱللهَ سميعٌ عليمٌ** ﴾ أي يسمعُ قولَكُم إن قُلتم مِثْلَ ما قال هـٰؤلاء ، ويعلمُ مُرادَكُم به .

لَمَّا أمر اللهُ تعالىٰ بالجهاد والقتال في سبيل اللهِ حَرَّض علىٰ النفقةِ في سبيله سبحانه وتعالىٰ فقال : ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[2] .

القرضُ : اسمٌ لكل ما يُلْتَمَسُ عليه الجزاءُ ، واستقرضْتُ من فلان أي طلبتُ منه القَرْضَ فأقرضَني ، وقال الزجَّاجُ : القَرْضُ في اللغة البلاءُ الحَسَنُ والبَلاءُ السَّيِّئُ ، وقال الكسائيُّ : القَرْضُ ما أسلفتَ من عمَلٍ صالح أو سَيِّئٍ ، وأصلُ الكلمة القطْعُ ومنه المِقْرَاضُ وأقرضتُه أي قطعتُ له من مالي قطعةً يُجازِي عليها . وإقراضُ اللهِ مَثَلٌ لتقديم العمَلِ الذي يُطلَبُ به ثوابُه والقرضُ الحسَنُ إمَّا المُجَاهَدةُ في نفسها ، وإمَّا النفقةُ في سبيل اللهِ يقول القرطبيُّ : واستدعاءُ القَرْضِ في هـٰذه الآية إنَّما هو تأنيسٌ وتقريبٌ للناس بما يَفْهمونه واللهُ هُو الغنيُّ الحميدُ ، لكنَّه تعالىٰ شَبَّهَ عطاءَ المؤمنِ في الدنيا بما يرجُو به ثوابَه في الآخرة بالقَرْض ، كما شَبَّه إعطاءَ النفوسِ والأموالِ في أَخْذِ الجنَّةِ بالبيع والشِّراءِ ، والمرادُ بالآية الحثُّ على إنفاق المالِ في سبيل الله بنُصرة الدِّينِ وبذلِ المُهَجِ لإعلاء كلمةِ اللهِ ، وسيُجازِي اللهُ كُلَّ عَبْدٍ بعَمَلِه وَيُضَاعِفُ لأهل الإخلاصِ الثوابَ أضعافًا كثيرةً لا يعلمُ كُنهَها إلا اللهُ .

---

(١) البقرة : ٢٤٤ .

(٢) البقرة : ٢٤٥ .

٢١ - ألسنتهم أحلى من العسل . أمّا القلوب فأمرّ من الصَّبِر .

اللهُ عزَّ وجلَّ ينظرُ إلى قلوب الناسِ وأعمالِهم ، ولا ينظرُ إلى الصور والأقوالِ ، فَرُبَّ مَرْضِيِّ الصِّفَاتِ في الظاهر يُعْجِبُ الناسَ قولُه وَمَظْهَرُه ، ولكنَّه بعيدٌ من الله لصدور محامِده عن رغبةٍ في الدنيا ، ولإظهارِه غيرَ ما يُبطِنُ ، يُعطِيك من طَرَفِ اللسَان حلاوةً ، وقلبُه يتوقَّدُ بالحِقْدِ والغِلِّ والسُّوء والشرِّ .

أمَّا أحبابُ اللهِ عزَّ وجلَّ فهم المخلِصُون في أعمالهم الذين يَبتغون مرضاةَ الله ، ولا يُريدون إلا وجْهَه ، وظاهرُهم وباطنُهم سواءٌ ، يراقبون اللهَ في أقوالهم وأفعالِهم ، ويَرجُون رحمتَه ويَخْشَون عذابَه ، يتقُون اللهَ في جميع شئونِهم لعلمهم أنهم سيُبعثون بعد الموت ، وليقينهم بالحساب فالجزاءِ على الأعمال ، ولإيمانهم بأن العاقبةَ لِمَنِ اتَّقَىٰ ، لقوله تعالىٰ : ﴿ **تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** ﴾[1] .

وَمَنْ أيْقَنَ بأنَّه مُحاسب علىٰ أعمالِه مُجازَىً عليها ، كان ذٰلك باعثًا له على العمل ، وداعيًا إلى ملازمَة التَّقوى في السرِّ والعلَن . أمَّا أهلُ الشكِّ والنفاقِ فهم مُذَبْذَبون متحيِّرون متخبِّطُون ، وقد عَرَض القرآنُ الكريمُ نماذِجَ لهٰؤلاء ليحترزَ

---

(١) مريم : ٦٣ .

أهلُ الصدقِ والإيمانِ من مِثْلِ خِصَالِهم ، وليناأَوْا بأنفسِهم عن مسالكِهم ، ولْيَلْزَمُوا طَرِيقَ أهلِ الصَّلاحِ والتَّقْوىٰ .

وها هو ذا نَموذجٌ بَشَرِيٌّ تعرِضُه علينا سورةُ البقرة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[1] .

يُعجبك قولُه : أي يروقُك فَتَسْتَحْسِنُه ويَعْظُمُ صاحبُه في نفسك .

وَيُشْهِد الله : تقول العربُ : اللهُ يَشْهَدُ ، واللهُ يَعْلَمُ أَنِّي أُريد كذا ، تَقْصِدُ بذٰلك الحَلِفَ واليـمينَ .

واللَّدَدُ : المرادُ به شِدَّةُ الخصومةِ ، والأَلَدُّ في اللغة الأَعْوَج .

والخِصَامُ : الجِدَالُ ، وتَوَلَّىٰ : أي أَدْبَرَ وانصرَفَ عن المجْلِس أو صار وَاليًا .

﴿ وسعَىٰ في ٱلأرضِ ليُفسِدَ فِيها ﴾ السعْيُ هَاهُنَا هو : القصْدُ كما في قوله تعالىٰ ﴿ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي عند سماعِ النداءِ لصلاة الجمعةِ أي اقصِدُوا واعمَدُوا نَاوِين بذٰلك صلاةَ الجمعة ، إذ السعْيُ الحِسِّيُّ وهو السرعةُ في المشْي إلى الصَّلاة مَنْهِيٌّ عنْه .

﴿ وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ أي ليس هَمُّـه إلا الإفسادَ في الأرض وإهلاكَ الحرثِ وهو مَحَلُّ نَماءِ الزروعِ ، والمقصودُ الزروعُ والثِّمار ، والنَّسْل :

---

(١) البقرة : ٢٠٤ : ٢٠٦ .

وهو نِتَاجُ الحيوان : وإن الزروعَ والحيواناتِ لا قِوامَ للنَّاس إلا بِهِمَا .

﴿ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ مِن قولك أَخَذْتُه بكذا أي حَمَلْتُه عَلَيْه وَأَلْزَمْتُه إيَّاه ، أي حَمَلَتْهُ العِزَّةُ التي فيه وحَمِيَّةُ الجاهليةِ على الإثم الذي يُنْهَىٰ عنه ، وأَلْزَمَتْه ارتكَابَهُ ، أو حَمَلَتْهُ العِزَّةُ والكبرياءُ علىٰ ردِّ قوْلِ الواعظِ وَعَدمِ قبولِ نُصْحِ الداعي الناصح . و ﴿ فَحَسْبُهُ ﴾ أي كافِيه و ﴿ ٱلْمِهَادُ ﴾ الفِراشُ يَأْوِي إليه المرءُ للرَّاحة .

هذه الآيةُ الكريمةُ تُقَدِّمُ صورةً من الواقع لنماذجَ بشريةٍ هُم أضرُّ على الجماعة من أعدائها المُجاهِرين بِعَدَاوَتِها ، المناوِئينَ لهَا في العلانية الذين يَكشِفُون عَمَّا فِي نفوسِهم ، فَتُؤْخَذُ الحَيْطَةُ ، وَتُعَدُّ لهم العُدَّةُ ، وَيُوقَفُ لهم بالمِرْصاد .

أَمَّا الذين تتحدثُ عنهم الآيةُ فهم كالحيَّة لَيِّنٌ مَلْمَسُها قاتِلٌ سُمُّها يعتمدُ الواحدُ منهم على خِلابةِ اللسان ، وَطلاوةِ[1] الكلام ، في غِشِّ المُعاشرين والأقران ، يُوهِمُ أنه صادقُ الإيمانِ نصيرٌ للحقِّ ، خاذلٌ للباطل ، مُتَّقٍ لله في السرِّ والعلانية ، مُجتنِبٌ للفواحش ما ظَهَر منها وما بَطَن ، وهو منافقٌ ماكر ، يُظهِر غيرَ ما يُبْطِن ، ويقولُ ما لا يفعلُ ، ابتسامتُه خادِعة ، وألفاظُه معسولةٌ ، يُعجِبُك قولُه وأنت في هذه الحياةِ الدُّنيا ، ويَعْظُمُ في قلبك لأنَّك لا تعلَمُ إلا الظاهرَ ، وَتُؤخَذُ بِما تراهُ عينُك ، وتسمُعه أذناك ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

ومن الأمثال العربية : « كَلَامٌ كالعَسَل وَفِعْلٌ كَالأَسَل »[2] وهٰذا المَثَلُ يُضْرَبُ فى اختلاف القولِ والفعلِ ، فالكلامُ حُلْوٌ ، والفِعلُ كَضَرْبٍ بِسِنٍّ أو قَطْعٍ بحدِّ السيف ، وهٰذا شأن المنافقين الذين نزلت فيهم الآيةُ الكريمةُ تُقَبِّحُ

---

(١) الطُّلَاوة : بضمّ الطاء وفتحها معناها الحُسْن ، يقالُ عليه طُلَاوة أو ما عليه طُلَاوة .

(٢) الأسل : الشوكُ الطويل من شوك الشجرْ ، وتسمَّى الرماح أسَلًا .

أعمالَهم ، وَتَكْشِفُ مساوِئَهم ، تنبيهًا لأهل الإيمان ، وتعليمًا لذوي العقولِ والألباب ، وإرشادًا لمَنْ كان لهُ قلبٌ يَعِي ، ونفسٌ تسعَىٰ لخيْـرَيْ الدُّنيـا والآخِرة .

إنَّ هـٰذا المنافقَ يَسْعَىٰ إلى كسْبِ ثقةِ الناسِ بكل سبيلٍ ليَصِلَ إلى مآربه ، فالغايةُ عندهُ تُبَرِّرُ الوسيلةَ ، فهو لا يتورَّعُ عن الحَلِف باللهِ يتخذُه وسيلةً يَغُرُّ بها الناس ، ويؤكِّدُ لهم إخلاصَه وإيمانَه ، وأن ظاهرَه وباطنَه سواء ﴿ **وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ** ﴾ أي يَحلِفُ ويَدَّعِي ، وفي قراءةٍ « وَيَشْهَدُ اللهُ علىٰ ما في قلبه » بإسناد الفِعْلِ إلى لفظِ الجلالة ، أي إنَّ هـٰذا وإنْ أَظْهَرَ لكم الحِيَل ، لٰكِنَّ اللهَ يعلمُ مِن قلبه القبيحَ ، وفي سورةِ النِّساء : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾[1] . فهـٰؤلاءِ ومَن كان على شاكلتِهم يَستترون من الناس حياءً منهم وخوفًا من ضَرَرِهم أو مِنَ العُقوبة ، ولا يَسْتَحْيُون من علَّام الغُيوب وَهُو سبحانه عالمٌ بهم ، مُطَّلِعٌ عليهم لا يَخْفَىٰ عليه سبحانه خافٍ من سِرِّهم ، وفي هـٰذا نذيرٌ لكل الناس ، وتنبيهٌ ، إذ الجميعُ مكشوفٌ أمرُه ونواياه ومقاصدُه لعالِمِ السرِّ والنجْوىٰ سبحانه وتعالىٰ .

ومن صفات هـٰذا المنافِق أنه قَوِيٌّ في الجدَل ، لا يُعجِزُه أن يَغُشَّ الناسَ بما يُظهِر من الميْل إليهم ، والسعْي في إصلاح شئونِهم ، وهو في حقيقة نواياه هَدَّامٌ مخرِّبٌ ، فاسدُ العقيدة ، سيِّئُ النَّوايـا : ﴿ **وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ** ﴾ وفي الحديث : « أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الأَلَدُّ الخَصِم »

رواهُ عائشةُ وأخرجه البخارى .

---

(١) الآية : ١٠٨ .

وأمثالُ هـٰؤلاء موجودون في كل عَصْر وإن اختلفت أحوالُهم باختلاف العصور ، وكم من مُخادعٍ مُزخْرِفٍ للقول ، يُزوِّرُ الكلامَ ، ويَهْدِمُ بِقَلَمِه أو بلسانِه أو بريشته القِيَمَ الفاضلةَ ، والفضائلَ الثابتةَ سَعْيا لتحقيق أغراضٍ ذاتية ، أو خدمةً للملحدين والمشرِكين وأهلِ الضلالِ والبِدَع .

ومن هـٰؤلاء صِنْفٌ يَحتالُ على الدُّنيا بالدين ، ألسنتُهم حُلوة ، وقلوبُهم أشدُّ مرارةً من الصبر ، وقد جاءت صفتُهم في الكتب القديمة ، ومن ذٰلك ما رواه الترمذي عن أبي الدَّرداء من حديثٍ جاء فيه : « أنزل اللهُ في بعض الكتبِ أو أوْحى إلى بعض الأنبياء : قُل للذِين يَتفقَّهُون في الدِّين لغيرِ الدِّين ، ويتعلَّمُون لغير العَمَل ، ويطلبُون الدُّنيا بِعَمَلِ الآخرة ، يَلْبَسُون للنَّاس مُسُوكَ الكِبَاش ، وقلوبُهم كقلوب الذِّئابِ ، ألسنتُهم أحْلَىٰ من العسَل ، وقلوبُهم أمَرُّ من الصبر : إيَّايَ يُخادعون ، وَبِي يَستهزئون ، لأُتيحَنَّ لهُم فتنةً تَذَرُ الحَلِيمَ فِيهم حَيْرانَ » .

قال بعض السَلَف تدبرتُ هـٰذا في القرآن ، فإذا هُم المنافِقُون فوجدتُها : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا .. ﴾ الآية .

وَمُسُوكُ الكِبَاشِ : مُفْرَدُه المَسْكُ – بفتح الميم – وهو الجِلْدُ، والقطعةُ منه : مَسْكَةٌ . وفي هـٰذا الحديثِ تمثيلٌ لظواهر أهلِ النفاقِ وما فيها من لينٍ ورفقٍ كأنهم حَمَلٌ وَديعٌ لا ظُفْرَ ولا نَاب ، وتمثيلٌ لقلوبهم أي حقيقتِهم بقلوب الذئابِ لما فيها من الغِلْظَة والقسْوةِ والسوءِ وعدمِ الرحمة ، أمَّا ما يَجْري على ألسنتهم من كلامٍ طيِّبٍ وَتَوَدُّدٍ للناس وإظهارِ الشفقةِ على الجماعة والتعاطِف معها ونحو ذٰلك ، فقد جاء تمثيلُه بالعَسَل بَل بما هو أحلىٰ منه ، لأن المُنافقَ يُتْقِنُ الصَّنعةَ ، أمَّا حقيقةُ قلوبِهم وما فيها من نوايا خبيثةٍ فقد جاء تمثيلُها بالصبر الذي هو

نقيضُ العَسَل في المَذاق بل بما هو أمرُّ من الصَّبر ، إذ نوايا المنافقين والمُلحدين بلغت الغايةَ في الخُبث والسوء . وفيهم جاء من سورة آلِ عمران : ﴿ **وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾[1] .

إنَّ مِثْلَ هـٰؤلاء إذا أعرضوا عن مُخاطِبيهم وذَهَبُوا لشأنهم فإنَّ سَعْيَهُمْ يكونُ على ضِدِّ ما قالُوا ، فهم يدَّعُون الصلاحَ والإصْلاحَ ثم يَسْعَوْنَ في الأرض بالفسادِ ، إذ لا هَمَّ لهم إلَّا الحظوظُ الدنيويةُ التي من أجلها يُعادون الحقَّ وأهلَه ، فَهُم شَرُّ مَا تُبْتَلَىٰ به أمةُ الإسْلام :

ولنتدبر : ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ، وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ** ﴾ .

* * *

(١) آل عمران : ١١٩ و ١٢٠ .

من سورة النور

٢٢ - أ - «الله نور السموات والأرض»

قال اللهُ تعالىٰ من سورةِ النُّور :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣٥) .

قال ابنُ كثير : هٰذا مَثَلُ المؤمنِ وَمَا جَعَلَ اللهُ في قَلْبه من الهُدىٰ والنور ، ضُرِبَ له مثَلٌ بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكبٌ دريٌّ ، وهي قلبُ المؤمنِ المفطورُ على الإيمان واستمدادُه من الشريعة الخالصةِ الصافيةِ الواصلةِ إليه من غيرِ كَدَرٍ ولا تَخليطٍ .

وَرُوِيَ أنَّ ابنَ عباس قال : هٰذا مَثَلُ نورِ اللهِ وَهُداه في قلب المؤمنِ كما يكاد الزيتُ الصافي يُضيء قبلَ أن تمسَّهُ النار ، فإن مَسَّته النارُ زاد ضوءه ، كذلك قلبُ المؤمنِ يكاد يعملُ بالهُدىٰ قبل أن يأتِيَهُ العِلم ، فإذا جاءه العلمُ زاده هُدًى على هُدًى ونُورًا على نُور ، كقول إبراهيمَ من قبلِ أن تَجيئَه المعرفةُ : ﴿ **هَٰذَا رَبِّى** ﴾ من قبلِ أن يُخبِرَهُ أحدٌ أنَّ له ربًّا ، فلمَّا أخبره اللهُ أنه رَبُّه زاد هُدى ، فقال

له رَبُّه : ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] ..

ومعني النُّور في كلام العرب : الأضواءُ المُدركَةُ بالبصَر ، واسْتُعمِل مَجَازًا فيما صَحَّ من المعاني ولاَحَ ، فيقال : كلامٌ له نورٌ ، ومنه : الكتابُ المنيرُ . والمِشْكاةُ : الكُوَّة في الحائطِ غَيْرُ النافذةِ ، وهي أَجْمَعُ للضَّوء ، والمصباحُ فيها يكونُ أكثرَ إنارةً منه في غيرها ، والمشكاةُ مِفْعَلَةٌ كالمِصْفَاةِ وأصلُها الوعاءُ يُجعلُ فيه الشيءُ ، وقيل : المشكاةُ هي عمودُ القِنديلِ الذي فيه الفتيلةُ ، وقال مجاهد : هي القِنديلُ ، وقال : ﴿ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ لأنه جِسمٌ شَفَّاف ، والمصباحُ فيه أَنْورُ منه في غيرِ الزجاج ، والمصباحُ : هو الفتيل بِنَاره .

﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أي في الإنارة والضوءِ . قال الضحَّاك : الكوكبُ الدُرِّيُّ هو الزُّهْرةُ .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أي من زيتِ شجرةٍ ، فَحُذِف المضافُ والمباركةُ : المُنَمَّاةُ ، والزيتون من أعظم الثمارِ نماءً .

﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ .. قال ابنُ عباس وغيرُه : الشرقيةُ التي تُصيبها الشمسُ إذا شَرَقَت ولا تُصيبُها إذا غَربت لأن لها سِترا ، والغربيَّةُ عكسُها ، ومعنى هٰذا : أنها شجرةٌ في صحراءَ وَمُنْكَشَفٍ من الأرض ، لا يُواريها عن الشمس شيءٌ وهو أجودُ لزيتها ، فليست خالصةً للشرق فَتُسمَّى شرقيةً ، ولا للغرب فَتُسمَّى غربيةً ، بل هي شرقيةٌ غربيةٌ أي إنَّها شجرةٌ في صحراءَ تطلعُ عليها الشمسُ في أول النهارِ وتغربُ عليها في آخره فَيُصيبها حرُّ الشمسِ بالغَداة والعَشِيِّ ، قالوا : « وإذا كانت كَذٰلِكَ كان أجودَ لزيْتها » .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ مبالغةٌ في حُسن الزيت وصفائِه وجودتِه .

---

(١) البقرة : ١٣١ .

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ أي اجتمع في المِشْكاة ضوءُ المِصْباح إلى ضوءِ الزجاجةِ وإلى ضوءِ الزيتِ فصار لذٰلك نورٌ على نور ، واعْتُقِلَتْ هذه الأنوارُ في المِشكاة فصارت كأنْوَرِ ما يكونُ ، فكذٰلك براهينُ اللهِ تعالىٰ واضحةٌ ، وهي برهانٌ بعدَ بُرهان ، وتنبيهٌ بعد تَنبيه ، كإرساله سبحانه الرسلَ ، وإنزالِهِ الكتبَ ، ومواعظُ تتكرَّرُ فيها لمَن لهُ عقلٌ مُعْتَبَرٌ[1] .

ثم ذَكَر تعالىٰ هُداه لنُوره مَنْ شَاءَ وَأَسْعَدَ مِن عِبَاده ، وذَكَر تفضُّلَه سبحانه للعبادِ في ضَرْبِ الأمثالِ لتقعَ لهم العبرةُ والنظرُ المؤدِّي إلى الإيمان .

﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يُرشِدُ اللهُ إلى هِدَايتِه مَن يختارُه .

﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي يُبين سبحانه الأشباهَ تقريبًا إلى الأفهامِ ، وهو سبحانه أعلمُ بِمَن يَسْتَحِقُّ الهدايةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الإضلالَ .

لقد وَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ نفسَهُ بأنه نورُ السمٰواتِ والأرضِ ، وجاء عن ابنِ عباسٍ في معناه : أنه سبحانه وتعالى هَادِي أهلِ السمٰواتِ والأرضِ ، وذٰلك بِما أعطَاهُم من نورٍ يُدرِكُون بِه المَعَارِفَ ، وبما أنزل عليهم من آيات مُبيِّنات هى نورٌ ، وقد وصَف اللهُ عز وجل القرآنَ بأنه نورٌ ، فقال تعالىٰ في سورة النساءِ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[2] أي القرآنَ العظيم .

وقال تعالىٰ من سورة الشُّورىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[3] .

---

(١) عقل مُعْتَبَرٌ : بفتح الباء – اسم مفعول – من اعتبر أي مُعْتَدٌّ به .

(٢) الآية : ١٧٤ .

(٣) الشورىٰ : ٥٢ .

وَمِمَّا يُقَوِّي هَـٰذا التفسيرَ مَعْنىٰ الآية التي سَبَقَتْ قَوْلَه تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ يقول الله : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، أي أنزل اللهُ عزَّ وجلَّ القرآنَ الكريمَ فيه آياتٌ واضحاتٌ مُفَسَّراتٌ ، وفيه خَبَرٌ عن الأمم الماضيةِ ، وما حَلَّ بهم في مخالفتهم أوامرَ اللهِ تعالىٰ ، وفيه موعظةٌ وزاجرٌ عن ارتكاب المآثمِ والمحارمِ لمن اتَّقَىٰ اللهَ وخافَهُ .

فاللهُ عزَّ وجلَّ أَنْزلَ هـٰذه الآياتِ من أجلِ هدايتِنا ، فهو سبحانه الهادي إذْ هو نورُ السمـٰواتِ والأرضِ أي هادِي مَنْ فيهما ، وَمِنْ هِدايته سبحانه لعباده أَنْ أَنْزل لهم آياتٍ مُبيِّنات هي نورٌ لهم . لعقولهم وقلوبِهم .

وجاء عن أنسِ بنِ مالكٍ قال : إن إلٰهِي يقول : نُورِي هُدَايَ .

وفي تفسير المثَلِ – أيضا – قال بعضُ أهل العِلم :

لقد ضَرَب اللهُ المثَلَ لنورِ القرآنِ المعنويِّ بمصباحٍ أرضِيٍّ مِن صُنْع الناسِ ذي نورٍ صافٍ من أيَّةِ شَائبةٍ ، وهـٰذا النورُ يتلألأُ كالكوكب الدُّرِّيِّ ، والقرآنُ العظيمُ بالنسبة إلى سائر كلامِ اللهِ كَقَطْرَةٍ من بَحْر ، وكذٰلك نورُ المِصْباح بالنسبة إلى سائر ما خَلَقَ اللهُ من نُورٍ في الكَوْن الكبير .

فَتَأَمَّلْ المثَلَ القرآنيَّ وما فيه من بيانٍ وإعجاز ، وتأَمَّلْ صِدْقَ المماثلةِ بين المثَلِ والمُمَثَّلِ لَهُ . تأَمَّلْ الصَّفاءَ التامَّ الذي وَصَفَ اللهُ به نورَ المِصْباح والزيتَ الذي يُمِدُّه ، والزجاجةَ التي تَنْشرُه حتى كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ أي يُشبه الدرَّ في صفائه ولونِ نورِه ، وإنَّ أهدَأَ النورِ وأجمَلَهُ هوَ ذُو اللَّوْنِ الدُّرِّيِّ .

---

(١) النور : ٣٤ .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. ﴾ .

تأمَّلْ هٰذه اللوحةَ الجميلةَ الرائعةَ : انْظُر إلى مكانِ المصباحِ وقد تَجَمَّعَ فيه النورُ الصَّافي الهادِئ ، ثم انظُر زجاجتَه الدريَّةَ المُشِعَّةَ ، ثم تَأمَّلْ مَشْهدَ هٰذه الشجرةِ المباركةِ نابتَةً في أرضٍ واسعةٍ لا تحجُبُ عنْها الشمسَ عِنْد الشروق ، ولا تحجبُ عنها الشمسَ عند الغُروب ، فهي لا شرقيةٌ ولا غربيةٌ أي لا تُحْجَبُ من الشرق بجبال ونحوِها ، ولا تُحجَبُ من الغرب بجبالٍ ونحوِها ، وهي لذٰلك خَضِرةٌ نَضِرةٌ صافيةُ الزيت ، وفي إطار هذه الصورةِ التمثيليةِ الرائعةِ نَرىٰ الزيتَ لشدة صفائِه ونقائِه من الشوائب يُعطِي نُورًا صافيًا خاليًا من كلِّ كَدَر .

تَأمَّلْ هذه الشجرةَ المباركةَ ، وفكِّرْ فِي مَعَانِي التُّقَىٰ والرِّضْوانِ ، والهُدَى والإيمان ، تأمَّل شجرةً أصلُها نُبُوَّةٌ ، وفرعُها مُروءةٌ ، وأغصانُها تَنزيلٌ ، وَوَرَقُها تأويلٌ ، وَخَدَمُها جِبريلُ وميكائيلُ ، إنَّها شَجَرةٌ مباركَةٌ حَقًّا ، مَنْ أَوَىٰ إلى ظِلِّها وأسْعَدَهُ رَبُّه بالانتساب إليها كانَ مِن الفائزين .

إنَّنا في ظلال هٰذه الآيةِ نَعِيشُ في نورٍ على نور ، نورٍ نلمسُه بِعُيوننا حيثُ يَنْعَكِسُ صفاءُ الزيت ، وصفاءُ نُورِ المصباح وصفاءُ الزجاجةِ الدرِّيَّةِ المشِعَّةِ التي تَزيدُ النورَ وتُضَاعِفُه بانعكاساتها . وهٰذا النورُ مُتجمِّعٌ في الكوَّة التي فيها المصباحُ . تأمَّل هٰذا . وَفكِّرْ في قلب المؤمنِ الموحِّد ، وتأمَّل نورَ إيمانِه ونورَ عملِه فهو بفضل القرآنِ وبفضل اتباعِ النبيِّ محمدٍ ﷺ ، يعيشُ في نورٍ مَّا دام مُقتدِيًا ومُلزِمًا نفسَه بهداية الإسلامِ : فكلامُه إذن نُور ، وعملُه نور ، ومَدْخَلُه

نور ، وَمَخْرجُه نُور ، ومصيرُه يومَ القيامةِ إلى النُّور . إلى جَنَّة الخُلدِ ونِعْم المصيرُ .

قال السدِّىُّ : نورُ النارِ ونورُ الزيْتِ حين اجتمعَا أَضَاءَا ، ولا يُضِيءُ واحدٌ بغيرِ صاحبِه ، كذٰلك نورُ القرآن ، ونورُ الإيمان حين اجتمعَا ، فلا يكون واحدٌ منهما إلا بصاحبِه .

تأمَّل الصورةَ التمثيليةَ ومافيها من دقَّة التصويرِ ، ووضوحِ الملامح ، وَعِشْ مع النورِ والصفاءِ والهدايةِ والإيمان والنقاءِ : فما أنزل اللهُ من هدايةٍ قد جاء من مصدرٍ كامل ، وجاء مَددُه كامِلا ، وَبُعِث به نبىٌّ قد زَيَّنه اللهُ عزَّ وجلَّ بالكمال البشرىِّ ، وجعَل صدْرَهُ مستودَعًا لنور الوحْي ، وَوَصَلَ هٰذا النورُ لأهل الأفهامِ المستقيمةِ صافِيًا ، فاستقرَّ في القلوب اللينةِ المؤمنةِ يَهديها وَيُنِير لها السبيل ..

* * *

٢٣ - ب - « قلوبُ العبـاد وقلبُ المؤمن فيـه سـراج »

اللهُمَّ لك الحمدُ أنت نورُ السمـٰواتِ والأرضِ وَمَن فِيهِنَّ .

سبحانك . بقُدرتك أنارت أضواؤُهـا ، واستقـامت أمورُهـا ، وقـامت مصنوعاتُها .

سبحانك . أبدعْتَ الموجوداتِ ، وخلقْتَ العقلَ نورًا هاديًا ، وأنعمْتَ علينا بنعمةِ الوحْي يرشدُ العقلَ ، ويُسدِّدُه ، ويَقودُه في سُبلِ الخيرِ والصلاح ، ويُجَنِّبه المزالقَ والمهَالِكَ .

سبحان مُدبِّرِ الأمورِ في السمـٰوات والأرضِ .

سبحان مُزيِّنِ السمـٰـواتِ بالشمسِ والقمـرِ والنجـومِ ، وَمُزَيِّـنِ الأرضِ بالأنبياء والعُلماءِ والمُؤمنين .

ضرَبْتَ لنا يا ربَّنا مثَلًا لنُور هُداك في قلوب أوليائِك بالنورِ الصافي غاية الصفاءِ الصادرِ من مِصباح ، وهـٰذا المصباحُ في زُجاجةٍ هي غايةٌ في النَّقاء كأنَّها كَوْكبٌ دُرِّيٌّ في صفائه ولونِ نورِه ، وَيُمَدُّ هـٰذا المصباحُ بزيتٍ نقيٍّ صافٍ من شجَرةٍ مُبَاركةٍ لا يُواريها عن الشمس شيءٌ أولَ النهارِ وآخرَه يكادُ زيتُها لِحُسْنه ، وجَوْدَتِه وشدَّةِ صفائِه يُضِيءُ ولوْ لم تَمْسَسْه نار ، وقد وُضِعَ هـٰذا المصباحُ في المَكان الأنسبِ لوَضْعِ المصابيح .

إنَّ المؤمنَ الموحِّدَ يمشي في النَّاسِ بنور الإيمانِ ونورِ العلمِ والهُدىٰ كالرجل

الـحيِّ يَمشي في قبورِ الأموات ، وكما يَستَمد المصباحُ حياتَه وقوةَ نُوره وصفاءَهُ من الزيْت المباركِ ، فكذٰلك قلبُ المؤمنِ يزدادُ إيمانُه ، ويَقْـوَىٰ يقينُـه ، بكثرة الآياتِ والحُجج ، وبالنظر والتفكُّرِ في الأدلة والبراهينِ ، وبما أَوْدَع اللهُ في هـٰذا القلبِ من الحكمة ، وَيَزِيدُ قلبُ المؤمنِ نُورًا بالإقبال على أداء الفـرائضِ ، والمبادرةِ إلى الخيرات ، والمنافسةِ في المبرات .

ولقد مَثَّلَ الرسولُ ﷺ قلبَ المؤمنِ النقيَّ التقيَّ الذي لا غِشَّ فيه ولا غِلَّ ولا حسدَ بالمصباح المُزْهِر يَشِعُّ نورُه ، وقَابَلَ بينه وبين قلوبِ المغضوبِ عليهم والضالِّين ليتحفَّظَ أهلُ الفِطرةِ النقيَّةِ من خِصال هـٰؤلاء ، وما هم عليه من شرٍّ وفساد .

فقد رَوى الإمامُ أحمدُ بإسنادٍ جيِّدٍ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال : « القلوبُ أربعةٌ : قلبٌ أجْردُ فيه مِثْلُ السِّراج يُزْهِرُ ، وقلبٌ أغْلَفُ مربوطٌ على غِلافه ، وقلبٌ منكُوس ، وقلبٌ مُصْفَحٌ :

فأمَّا القلبُ الأجردُ فقلبُ المؤمنِ سِراجُه فيه نورُه .

وأمَّا القلبُ الأغلفُ فقلبُ الكافر .

وأما القلبُ المنكوسُ فقلبُ المنافِقِ – عَرَفَ ثُمَّ أنْكَرَ – .

وأما القلبُ المُصْفَحُ فقلبٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ ، وَمَثَلُ الإيمانِ فيه كمَثَلِ البقْلة يُمِدُّها الماءُ الطيِّبُ ، وَمَثَلُ النِّفاقِ فيه كَمَثَلِ القُرْحَةِ يُمِدُّها القيْحُ والدمُ ، فأيُّ المَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ علىٰ الأخرى غلبتْ عليه » .

معاني الألفاظ :

قَلْبٌ أجردُ : أي ليس فيه غِلٌّ ولا غِشٌّ ، فهو على أصلِ الفطرةِ فنورُ الإيمانِ

فيه يُزهِرُ أي يُضِيء كالسِّراج أي المصباح الزاهرِ ، وجمعُه سُرُجٌ .

وقلبٌ أغلفُ : أي عليه غِشاءٌ عن سَماعِ الحقِّ وقبولِه ، يُقال : غَلِفَ قلبُه أي لم يَعِ الرشدَ ، كأنَّ على قلبه غِلافًا فهو أغلفُ وهي غلفاءُ والجمْعُ غُلْفٌ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ **وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾[1] . والغِلافُ : الغِشَاء يُغَشَّىٰ به الشيءُ كغِلاف القارورةِ والسَّيفِ والكتابِ والقلبِ وجمعُه غُلُفٌ .

وقلبٌ مُصْفَحٌ : أي له وَجْهان ، يَلْقَىٰ أهلَ الكُفر بوجْه ، وأهلَ الإيمان بِوجْه ، وَصَفْحُ كلِّ شيءٍ : وَجْهُه وناحيتُه وجانبُه .

هذه القلوب :

فانظُرْ قلبَ المؤمنِ فيه الهدايةُ ، وفيه العلمُ باللهِ وبما يجبُ له سبحانه وتعالىٰ من التعظيمِ والتقديسِ ، ومن صفات الكمالِ ، ونعوتِ الجلالِ والجمالِ ، وفي هٰذا القلبِ الخوفُ من الله ، والرغبةُ فيما عند اللهِ من الثواب والرحمةِ ، وفيه الرحمةُ بعباد الله ، وحبُّ الخيْرِ لهم ، وفيه التواضعُ والحلمُ . وفيه الفطرةُ النقيَّةُ التي غَذَّاهَا الوحْيُ بالمعرفة والإرشادِ . انظرْ إلى هٰذا القلبِ وما فيه من هٰذه المعاني التي لا تَراها العينُ ولٰكِنْ يُدرِكُها العقلُ ، ضَرَبَ له الرسولُ ﷺ مَثَلا مُحَسَّا تَراهُ العينُ فقال : « فيه مِثْلُ السِّراجِ يُزْهِرُ » فتأمَّل كيف شَبَّهَتِ المعنوياتُ المتصلةُ بالهِدَاية والعلمِ باللهِ والخوفِ منه سبحانه بالسراج يَشِعُّ نُورُه ، وكما جاء في الحديث : « فقلبُ المؤمنِ سراجُه فيه نُورُه» أي قلبُ المؤمنِ مصباحُه يَهْديه بفضل الإيمانِ وهدايةِ القرآنِ والسُّنَّةِ إلى كلِّ خير ، ويَدلُّه على ما ينفعُه في الدنيا والآخرة ، كما يدلُّ المصباحُ المضيءُ وَيَهْدِي السائرَ في ظلام الليلِ فيجتنبُ بذٰلك عثراتِ الطريق .

---

(١) النساء : ١٥٥ .

أمَّا قلبُ الكافرِ الملحدِ المنكرِ وحدانيةَ الله فقلبٌ يُحِيطُ به ضلالُ الكفرِ والنُّكرانِ والجحودِ وكأنَّما لُفَّ في غِلافٍ ماديٍّ يمنَعُ من وصول نورِ الهُدىٰ والإيمانِ لإعراض الكافرِ عن سَماع أدلَّةِ الحقِّ وقبولِها ، ولعَماه عن النظر والتدبُّرِ في آيات اللهِ في السمٰوات وفي الأرض وفي النفس البشريةِ ممَّا يَدلُّ علىٰ وجود الصانعِ ووحدانيته وكمالِ قدرته ، فلمَّا أعرضَ الكفَّارُ عن الدليل ، ولم تَعِ قلوبُهم الرشْدَ ، صار على قلوبهم غِشاءٌ ، وطَبَع اللهُ عليها بسبب كُفرِهم وعنادِهم وتعنُّتِهم ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] فكان الجزاءُ علىٰ اختيارهم الكفْرَ وإصرارِهم عليه أن طَبَع اللهُ على هـٰذه القلوبِ فماتتْ والعِياذُ بالله ، وعاشت مُغَلَّفَةً بالضلال ، ولم ينفعْ أهْلَ الكتابِ منهم إيمانُهم ببعضِ الأنبياءِ مع كفرِهم ببعض ككفرهم بالنبيِّ محمدٍ ﷺ ، إذْ شَرْطُ النجاةِ يومَ القيامةِ الإيمانُ بالنبى محمدٍ ﷺ ، وبجميع الأنبياءِ والمرسَلين ، فَمَنْ كفَر به فهو كافرٌ بالله عزَّ وجل ، ولا ينفعُه إيمانُه بالمسيح أو بموسىٰ عليهما السلامُ : « وأمَّا القلبُ الأغْلَفُ فقلبُ الكافر » .

أمَّا قلبُ المنافق الذي يُظهِر الإيمانَ ويُخفي الكفرَ فمنكوسٌ ، والمنافقون في الدرْك الأسفلِ من النار ، إذْ إنهم عَرفوا الحقَّ وأظهروا لأهل الإسلامِ أنهم منهم ومعهم ، وهم يُضمِرون الشرَّ للمسلمين ، ويُنكرون الحقَّ بعد ما عَرفوه .

والمنكوسُ هو المقلوبُ ، نقول : نُكِسَ الولدُ : أي خرجت رِجلاه قبل رأسِه ، ويقال : نُكِسَ على رأسه : أي رَجَعَ عمَّا عَرفَهُ . فتأمَّل الدِّقَّة والروعةَ في تصوير قلبِ المنافقِ الذي عرَف الحقَّ ثم رجَع عنه ، وأنكرهُ ، فهو كمَن يَمْشِي مُكِبًّا على وَجْهه .

---

(١) النساء : ١٥٥ .

والنِفاقُ ؛ منه اعتقاديٌّ ومنه عمليٌّ ، فصاحبُ القلبِ المنكوسِ هو المنافقُ الخالصُ عَرَفَ ثم أَنْكَرَ ، فهو خبيثُ الباطنِ وإن ظهَر منه الإسلامُ ، وفيهم قال الله تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1] .

وأمَّا النِّفاقُ العمَليُّ فجاءت الإشارةُ إليه في قول الرسولِ ﷺ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيه كان منافِقًا خالصًا ، ومَن كَانتْ فيه واحدةٌ مِنهنَّ كانت فيه خَصْلةٌ من النفَاق حتَّى يَدَعَهَا : مَن إذَا حَدَّث كذَبَ ، وإذا وَعَدَ أَخْلفَ ، وإذا آؤتُمِنَ خَان »واللفظ فى البخارىّ : « آيةُ المنافِقِ ثلاثٌ : إذ حدَّثَ » الحديث .

والقلْبُ المُصْفَحُ هو قلبٌ فيه شُعْبَةٌ من إيمان ، وشعبةٌ من نِفَاق ، وقد ضَرب الرسولُ ﷺ لشُعبةِ الإيمانِ في هٰذا القلبِ مَثَلًا بالبَقْلَة تَحتاجُ إلى الماء الطيِّبِ حتَّى تَنمو وَتُثمرَ ويكونَ لها الغلبةُ ، أمّا النفاقُ فيه فَمَثَلُه كمَثَل القُرْحَةِ يُنَمِّيها القيْحُ والدمُ ، فإذا غَلَب المَاءُ الطيِّبُ حَسُن حالُ المرءِ ، واستقام قلبُه ، وإذا غلب القيْحُ والدَّمُ ساءت حالُه ، وَطُمِسَ على بَصيرته .

وفي هٰذا التشبيهِ بيانٌ لأثَر الأدِلَّة والبراهينِ في تقوية الإيمانِ وأثَرِ العملِ الصالحِ وكثْرةِ الذِّكْرِ والاستغفارِ وتجديدِ التوبةِ ، والفرارِ من المعاصي في طَرْدِ النفاقِ من القلب ، وزيادةِ الإيمان ، وتطهيرِ النفسِ ، وتنميةِ نوازعِ الخير كالماء تُمَدُّ به البقلةُ فتنمو ، وتُعطي الخير .

وفيه أيضا بيانٌ لأثر المعاصِي ، وتَرْكِ الطاعات في عَمَىٰ البصيرة ، وغفلةِ

---

(١) البقرة : ٨ و ٩ .

القلبِ وقسوتِه ، وكأنَّ فيه قُرحةً يُمِدُّها الدمُ والقيْحُ حتَّى يزدادَ مرضُ القلبِ ويموت .

وهٰكذا نَقَلَتْنَا هٰذه الصورُ من عالم المعنويَّات إلى الأمورِ المحسوسةِ المعروفةِ لنا حتى نُقْبِلَ على الخير ، ونُدْبِرَ عن الشرِّ والسوءِ ، وقد لمسنا الآثارَ كأنها ماثلةٌ للعِيان .

* * *

٢٤ - ج - مثل نوره كمشكاة فيها مصباح

بَعْد المَثَل الذي ضربه الله عز وجل لنُوره في الناس : بِمشكاةٍ فيها مصباحٌ ، المصباحُ في زجاجة ، الزجاجةُ كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ يُوقَد من شجرة مُباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتُها يُضيء ولَوْ لمْ تمسَسْه نار .

بعد هذا المَثَل رسمت الآياتُ المباركاتُ البيوتَ التي تُوضع فيها هٰذه المصابيحُ ، ورسمت مَنْ في هٰذه البيوتِ من أهل التوحيدِ والإخلاصِ والخشوعِ الذين يَرغبون فيما عندَ اللهِ من الرحمة والثواب .

هٰذه البيوتُ هي بيوتُ العبادةِ لله تعالىٰ وحْده ، وفيها يقول الحقُّ تبارك وتعالىٰ : ﴿ **فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ** ﴾[1] .

قال ابن كثير : لمَّا ضَرب اللهُ تعالىٰ مَثَلَ قلبِ المؤمنِ وما فيه من الهُدىٰ والعِلْم بالمصباح في الزجاجةِ الصافيةِ المتوقِّدِ من زيْتٍ طيِّبٍ ، وذٰلك كالقِنْديل ، ذَكَر مَحِلَّها وهي المساجدُ التي هي أحبُّ البقاع إلى الله تعالىٰ من الأرض ، وهي بيوتُه التي يُعْبَدُ فِيها ويُوَحَّد فقال : ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ** ﴾ أي أمر اللهُ برفْعِها ، أي ببنائِها وعمارتِها وتطهيرِها من الدَّنس واللغْو والأقوالِ والأفعالِ التي لا تَليق فيها .

---

(١) النور : ٣٦ و ٣٧ .

هٰذه البيوتُ يُتلىٰ فيها كتابُ الله عز وجل ، وفيها رجالٌ لا تَشْغَلُهم الدنيا وَزُخرفُها وزينتُها وملاذُّ بَيْعها و رِبْحِها عن ذِكْرِ ربِّهم الذي هو خالقُهم ورازقُهم ، والذين يعلمون أنَّ الذي عنده هو خيرٌ لهم وأنفعُ مِمَّا بأيديهم لأن ما عندهم ينفَدُ وما عند الله باقٍ ، ولهٰذا أثنىٰ عليهم ربُّهم فقال : ﴿ **رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ** ﴾ أي يُقدِّمون طاعةَ ربِّهم ، ومرادَهُ ومحبتَه على مرادِهم ومحبَّتِهم .

هٰؤلاء الرجالُ يخافون يومَ القيامة الذي تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصار أي من شِدَّة الفزَعِ وعظمةِ الأهوال ، وهم يَرجون رحمةَ اللهِ عز وجل ويَطمعون في إحسانه وكرمِه ، وقد وعدهم ربُّهم بأن يَتَقبَّلَ منهم أحسنَ ما عمِلوا ، وأن يتجاوزَ عن سيئاتهم ، ويضاعِفَ لهم الأجرَ والثوابَ : ﴿ **لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[1] .

ومن الرائع أنَّ المنتفعين بمصباح المَثَل هم الذين يَنتفعون بما أنزل اللهُ من هُدىً في كتابه وآياتِه ، إنهم أهلُ بيوتِ اللهِ والذكرِ والصلاةِ والزكاةِ ، وهم طلابُ الآخرةِ والثوابِ الجزيل عند اللهِ عز وجل . فَمَثَلُ آياتِه لهُم كمثَلِ المِصْباحِ الذِي وُصِفَ لهم إذا كان في بيوتِ عبادتِهم لربِّهم .

إنَّ من اختار الهُدى ، واستجاب لدعوة الإيمان ، وتَدبَّر آياتِ اللهِ بِصِدْق ، وكان من طُلَّاب المعرفةِ ظهرت له أنوارُ المعرفةِ الربانيةِ من كتابه ، ومن سُنة نبيِّه ﷺ ، وهو بذٰلك يعيشُ حياتَه على هداية : يعبدُ ربَّه ، ويوحِّدُه ، ويُخْلِصُ الطاعةَ لله ، ويجتنبُ الحرام ، ويَعرِف ما له وما عليه ، ويُحافظ على

---

(١) النور : ٣٨ .

حدود الله ، ويَحفظُ لسانَه إلا عن خير ، ويَنتفِعُ بوقته فيما يعودُ عليه بخيْري الدنيا والآخرة ، ويجعلُ دُنياه مَعْبرًا لآخرته ومزرعةً لها .

فَمَثَلُ هذا المؤمنِ الموحِّد التقيِّ ذي الضميرِ المهذَّب النقيِّ كمثَل السائرِ في نور صافٍ والليلُ ساجٍ ، فهو بهٰذا النورِ في مأمَنٍ ، ويصلُ إلى الغاية – بفضل الله – في سلامةٍ وخير .

إنَّ المثَلَ الذي ضربَه اللهُ لنوره ، وأتمَّه ببيان حالِ المنتفعين بهٰذا النور المبارك لَيدعُو أهلَ العقلِ والتدبُّر إلى الإقبال على النور ؛ نورِ العقيدةِ الصحيحةِ بأن يؤمنَ المرءُ بالله وبلقائِه وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخر .

والإيمانُ بالله هو التصديقُ بوجوده ، وأنه سبحانه مُتَّصفٌ بكل كمال ، متنزِّهٌ عن كلِّ نقْص ، وأن نؤمنَ بأننا سنُبعثُ بعد الموت وأننا سنَلقَىٰ اللهَ عزَّ وجلَّ للحساب ، وأن الجزاءَ حقٌّ .

وكما يُقْبِلُ المرءُ المتدبرُ على نور العقيدةِ فإنه يُقبل – أيضا – على نور العملِ الصالحِ بأن يعبدَ الله ولا يُشرِكَ به شيئا ، ويقيمَ الصلاةَ ويُؤدِّيَ الزكاة ، ويصومَ رمضانَ ، ويحُجَّ البيتَ ويعتمرَ إن استطاع ، وأن يعبدَ الله كأنه يراه إذ اللهُ مَطَّلِعٌ على سِرِّه وعلانيتِه مُحْصٍ عليْه عملَه ، وهذا يقتضِي الإخلاصَ في العبادة والخشوعَ ، وفراغَ البالِ حالَ التلبُّس بها ، وأن يستحضرَ العبدُ أن الحقَّ سبحانه مُطَّلِعٌ عليه ، يرىٰ كلَّ ما يعملُ فيزيدَهُ ذٰلك خشوعا وَلِينا ونُورا في البصيرة .

إن المرءإذا عاش في نور الإيمان الصحيح ، ونورِ العمل الصالح ، ومات على ذٰلك وجدَ نورَه على الصراط يومَ القيامة ، فهو نورٌ بفضل اللهِ مُتَّصلٌ ، فكما أخرجه نورُ الوحْي من ظلام الحَيْرةِ والضلالةِ في الدنيا ، وجعلَه يعيشُ على

استقامةٍ في العقيدةِ والعملِ والخُلُقِ ، فكذٰلك يَهْديه هٰذا النورُ في يومٍ يندمُ فيه المُلحدون والمشركون وأهلُ القسْوة والغفْلة ، ولنتدبر قولِ الحق تبارك وتعالىٰ من سورة الحديد :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1] .

إن القرضَ في الآية يشملُ كلَّ فِعْلٍ حَسَن ، والعربُ تقول لكل من فَعَل فِعْلا حسَنا قد أَقْرَضَ ، ومنه الإنفاقُ في سبيلِ الله ، ومنه التسبيحُ والتحميدُ والتهليلُ والتكبيرُ ، ومنه التطوُّعُ بالعبادات والنفقةُ على الأهل . وقيل في معنى القرْض الحسَن : إنه عملُ الخير . وقال القشيرى : والقرضُ الحسَن أن يكونَ المتصدِّقُ صادقَ النيَّة ، طيِّبَ النفسِ يَبتغي به وجْهَ الله عزَّ وجل دون الرياءِ والسُّمعةِ ، وأن يكونَ من الحلال الطَّيِّب .

إنَّ الذين قدَّموا الخيرَ في دنياهم مع صحةِ الاعتقاد ، والاقتداءِ بالنبى ﷺ يَجدون النورَ على الصراط أمامَهم وعن أَيْمَانِهم . وعن ابن مسعود : يُؤْتَوْنَ نُورَهُم على قَدْرِ أعمالِهم ، فمنهم من يُؤْتَىٰ نورُه كالنَّخْلَة ، ومنهم من يُؤْتَىٰ نورُه كالرَّجُل القائمِ ، وأدناهم نورًا مَنْ نُورُه على إبهام رِجْلِه ، فَيُطْفَأُ مَرَّة ، ويُوقَدُ أُخرى .

قال الحسن : لِيستضيئُوا به على الصراط ، وقال مقاتل : ليكونَ دليلًا لهم إلى الجنَّة .

---

(١) الآيتان : ١١ و ١٢ .

ويُقال لهم : ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ أي مِنْ تحتهم أنهارُ اللبَن والماءِ والخمرِ والعسلِ من تحت مساكنِها حيثُ الخلود في هـٰذا النعيمِ المقيمِ والرَّوْحِ والرَّيحان ، وأعظمُ النعيم رؤيةُ الربِّ سبحانه وتعالىٰ .

وفي هـٰذا الموقف العظيم تُطفأ الأنوارُ عن المُلحدين والمنافقين فيضرعُ أهلُ الإيمانِ إلى رَبِّهم أن يُتِمَّ لهم النورَ حتى يفوزوا بالنجاة من النار ويدخلوا جناتِ النعيم ، ولنتأملْ هذا الموقفَ في سورة التحريم : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

إنَّه موقفٌ عظيم حَقًّا . يجأرُ فيه النبيُّ ﷺ والمؤمنون قائلين : يا ربِّ سَلِّم . يا ربِّ سَلِّم .

فطوبَىٰ لمن كان نورُه هُداه ، وكتابُه بيمينه في يومٍ لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنون إلَّا من أتَىٰ الله بقلبٍ سليم .

اللهم اجعل عن أيماننا نورًا
وعن شمائلنا نورا ، ومن فوقنا
نورًا ، ومن تحتنا نورا ، ومن
بين أيدينا نورًا ، ومن خلفنا نورًا
وزدنا من فضلك وارحمنا بعفوك ورضوانك

* * *

(١) الآية : ٨ .

٢٥ - د - أصحابُ الجَهل المركّب

بَعْد المَثَلِ الذي ضربَه اللهُ عزَّ وجَلَّ لِنُوره في الناس بمشكاةٍ فيها مصباحٌ ، المصباحُ في زجاجة ، الزجاجةُ كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ إلى آخر صورةِ المَثَل كما جاء في سورة النور ، ضرب اللهُ مثلا آخرَ في السورة الكريمةِ مُقابلا لهذا المَثل مَثَّلَ فيه أعمالَ الذين كفَرُوا مِمَّن يعتقدون أنهم على شيءٍ وليسُوا في الحقيقة على شيءٍ وهم أصحابُ الجَهْلِ المركَّب . وفيهم يقول الحق تبارك وتعالىٰ :

﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾(١) .

السرابُ : هو ما يَراه المسافرُ في الصحْراء في وسط النهار من بعيدٍ مِثْلَ الماءِ وما هو بماءٍ ، إنما هو انعكاساتٌ من أشعَّة الشمسِ إذا جاءها الواردُ طالبُ الماءِ لعَطَشٍ ونحوِه لم يجدْها شيئًا وظهر له أنَّها كانت سرابًا ، وسُمِّي السرابُ سَرابا لأنه يَسْرُبُ أي يَجري كالماء .

والقِيعَةُ : جمْع قاعٍ مِثْل جيرة وجَار ، والقاعُ أيضا واحدُ القيعانِ كما يُقال : جار وجِيران ، والقِيعة : هي الأرضُ المستويةُ المتَّسِعَةُ المنبسِطةُ وليس فيها نبْتٌ ، وفيها يكونُ السراب ، وإنما يكونُ ذٰلك بعد نصفِ النهار .

والظمآنُ : العطشانُ ، ﴿ **يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً** ﴾ أي يحسَبُ السرابَ ماءً

---

(١) النور : ٣٩ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ أي مِمَّا قَدَّره في نفسه وَوَجَد أرضًا لا ماءَ فيها .

هذا المَثَلُ ضُرِبَ لِمَن أَعْرَضَ عن نور الهدايةِ الربانيةِ وذهبَ في صحراءِ الحياةِ يلتمسُ سعادتَه بعيدًا عن الدين الحقِّ فخاب سعْيُه ، وباء بالخسران .

قال ابنُ كثير : هذا مَثَلٌ للكفَّار الدعاةِ إلى كُفرهم ، الذين يحْسَبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقاداتِ ، وليسوا في نفس الأمرِ على شيء ، فَمَثَلُهم في ذٰلك كالسراب الذي يُرَىٰ في القِيعان من الأرض عن بُعْد كأنه بحرٌ طامٍ .

ثم قال : وهذا المِثَال مثالٌ لذوي الجهْل المركَّب ، والجهلُ المركبُ[1] عبارةٌ عن اعتقادِ ما هُو مخالفٌ للواقع مع الادِّعَاءِ بمطابقتِه له .

وقال القُرطبيُّ : هذا مَثَلٌ ضربَه اللهُ تعالىٰ للكفار يُعَوِّلُون على ثواب أعمالِهم فإذا قَدِمُوا على اللهِ تعالىٰ ، وجدوا ثوابَ أعمالِهم مُحبَطًا بالكفر ، أي لم يجدوا شيئا ، كما لم يَجِدْ صاحبُ السَّراب إلَّا أرضًا لا ماءَ فيها ، فهو يَهْلِكُ أو يموت .

تأمَّل الصورةَ الحسيةَ وأثرَها في توضيح المعنَىٰ المراد : انظُر إلى شخص في وسطِ النهارِ يُسرع الخُطىٰ ، وقد نفدَ منه الماءُ وكاد يقتلُه العطَش ، وهو يَرى أمامه من بُعد ماءً يتحرَّكُ وكلَّما واصَل السير ، وكَدَّ وجَد الماءَ أمامَه . حتى ينتهِيَ الطريقُ ويصِلَ إلى الغاية فيقفَ مشدوها حائرًا إذْ لا ماءَ ، ولٰكِنْ هناك أرضٌ ملساءُ مستويةٌ لا نبْتَ فيها ولا شيءَ ينفعه .

أتأمَّلْتَ هذا الشخصَ وقد تعلَّق أملُه بما يراه أمامه في هٰذه الصحراءِ المُهلكةِ

---

(١) وفي المعجم الوسيط : عبارةٌ عن اعتقادٍ جازمٍ غيرِ مُطابقٍ للواقع ، هٰذا الجهلُ المركب ، والجهلُ البسيط : عدمُ العلمِ عَمَّا من شأنه أن يكونَ عالما ، أو عدمُ العِلم من غيرِ ادِّعاءٍ له ، والجهلُ : هو اعتقادُ الشيءِ على خلافِ ما هو عليه .

وكأنه ماءٌ يَرْوِى به الظمأَ ، ويُزِيلُ العطشَ ، ويُعيدُ للنفس سكينتَها ، ويتجنبُ به أسبابَ الهلَكةِ في هٰذه المفازةِ . ثم أتأمَّلتَ خَيْبةَ أمَلِه ، وانقطاعَ رجائِه وقد عرف أنه خُدِع بالسراب وجرىٰ يلهثُ وراء الوهْم ، إنها صورةٌ حيَّةٌ ذاتُ أبعاد مكانيةٍ وفيها حركةٌ .

وتأمل حالَ المخذولِ الذي لم يُؤمِن بالدِّين الحقِّ ، ولم يَتَّبِع الرسول ﷺ ، وسلك مسالكَ بعيدةً عن الهُدى ونُورِ الوحْي ، وتأمل كذٰلك حالَ الذي يفعلُ الصالحاتِ يرجو بها ثناءَ الناس ، ومدحَهم وإعجابَهم ، وقد خلا العملُ من الإخلاص الذي هو روحُ العبادةِ وحياتُها ولا تُقْبَلُ إلا به كما لا تُقبَلُ الصالحاتُ إلا من أهل الإيمانِ الصحيحِ الذين يتَّبعون النبيَّ ، ويقتدون به ، وتكونُ الأعمالُ مطابقةً لشرْعه .

تأمَّل أحوالَ هٰؤلاء ومنهم مَنْ يبَرُّ والديْه ، ويصلُ رَحِمَه ، ويُحسِن إلى الفقير واليتيم والمسكينِ ، ويحفَظُ جارَه ، ويُحِبُّ للناس الخيرَ . تَصْدُرُ عنه هٰذه الصالحاتُ وهو مُلحِدٌ أو مشركٌ أو يستغيثُ بالقبور ويتمسَّحُ بها ، ويُقدِّمُ النذورَ لغير اللهِ عز وجل ، وانظُرْ إلى هٰذا الذي يَعتقِدُ أن لله ولدًا ويترهَّبُ ويتزهَّدُ أو يُساهم في أعمال البِرِّ كملاجئ اليتامىٰ وبناءِ المشافي للفقراء .

وهٰؤلاء وأمثالُهم يسْعَون في الحياة الدُّنيا على هٰذا النحو ، وقد تعلَّقت آمالُهم أن يَجِدوا ثوابَ أعمالهم في ميزان الحسناتِ في يوم يشتدُّ فيه الكربُ ، ويعظُم الهول ، إن هٰؤلاء وأمثالَهُمْ يَحْسَبُون أنهم قد عَمِلوا أعمالا ، وأنهم قد حَصَّلوا شيئا ، فإذا وافَوْا ربَّهم يومَ القيامة ، وحاسبهم عليْها ونُوقشوا على أفعالهم ، لم يجدوا لهم شيئًا بالكلِّيةِ قَدْ قُبل ، إما لعَدم الإخلاص ، وإمّا لعدم

الاتِّباع وسلوكِ الشرْع كما قال تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1] .

فانظُر في التشبيه الذي تضمَّنه المثَل وقد جَعَلَ المعنىٰ جليًّا واضحا ، فهـٰؤلاء المارِقون ضَلَّ سعيُهم في الحياة وهم يحسَبون أنهم يُحسنون صُنعا ، ولنسمع هـٰذا المعنىٰ من سورة الكهف يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[2] .

إنَّ الأخْسَرِين أعمالًا هم أولٰئك الذين يعملون الأعمالَ وهم يظنُّون أنهم مُحسنون ، وقد حَبِط سَعْيُهم ، والذي يُوجب إحباطَ السعي : إمَّا فسادُ الاعتقادِ أو المُراءَاةُ ، والمرادُ هنا الكفرُ . ومن هـٰؤلاء اليهودُ والنصارىٰ الذين كَذَّبوا النبيَّ محمدًا ﷺ ، والآيةُ الكريمةُ معناها التوبيخ : أي قُل لـهـٰؤلاء الكفَرةِ الذين عبدُوا غيري : يَخِيبُ سعيُهم وأَملُهم غدا ، فهم الأخسرون أعمالا ، وهم ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[3] أي في عبادة سِوى ربِّهم وخالِقهم ورازِقهم ، قال مُرَّةُ : ومنهم الرُّهبانُ أصحابُ الصوامعِ ، ومنهم كلُّ مَن كَفر بآيات اللهِ الدالةِ على وحدانيته وقدرته وكمالِ صفاتِه وكفَر بالبعث والحسابِ والجزاءِ من جميع طوائِف المشركين والملحدين : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾[4] أي لا ثوابَ لهم ، وأعمالُهم مُقابَلَةٌ

---

(١) الفرقان : ٢٣ .
(٢) الآيتان : ١٠٣ و ١٠٤ .
(٣) الكهف : ١٠٤ .
(٤) الكهف : ١٠٥ .

بالعذاب ، فلا حسنةَ لهم تُوزن في موازينِ القيامةِ ، وَمَن لا حَسنةَ له فَهُو في النار ، أو لا قَدْرَ لَهُم عند اللهِ عزَّ وجل يَوْمَئِذٍ .

إنَّ اللهَ عز وجلَّ أوجدنا من العَدم ، وجعل الدنيا مرحلةَ اختبارٍ وابتلاء ، وأرسل سبحانه الرسلَ الكرام ، وأنزل الكتبَ ، وبَيَّن لعباده أسبابَ النجاةِ والفوزِ ، وأسبابَ الهلَكة والشقاءِ ، وأَمَرنا بما ينفعُنا ، ونهانا عَمَّا يَضُرُّنا فَمَنِ اهتَدىٰ فإنما يَهتدِي لنفسه ، ومن ضَلَّ ، واختار الشهواتِ ، وَأَعْمَتْه الشُّبهاتُ فإنَّما ضلاله على نفسه ، واللهُ عز وجل بالمِرْصاد سَيُميتُنا ، ثم يُحْيينا كما أحيَانا أولَ مَرَّة ليحاسبَنا على أعمالنا ويُجازِيَنا عليها فمن وحَّد ربَّه ، واتَّبع نبيَّه ، وأخلَص الطاعةَ لله كان له نورُه في الدنيا ، ونورُه في الآخرة يَهديه على الصراط ، أمَّا من علَّق الآمال على غيرِ هُدى ولا بَصيرةٍ ولا إيمانٍ صحيح ولا إخلاصٍ ولا محبَّةٍ ولا اتِّباعٍ للنبي محمدٍ ﷺ فإنَّه سيبوءُ بالخسران ، إذْ لا يجدُ لنفسه عملًا مقبولًا عنْد ربِّه ، وسيجد جزاءَ عمله ، وما اقترفت يداه ، وهناك تعظُم الحسرةُ ، ويشتدُّ الندمُ بعد فوات الأوان : ﴿ **وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾ .

إن اللهَ عز وجل يدعو عبادَه إلى إخلاص العبادة ، ويحذِّرُنا سبحانه من الدُّعَاة على أبواب جَهنَّمَ إذ العاقلُ يعمل للباقية لا تشغَلُه الفانيةُ ولا تغرُّه الآمالُ ، إنما يعيشُ على الخوْف والرجاءِ وتُوقظُ ضميرَه العظةُ ، وتنبِّهُه الأمثالُ ، وتنفعُه العِبرُ والآياتُ ، ولنسمع اللهَ عزَّ وجل يقول لعباده : ﴿ **فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ * رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾[1] .

---

(١) غافر : ١٤ : ١٧ .

٢٦ ـ هـ ـ ظلماتٌ في الدنيا وظلمات في الآخرة وويلٌ للإمّعات .

قال اللهُ تعالىٰ من سورة النور :

﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَـٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ ٤٠ .

معاني الألفاظ :

﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ قيل : هو منسوب إلى اللُّجَّة ، وهو الذي لا يُدْرَكُ قَعْرُه ، واللُّجَّةُ : مُعظمُ الماءِ ، والجمع لُجَج ، والْتَجَّ البحرُ إذا تلاطمت أمواجُه أي أنه بحرٌ عميق .

﴿ يَغْشَـٰهُ مَوْجٌ ﴾ أي يعلُو ذٰلك البحرَ اللجيَّ موجٌ .

﴿ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي من فوق الموجِ موجٌ ، ومن فوقِ هـٰذا الموجِ الثاني سحابٌ ، فيجتمعُ في هـٰذه الصورةِ الحسِّيةِ خوفُ الموجِ ، وخوفُ الرِّيحِ ، وخوفُ السحابِ .

وقيل : المعنىٰ يغشَاه موجٌ من بَعْده موجٌ ، فيكونُ المعنى : الموجُ يَتْبَعُ بعضُه بَعضًا حتَّى كأنَّ بعضَه فَوْق بعضٍ ، وهو أخوفُ ما يكون إذا توالىٰ موجُه وتقاربَ ، وَمِن فوق هـٰذا الموجِ سحابٌ ، وهو أعظمُ للخوْف من وجهين :

أحدِهُما : أنه قد غَطَّىٰ النجومَ التي يُهْتَدَىٰ بها ، الثاني : الريحُ التي تَنشأ مع السحاب ، والمطرُ الذي يَنْزِل من هذا السحاب .

﴿ **ظُلُمَـٰتٌ بَعْضُهَـا فَوْقَ بَعْضٍ** ﴾ أي : هي ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ ، والوقفُ حينئذ على قوله ﴿ **مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ** ﴾ حَسَنٌ ، ثم تبتدئُ ﴿ **ظلماتٌ ...** ﴾ على أنها خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هي ظلماتٌ ، أو هـٰذه ظلماتٌ . أمَّا هـٰذه الظلماتُ فالمرادُ بها : ظلمةُ سحابٍ ، وظُلمةُ الموجِ ، وظلمةُ الليل ، وظلمةُ البحر ، فلا يُبصِرُ مَن كان في هـٰذه الظلماتِ شيئًا ولا كوْكبًا .

﴿ **إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ** ﴾ أي : الناظِرُ ﴿ **لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا** ﴾ أي من شِدَّة الظلماتِ لم يقاربْ رؤيتَها ، فإذا لم يقاربْ رؤيتَها ، فإنه لم يَرها رؤيةً بعيدةً ولا قريبةً .

المثل :

في هذه الآيةِ الكريمةِ ضَرَبَ اللهُ عز وجل مثَلًا آخرَ للكفَّار : أي أعمالُهم كسراب بِقيعة ، أو كظُلماتٍ في بحْر لُجِّي . ففي المثَل الذي جاء قبل هـٰذه الآيةِ تَمَّ إبرازُ صورةِ السَّراب ، ثم صورةِ الظَّامئِ الذي ظنَّ السرابَ ماءً وجرىٰ وراءه وَكَدَّ ، ثم خَيْبَتِه عند وصوله إليه ، وفي تأمُّلِنا لهـٰذه الخطوطِ الرئيسةِ للصورة الحِسِّيةِ ، نرىٰ أمورًا كثيرةً يرسُمها خيالُ المتأمِّل وشعورُه بِيُسْرٍ وسُهولة .

وفي الصورة الثانية : ﴿ **أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَـٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ...** ﴾ .

فهي تنقلُنا من هـٰذا العالمِ المحسُوسِ المشحونِ بالمخاوف والشدائِد

والحَيْرةِ في هـٰذا الجوِّ العظيمِ الهولِ : جَوِّ البحْرِ وقد علَتْ أمواجُه ، وتدافعت وتتابعتْ وقد ستَرت السحبُ ما بيْن السماءِ والأرضِ فلم يَعُد هناك بصيصٌ من النور يُمَكِّنُ الناظرَ إلى يدِ نفسِه من أنْ يراها ، وهي أقربُ شيءٍ إليه ، ومايُصاحِبُ ذٰلك من الرِّيح والمطرِ . فتأمَّل الإنسانَ الذي يعيشُ في هـٰذا الجوِّ وقد فَقد كلَّ سببٍ للاهتداء .

هـٰذه الصورةُ تنقلُنا إلى نفسية الكافرِ خصوصا هـٰذا الإمَّعَةَ الذي يَتْبَعُ زعماءَ الضَّلال ، وينقادُ لأرباب الأهواءِ من الملحِدين وأهلِ الجحود والإنكارِ دونَ إعمَالِ فِكْره ، إذ يعيشُ متخبِّطًا في ظلامِ ضلالِه ، حائرًا مضطربَ الفِكرِ والنفسِ بعد أن أَعْرَض عن نور اللهِ الذي هو المصدرُ الوحيدُ للهداية ، وانطلق وراءَ الذين يلتمسُون أسبابَ سعادتهم في ظُلماتِ الهوىٰ والشهواتِ والشبهاتِ والجحودِ والنُّكرانِ والكِبْرِ والغرورِ فهم يتعثَّرون في مضايقِ الحياةِ الطينيةِ من الهمِّ والقلقِ وضيقِ النفسِ وألوانِ الخيْبَةِ والخِذلان .

تأمَّلْ المثَلَ وأبعادَ الصورةِ المكانيةِ وما فيها من صِدْقٍ ودقَّةِ تصويرٍ وحركةٍ وحياةٍ إذ تُرينا شدةَ بؤسِ هـٰذا الكافرِ ، وسوءَ حالِ هـٰذا الجاحدِ الذي مَثَلُهُ كَمَنْ هُو في ظُلماتِ قاعِ بحرٍ عميق ، فوقَه أمواجٌ في العمق تَزِيدُ الظُّلْمة ، فوقها أمواجٌ في السَّطح تضاعِف الظُّلمة ، ثمَّ يُخيِّم السحابُ على المكان فيزيدُ الظلامَ ظلامًا ، ظلماتٌ متراكمةٌ بعضُها فوقَ بعْض ، من أعظم أسبابِ الهلاكِ والضَّياع ، ومَن كان شأنُه ذٰلك فإنَّه لا يَدري أين يذهب ؟ ولا إلى أين يَتَّجِهُ ؟ وتشتدُّ مخاوفُه ، ويعظُم خَطْبُه ، وكذٰلك حالُ الذين كفروا .

قال ابنُ كثير : فهـٰذا مَثَلُ قلبِ الكافرِ الجاهلِ البسيط المقلِّد الذي لا

يَدري : أين يذهبُ ، ولا يَعْرِفُ حالَ مَن يقُودُه ، بل كما يُقال في المَثَل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : مَعَهُم ، قِيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري ! . هـٰؤلاء هم أصحابُ الجهلِ البسيطِ الأغشامُ المقلِّدون لأئمَّةِ الكُفر والإلحادِ الصُّمُّ البُكْم الذين لا يَعقلون .

وقال ابنُ عباس : هـٰذا مَثَلُ قَلْبِ الكافر .

وقال بعضُ أهلِ التفسير : أراد بالظلمات أعمالَ الكافر ، وبالبحر اللُّجِّيِّ قلبَه ، وبالموج فوقَ الموجِ ما يَغْشَىٰ قلبَه من الجهل والشكِّ والحَيْرة ، وبالسحاب الرَّينَ والختمَ والطبْعَ على قلبه ، رُوي معناه عن ابن عباس وغيرِه ، أي لا يُبصِرُ بقلبه نورَ الإيمان ، كما أن صاحبَ الظلماتِ في البحْر إذا أخرج يدَهُ لم يكدْ يراها .

وفي هـٰذا تفصيلٌ للصورة بما يُناسب أجزاءَها لدىٰ الجاحدِ الكافر ، وواضحٌ أن الصورةَ متكاملةٌ نرىٰ منها حالةً غايةً في السوء لشخصٍ ضَلَّ طريقَ النُّور وفَقَد أسبابَ النجاةِ والسعادة .

وفي تفصيلٍ آخرَ قال أُبَيُّ بنُ كعب : إن الكافرَ يتقلَّبُ في خمسٍ من الظلمات : كلامُه ظُلمةٌ ، وعملُه ظُلمةٌ ، ومَدْخَلُه ظُلْمةٌ ، ومَخْرَجُه ظُلمة ، ومصيرُه يومَ القيامةِ إلى الظلماتِ في النار ، وبِئْسَ المصيرُ .

ولا شكَّ أن هـٰذا كلَّه من آثار فَقْدِ الإيمان الصحيح واختيارِ طريقِ الشيطان ، والبُعْدِ عن هداية الرحمٰنِ ، إذ منطِقُ المُلحد غيرُ مستقيم « فكلامُه ظلمة » وعملُه على غير هداية ، وسيجدُ الظلمةَ في قبْره ، وسيواجهُ الأهوالَ والظلماتِ والمخاوفَ عند خروجِه من القبر ، ويا ويْله وهو يَهْوِي في جهنَّمَ إذ لا

يجدُ نورًا من إيمان صحيحٍ وعمَلٍ صالحٍ على الصراط – والعياذُ بالله – وفي ذٰلك عبرةٌ لِمَن كان له قلبٌ يَعِي ، وأُذنٌ تسمعُ ، وعيْنٌ تُبصِر .

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا ﴾ أي يَهتدي به أظلمت عليه الأمورُ ، وقال ابنُ عباس : أي من لم يجعل الله له دِينًا فما لهُ من دِين ، وَمَن لم يجعل الله له نُورا يَمشي به يومَ القيامة لم يهتدِ إلى الجنة ، كما قال تعالىٰ من سورة الحديد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

قال الزجَّاجُ : أي مَن لم يَهْدِه لم يَهْتَدِ في دُنياه ، وقال مقاتل بنُ سليمانَ : نزلتْ فيمَن كان يلتمِسُ الدِّينَ في الجاهلية ، ولَبِس المُسوح – كالرُّهبان – ثم كفَر في الإسلام .

وعند ابنِ كثير في التعليق على قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ أي من لم يهدِه الله فهو هالكٌ جاهلٌ حائرٌ بائرٌ كافرٌ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾[2] وهٰذا مُقَابَلَةُ ما قال في مَثَلِ المؤمنين : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[3] .

إن الذي لم يستنِرْ بنور الهدايةِ الربانية ، واختار الضلالةَ والعَمايةَ والشركَ والإلحاد وجَرىٰ وراء الدعاةِ على أبواب جهنَّمَ مِنْ قادة الضلالِ والإلحادِ يَتيهُ في الظلمات ، ويَضِلُّ ضلالًا بعيدا ، ويَخِيبُ مسعاه ، وتسوءُ عاقبتُه ، ويَبوءُ بالخسران .

---

(١) آية : ٢٨ .

(٢) الأعراف : ١٨٦ .

(٣) النور : ٣٥ .

وهكذا يَظْهَرُ لنا في هذا المَثَلِ صِدقُ المماثَلةِ بين المَثَل والمُمَثَّلِ له ، مع دِقَّة التَّصويرِ وإبرازِ العناصرِ المُهِمَّة في الصورة المُوحِيَةِ بالمقصود ، والموضِّحةِ للمطلوبِ في إطارِ التصويرِ المتحرِّك الحيِّ بما فيه من الخُطوط والألوانِ والأصواتِ والأبعَاد التي تُجلِي لنا المشاعرَ النفسيةَ والأمورَ المعنويةَ وتجعلُها ظاهرةً جَليَّةً كأننا نلمسُها ونَراها . مع الإيجاز والإعجازِ في المَثَل القرآنيِّ .

فنسأل الله العظيمَ أن يجعَلَ في قُلوبنا نُورا ، وفي عُقولنا نورا ، وعن أيماننا نُورا ، وعن شمائلنا نُورا ، وأن يُعْظِمَ لنا نُورًا إنَّهُ سميعٌ مُّجيب .

* * *

٢٧ - خاسر الدنيا والآخرة .

قال الله تعالىٰ من سورة الحَجِّ :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾(١١) .

هٰذه الآيةُ الكريمةُ تقدِّم لنا أُنموذجًا لأناسٍ لهم مشاربُ خاصَّة ، ونظرةٌ غيرُ صحيحةٍ إلى الحياة ، أغرتْهم الشهواتُ ، وفَتَنَتْهُم الشُّبهاتُ ، فهم يسعَوْن للدنيا ، ويعملون لها ، غَيْرَ عابئين بالقِيَم الرُّوحية ، ولا بالإعداد للحياة الأُخروية ، وهم إن انضمُّوا إلى حِزْب الله المُخلصين فالغرضُ أن يَجِدُوا في ذٰلك مَطْلَبَهم ، وإن يحققُوا مآرِبَهم وإلَّا انقلبُوا أعداءً ، وارتدُّوا على أعقابهم سَاخِطين .

هٰذا النوعُ من النفوس البشريَّةِ موجودٌ في كل زمانٍ وهم شَرُّ ما تُبْتَلَىٰ به الجماعةُ المستقيمةُ ، يُرشدنا القرآنُ الكريم إليه ويدلُّنا عليه ، ويُوضح لنا ملامِحَه وصفاتِه لنتأىٰ بأنفسنا عن مزالِقِ السُّوءِ التي وَقَعَ فيها هَٰؤلاء وأمثالُهم ، وَلِنَرْبأَ بِهَا عن مشارِبهم ، ولِيُبَغِّضَ إلينا القرآنُ مسالكَ أهلِ النفاقِ أصحابِ النفوس غيرِ المطمئنَّة .

ومن أسباب النزولِ ما رواه ابنُ عباس – رضي الله عنه – قال : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ علىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيرٌ ٱطْمَأَنَّ بِه وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ** ﴾ قال : كان الرجلُ يَقْدَمُ المدينةَ ، فإن وَلَدَت امرأتُه غُلامًا ، ونُتِجَت خيلُه ، قال : هـٰذا دِينٌ صَالحٌ ! فإن لم تَلِد امرأتُه – غُلاما – ولم تُنْتَجْ خَيْلُه ، قال : هَـٰذا دِينُ سَوْءٍ ! .

فهـٰذا يُريدُ من وراء الدِّين يُسرًا لا عُسرَ فيه ، ورخاءً لا شِدَّةَ معه ، وراحةً لا تعبَ بعدها ، يتفاءلُ بانضمامه إلى حزب اللهِ يُريد بذٰلك ما يرجوه من الدنيا ، فإن تحقَّق وإلَّا انقلب ساخِطًا ساخِرا ، إنها نفسٌ غيرُ مُطمئنَّةٍ ، وإنّه لَفِكْرٌ غيرُ مستقيم .

وفي الحديث الذي رواه أبو سعيدٍ الخدريُّ ما يفسِّر لنا ويزيدُنا وضوحا في الكشْف عن هـٰذه النفوسِ المذبذبَةِ ، قال رضي الله عنه : أَسْلم رجلٌ من اليهود فذَهَبَ بصرُه ومالُه ، فتشاءم بالإسلام ، فأتىٰ النبيَّ ﷺ ، فقال : أَقِلْني ! فقال : إنَّ الإسلامَ لا يُقال ، فقال : إنِّي لم أُصِب في دِيني هـٰذا خيْرًا ! ذَهَب بَصَري ، ومَالي ، وولدِي ! فقال : « يا يهوديُّ ، إن الإسلامَ يَسْبِكُ الرجالَ كما تَسْبِكُ النارُ خَبَثَ الحَديدِ والفِضَّةِ والذهَب » فأنزل اللهُ تعالىٰ : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ** .. ﴾ .

هـٰذا الرجلُ يقول للرسول ﷺ « أَقِلْني » أي أَعْفِني يُريد أن يُعفِيَه من الدِّين ، وأن يَفْسَخَ عهدَه ، فأجابه ﷺ بأن الدِّينَ « لا يُقال » ، بل علىٰ المؤمن أن يصبرَ على الشدائد والمِحَن ، وأن يكونَ من أهل الجهادِ والجِلاد ، وأن يشكرَ على السرَّاء والضراءِ مُحتسبا ، فالدِّين يُهَذِّبُ المؤمنَ ويُخلِّصُه من شوائبِ الضعْفِ ومن الشكوكِ والرِّيَبِ ، والشدائدُ في سبيل اللهِ تُنَمِّي في النفس

الإيمانَ ، وتُقوِّي اليقينَ كما تُخلِّصُ النارُ الحديدَ ، والفضةَ ، والذهبَ من الشوائبِ والخَبَثِ .

وسبحان القائل : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ .

نموذج حاسد :

ومن الناس من يُقبلُ على الحق ، وقد اقتنع عقلُه ، ولكنَّ قَلْبَه يطمَحُ إلى المنزلة في الدُّنيا ، والمنافسةِ على المكانة بينَ الناس ، فإن قُدِّرت لغيره نَكَص على عَقِبَيْه ، وارتدَّ عن الحق . ومن أسباب نُزول الآية الكريمةِ كما جاء عن ابن عباسٍ أن شيبةَ بنَ ربيعةَ كان قد أسلَم قبل أن يَظْهَرَ رسولُ الله ﷺ ، فلمَّا أُوحِيَ إليه ارتدَّ شيبةُ ، أي حسَدًا وكِبْرا وعِنَادا بسبب شهواتِ القلبِ ، وطموحِ النفسِ الأمَّارةِ بالسُّوء .

التصوير في الآية :

وقد صوَّرت لنا الآيةُ الكريمةُ حقيقةَ ما عليه هـٰؤلاء وأمثالُهم من شكٍّ في القلوب ، وضعْفٍ في العبادة ، صوَّرت لنا ذٰلك بِضَعْفِ القائم على حَرْفٍ وهو مُضطربٌ فيه غير ثابتٍ ، وَحَرْفُ كلِّ شيءٍ طَرَفُه ، وشَفِيرُه وَحَدُّه ، ومنه حَرْفُ الجبل ، وهو أعلاه المُحَدَّدُ ، وَمِثْلُ هـٰذا لا يكون مُستَقِرًّا ولا مطمئِنًّا ، وبهـٰذا جَعَلَت هذه الصورةُ المعنىٰ الذي يُدْرَكُ بالعقْل محسوسًا كأنه يُرىٰ بالعَيْن : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ .

---

(١) العنكبوت : ١ : ٣ .

نماذج قلقة :

ومن هـٰؤلاء من يعبدُ اللهَ على وَجْه واحدٍ ، وهو أن يعبُدَه على السَّراء دون الضرَّاء ، ولو عَبَدُوا اللهَ على الشُّكر في السرَّاء ، والصبْرِ على الضرَّاء لمَا عَبَدُوا اللهَ علىٰ حَرْف .

ومنهم من كان يُريد الإسلامَ على شرْطٍ ، مِثْلُ ذٰلك الرجلِ[1] الذي قال للنبي ﷺ قبل أن يَظْهَرَ أمرُه : ادْعُ لي ربَّك أن يرزقَني مالًا وإبلًا وخيْلًا وولَدًا ، حتى أو مِنَ بك ، وأَعْدِلَ إلى دِينك ، فدعا له فرزقَه اللهُ عزَّ وجلَّ ما تمنَّى ، ثم أراد اللهُ عز وجل فِتنتَه واختبارَهُ ، وهو سبحانه أعلمُ به ، فأخذ منه ما كان رَزقَه بعد أن أسلَمَ فارتَدَّ عن الإسلام .

ومن هـٰؤلاء كلُّ منافقٍ يعبدُ اللهَ بلسانه دونَ قلبِه ، وبالجملة ، فإن كلَّ مَن لم يدخُل في الإسلام بِكُلِّيَّته أي بقلبِه وجسمِه فهو مِمَّن يعبدُ اللهَ على حَرْف .

وقد بَيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ ذٰلك : ﴿ **فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ** ﴾ أي من صحَّةِ جِسمٍ ، ورخاءِ معيشةٍ رَضِيَ وأقام على دِينه . ﴿ **وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ** ﴾ أي خلافُ ذٰلك مِمّا يُخْتَبَرُ به ﴿ **انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ** ﴾ أي ارتدَّ فرجَعَ إلى وَجْهِه الذي كان عليْه من الكُفر والشِّركِ ، فهـٰذا هو الخاسرُ حقًّا إذْ بَاع الباقِيَ بالفانِي ، واشتَرىٰ العاجلةَ بالآجلَة ﴿ **خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ عاش دُنياه على ضَلال وحَيْرة ، وخَسِر ثوابَ الآخِرَة ونعيمَها .

إنَّ هـٰؤلاء الذين صوَّرتهُم الآيةُ الكريمةُ تُقَبِّحُ تفكيرَهم ، وتذمُّ منهجَهم ،

---

(١) شيبة بن ربيعة .

وتكشِفُ عن نفوسهم الخبيثةِ ، هـٰؤلاء أناسٌ قلقةٌ نفوسُهم مضطربةٌ عقائدُهم لأنها ليست خالصةً لله ، ولا متجهةً إلى سبيله ، يعبدون الله على حرْف أي في شكٍّ وارتياب ، وفي غير ثباتٍ ولا طمأنينةٍ فكأنَّ صاحبَ هـٰذا القلقِ واقفٌ على حرْفِ جَبَل ، أو على شفَا حُفْرةٍ ، لم يُرْوَ قلبُه من الإيمان وإنَّما ابْتَلَّ به شَفَتاه ، وجَرى الكلامُ على لسانه ، ولم يَذُق قلبُه حلاوةَ اليقين وطَعْمَه ، فهو مذبذَبٌ بين حِزبِ اللهِ وحزْبِ الشيطان ، مُتَردِّدٌ بين التصديقِ والتكذيب ، والإيمانِ والجحودِ ، إن زاد مالُه وأقبلتْ عليه زهرةُ الدنيا ارتاح قلبُه وتفاءل لأنَّ هـٰذا هَمُّه ، وإن اختَبره اللهُ في ماله أو في نفسه وأولادِه ، أو دُعِيَ للجهاد بالنفس أو المالِ رَجَع إلى سابق عهدِه من الكُفر والضلال ، فهو بِخُبْث نفسِه ، وسوءِ اختيارِه ، وفسادِ اتجاهِه ومشاربِه يَخْسَرُ دُنياه وآخِرَتَه ، إذْ ما قيمةُ الدُّنيا إذا لم تُتَّخَذ مطيَّةً للآخرة ، وَمَعْبَرًا إليها ، وزادًا ليوم الحِسابِ يتزودُ فيها أهلُ العقلِ والحِكمةِ بتقْوَىٰ اللهِ وطاعتِه والرغبةِ فيما عنده سُبحانه .

ومن فساد تفكيرِ هـٰؤلاء ، وسوءِ طَوِيَّتِهم ، وضعْفِ نفسياتِهم أنهم لا يَلتجئون إلى الله في شدائدهم ، فكما يقعُون في ﴿ **ٱلْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ يقعون أيضا في الضلالِ البعيدِ بالتجائهم إلى المخلوق الذي لا يَملك ضُرًّا ولا نفعًا ولنتدبر قولَه تعالىٰ في هـٰذا الذي يَنْقَلِبُ على وَجْهه : ﴿ **يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ** ﴾[1] حقا ذلك هو الضلال البعيد لأنه يدعُو مِن دون اللهِ ما لا يَضرُّه ولا ينفعُه ، وهـٰذا من ضعفِ العقلِ بعد ضعْفِ الإيمانِ لأن الملتجِئَ إلى ما لا يضرُّ ولا ينفعُ أبدًا ، أو إلىٰ ما لا يَضُرُّ تركُه ، ولا ينفعُ قُربُه إنسانٌ محرومٌ من نعمة العقلِ لا يفرِّقُ بين الضَّارِّ والنافعِ ، ولا بين

---

(١) الحج : ١٢ .

الخيرِ والشرِّ ، ولا بين الفضيلةِ والرذيلةِ ، وذٰلك ضلالٌ ليس بعده ضلالٌ ، وتلك حَيرةٌ ليس وراءَها حَيرةٌ ، وكأنه في ضلالِهِ مُوغِلٌ في صحراءَ مُهلكةٍ في ليلةٍ شديدةِ الظُّلمةِ يخطو بنفسه إلى حَتْفِه وهَلاكه .

وفي يوم القيامةِ يَرىٰ المخذولُ نفسَه في عِدادِ أهلِ النارِ بعبادته غيرَ الله ، وتوكُّلِه على غير مَولاه ، وتركِهِ الالتجاءَ إلى الله ، وسعْيِه للالتجاء إلى الخلقِ ، فهٰذه نفسيةُ إنسانٍ قليلِ التدبُّر ، سيِّئِ التقديرِ إذ يكفرُ بمالكِ كلِّ شيءٍ ، ومدبِّرِ كلِّ شيءٍ ، القادرِ على كلِّ شيءٍ ، ويلجأُ إلى مَن هُو في أشدِّ الحاجةِ إلى رَبِّه . ولنتدبر قولَه تعالى في هٰذه النفسيةِ الضئيلة : ﴿ **يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ** ﴾[1] أي هٰذا الذي انقلبَ على وَجْهه يدعُو مَنْ ضَرُّه أَدْنَىٰ من نفْعِه أي في الآخرةِ ، لأنَّه بعبادته الصنمَ أو القبْرَ أو صاحبَ القبرِ ، أو بالتجائِه إلى حزبِ الشيطانِ يستعينُ بهم مُعْرِضًا عن حزبِ الله وعن دينِ اللهِ دَخَلَ النارَ ﴿ **لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ** ﴾ أي في التناصُرِ ﴿ **وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ** ﴾ أي المُعاشِرُ والصاحبُ والخليلُ يَعْنِي الوثَنَ ونَحْوَه .

* * *

(١) الحج : ١٣ .

٢٨ - أ - كباسط كفَّيه إلى الماء .

الدعاءُ : تَفْويضُ الأمرِ إلى صاحبِ الأمر ، ولجوءٌ إليه سبحانه وتعالىٰ في كَشْفِ الشدائد ، وَنَيْلِ الرغائب ، والدُّعاءُ إذا صدر عن قوةِ دِين ، وَحُسنِ يَقين أفضىٰ بالداعي إلى خيري الدنيا ويومِ الدين ، والدعاءُ من أَنْفَعِ الأدويةِ ، وأَمْضَىٰ الأسلحةِ به يُدفَع الضُّرُّ ، وَيُجْلَبُ الخيرُ ، به تُبعَثُ في النفوس الطمأنينةُ ، وَتَثْبُتُ الأقدامُ في ساعة الفَزَع ، وساحَةِ المخاوف .

الدعاءُ صِلَةٌ بين العبدِ والمنعمِ الوهابِ ذي الجودِ والكرمِ المُتَفرِّدِ بالعظمةِ والجلالِ ، السميعِ المجيبِ عَلَّامِ الغيوب .

والدعاءُ اتِّجاهٌ إلى الربِّ القادر ، واستعانةٌ بالمولَىٰ العزيز ، واستغاثَةٌ بالرحمٰن الرحيمِ ، وابتهالٌ من المخلوق الضعيفِ إلى الخالق القويِّ يرجوه العفْوَ والمغفرةَ والإحسانَ والتوفيقَ والسدادَ ، وسَتْرَ العيوبِ ، وكشْفَ الكُروبِ ، وإنارةَ البصيرةِ ، والخروجَ من ظلامِ الضلالةِ والحَيْرة .

بالدعاء تُطْلَبُ السَّعَةُ في الرزق ، والبركةُ في الأهل والمالِ والولد ، ويُسأل القويُّ القادرُ النصرَ ، وتفريجَ الهَمِّ ، وإزالةَ الغَمِّ ، وكَبْتَ العدوِّ ، وَدَحْرَ المعتدِي ، والعزَّ والرفعةَ لأهل الحقِّ والإيمان .

الدعاءُ الحارُّ الصادقُ يَحْمِلُ ضراعةَ المؤمن ، ويَحْمِلُ دلائلَ الإيمان ، وذلَّ

العبوديةِ للهِ الواحدِ الأحدِ الفردِ الصمدِ ، ودلائلَ الانقيادِ والـخضوعِ للخالق العظيم .

والإيمانُ هو نورُ المؤمنِ يَهْديه ، ويُرشده ، وَيُجنِّبه أسبابَ المَهالك والـمخاوف ، والإيمانُ هو الكلمةُ الطيِّبةُ عنها يَصعَدُ الكَلِمُ الطيِّبُ فتُفْتَحُ له أبوابُ السَّماء ، كما يَصْعَدُ العَمَلُ الصالحُ ، فهو ركيزةُ الاستجابةِ ، وهو أساسُ النجاةِ ، وأصلُ الخيرِ كُلِّه ، وسببُ السلامةِ .

جاء عن عبد اللهِ بنِ عباسٍ – رضي الله عنهما – أن النبيَّ ﷺ قال : « مَن لَزِم الدُّعاءَ ، جَعَلَ اللهُ له من كلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، ورزقَهُ من حيثُ لا يَحْتَسِب »
صحيح أخرجه أحمدُ وبعضُ أصحاب السنن .

إنَّ الدعاءَ مُعْتَبَرٌ بصحَّة القصْد ، وإجابتُه مرجُوَّةٌ بالإخلاص ، وسلامةِ الإيمان .

فَمَن تعرَّىٰ عن الإيمان ، وكَفَر بالألوهية والعبوديةِ ، فَمَن يدعو ؟ وأنَّى يُسْتَجابُ له ؟ !

إن الكافرَ والملحدَ والمشركَ في ضلالٍ وحيْرة .

ألا تَرَىٰ المشركَ يتخذُ للهِ نِدًّا ، ويرفعُ أَكُفَّ الضراعَةِ أمام الأوثانِ والأصنام ، أو يَقِفُ مُستغيثًا بالقبور وبأصحابِها يدعو مَن لا يَمْلِك نفْعا ولا ضُرًّا ، ولا يسمعُ ضَراعةً ولا استغاثةً ، يجأر بطلبه متوجِّهًا به إلى ضعيفٍ مِثْلِه أو جمادٍ ، وَمَن لا حياةَ فيه مِمَّن لّا يَمْلِكُ من أمرِه شيْئا ، فكيف يتصرَّفُ في أمورِ غيرِه ؟ .

إنه يدعو أوهامًا أو أوثانًا من دون الله ، فكيف يُستجابُ دعاؤُه ، أو ينفعُه رجاؤُه ، وهو يضعُ الأمورَ في غيرِ موضِعها ؟

وقد جاء التمثيلُ في سورةِ الرعدِ لبيان بطلانِ عملِ هٰؤلاء، وضياعِ الجُهْد، وخَيبةِ الدَّاعي وضلالِه وذٰلك في قوله تعالىٰ : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾(١٤) .

وسورةُ الرعدِ مدنيةٌ وآيُها ثلاثٌ وأربعون نزلتْ بعد سورةِ محمَّدٍ وفي قول الحسنِ وعكرمةَ وعطاءٍ وجابرٍ أنها مكيةٌ ، وجاء عن ابن عباسٍ أنها مدنيةٌ إلا آيتين منها نزلتا بمكةَ ، وهما قوله عز وجل :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ * وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(٣١ و ٣٢) .

وَمِمَّا اشتملتْ عليه هٰذه السورةُ الكريمةُ إقامةُ الأدلةِ على التوحيد بما يُرَىٰ من الآيات الكونيةِ في السماء والأرض ، وإثباتُ البعثِ للحسابِ والجزاءِ ، وَضَرْبُ الأمْثَالِ لِمَن يَعْبُدُ اللهَ وحْدَه ، وَلِمَنْ يعبدُ الأصنامَ بالسَّيْل والزَّبَد الرابي ، كما اشتملت على بيان حالِ أهلِ التقوىٰ وخصالِهم وفضائِلهم ومآلِهم ، وعلى بيان حالِ الذين يَنقضون عهْدَ اللهِ مِن بعد ميثاقِه وَيُفسدون في الأرض وبيانِ مصيرِهم ، وبيَّنت السورةُ وظيفةَ الرَّسولِ وأنَّ خُلاصةَ ما جَاء به

عبادةُ اللهِ وَحْدَهُ ، وعدمُ الشِّرْكِ به ، ووجوبُ إخلاصِ الدعاءِ لله عزَّ وجل . هٰذا بعضُ ما اشتملتْ عليه السورةُ الكريمةُ ، ووجَّهت ذوي البصائرِ والعقولِ إليه ، فَمَن اهْتَدىٰ فإنما يَهْتَدِي لنفسِه وَمَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها .

الدعاء لله وحده :

بَيَّنت سورةُ الرعدِ أنَّ لله دعوةَ الحقّ ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ** ﴾ أي لله عز وجل دعوةُ الصدقِ ، وقال ابنُ عباسٍ وغيرُه : دعوةُ الحقِّ هي كلمةُ التوحيد « لا إلٰهَ إلا ٱللهُ » وقال الحسنُ : إن اللهَ هو الحقُّ فدعاؤُه دعوةُ الحق ، وقيل إن الإخلاصَ في الدعاء هو دعوةُ الحق .

﴿ **وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ** ﴾ أي ومَثَلُ الذِينَ يَعْبُدون آلهةً غيْرَ اللهِ كالأصنام والأوْثانِ والقبورِ ونحوِها .

﴿ **لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ** ﴾ أي لا يَستجيبون لهم دعاءً ، ولا يَسمعون لهُم نداءً ، ولا يُجِيبُونَهُم بشيءٍ مِمَّا يُريدونَه من نَفْعٍ أو ضُرٍّ .

﴿ **إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِ** ﴾ ضَرَبَ اللهُ عزَّ وجل الماءَ مَثَلًا ليأسِهم من الإجابةِ لدعائهم ، فكأنَّه يدعو الماءَ بلسانه ، وَيُشير إليه بيده ، فكيف يبلغُ فاه ؟ فهٰؤلاء الذين يدعُون غيرَ الله عزَّ وجل لا يَجدون إجابةً من هٰذه الأندادِ إلا كَما يُجيب الماءُ لِمَن مَدَّ يَديْه يطلبُ منه أن يبلُغَ فَمَه ، والماءُ جَمادٌ لا شعورَ له بِبَسْطِ الكفَّين ولا بِقَبْضِهما ، فكيفَ يُجيبُ النِّداء ، وهٰكذا الأصنامُ لا تَسمعُ نداءً ولا تُعطِي جَوابا .

فَمن معاني هٰذا المَثَلِ : أن الذي يدعو ويسأَلُ إلٰهًا من دون الله يُشْبِهُ الظَّمآنَ الذي يدعُو الماءَ بلسانه إلى فيه من بعيد يُريد تَناوُلَهُ ، ولا يَقْدِرُ عليه ،

وَيُشير إليه بيَدِه فلا يَأْتِيه أَبَدًا لأن الماءَ لا يَسْتَجيبُ ، وَمَا الماءُ ببالغٍ إليه . وفي هٰذا من خَيْبة الرجاءِ ، وضَياعِ الجُهد ، والسعْي فيما لا منفعةَ فيه ما هو بَيِّنٌ واضحٌ للمتأمِّل .

وفي توضيح هٰذا المثَلِ أيضًا يَرىٰ ابنُ عباس أن عابدَ غيرِ الله المستغيثَ بالأنداد يُشْبِهُ الظمآنَ الذي يَرى خيالَه في الماء وقد بَسَط كفَّيه فيه ليبلُغَ فاه ، وما هو ببالغِه لكذِبِ ظنِّه ، وفَسادِ تَوَهُّمِه .

وَزَعَم الفرَّاء أن المرادَ بالماء هاهُنا البئرُ لأنها مَعْدِنٌ للماء ، وأنَّ المثَل : كَمَن مَدَّ يَدَه إلى البِئْر بِغَيْر رِشَاء – أي فلا حَبْلَ في يَدِه ولا دَلْوَ – وشاهدُ الفرَّاء قولُ الشاعر :

فإنَّ الماءَ ماءُ أَبِـــي وجَـــدِّي وَبِئْرِي ذو حَفَرْتُ وذو طَوَيْتُ

أي الذي حفرتُ ، والذي طويتُ ، فذو اسمٌ موصولٍ في لغة طيِّئ .

قال عليٌّ – رضي الله عنه : هو كالعطشَان على شَفَةِ البِئْر فلا يَبْلغُ قَاعَ البِئْر ، ولا الماءُ يَرتفِعُ إليه .

ومعنى ﴿ **إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ** ﴾ أي إلّا كاستجابة باسطِ كفَّيه ﴿ **إِلَى الْمَآءِ** ﴾ فالمصدرُ وهو « استجابة » مضافٌ إلى الباسط ، ثم حُذف المضافُ . وفاعلُ المصدرِ المضافِ مُرَادٌ في المعْنَىٰ وهو الماءُ ، والمعنَىٰ : إلا كإجابة باسطِ كَفَّيْه إلى الماء ، واللامُ في قوله ﴿ **لِيَبْلُغَ فَاهُ** ﴾ متعلقةٌ بالبَسْط ، وقولُه : ﴿ **وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِ** ﴾ كنايةٌ عن المَاء ، أي وَمَا الماءُ ببالغٍ فَاه أي بواصل إلى فمه ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿ **هُو** ﴾ كنايةً عن الفَم ، أي ما الفمُ ببالغِ الماءَ أي بواصل إلى الماء .

إن الذي يُريد بلوغَ أَمْرٍ ينبغي له أن يأخذَ نفسَه بأسبابه الصحيحةِ للإفادة بالوقت والجُهْد وتحقيق المآربِ السليمةِ ، وقد ضُرِبَ طلبُ الماءِ باللسان أو بالإشارة باليد مَثَلًا ليأْسِ المُشْرِكِ من الإجابة لدعائِه ، ولقد كانت العربُ تَضرِبُ لمَن سَعىٰ فيما لا يُدركه مَثَلًا بالقابضِ الماءَ باليَد للتَّوضيح وبيانِ مقدارِ الـخيْبَةِ وأنها وَصَلت الغايةَ ، وأَوْفَتْ على النهاية ، ومن أمثالهم في ذٰلك قولُهم « أَخْيَبُ من القابضِ على المَاء » . وهو مأخوذٌ من قول الشاعر :

فأصبحتُ مِمَّا كان بيني وبينها من الوُدِّ مِثْلَ القابضِ الماءَ باليد

فقابضُ الماءِ باليد يكون صِفْرَ اليدين مِنه ؛ إذ لا يُمكنه أن يقبِضَ على شيء منه وَيَجْمَعَهُ في يَده ، كما قال الشاعر :

فإنِّـي وإيَّـاكم وشَوْقًـا إليْكُـمُ كقَابضِ ماءٍ لَمْ تَسِقْهُ أناملُه

لم تَسِقْه : أي لم تحمِلْه أناملُه من وَسَقَ يَسِقُ وَسْقًا أي حَمَل وجَمَع ، وفي روايةٍ للشطر الثاني : كقابضِ ماءٍ لم تُطِعْهُ أناملُه ، وهو مَثَلٌ لِمَنْ خاب سَعْيُه ، وكَدَّ وتَعِب فيما لا يَحصُل منه على منفعة ولا يُدْرَك منه شيءٌ . فكذٰلك المشركون لا ينتفِعُون بالأَنْدادِ أبدًا ، ولذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ** ﴾ .

* * *

٢٩ - ب - نحن عَبيدُه وتحت قهرِه وسُلطانه .

تَدلُّ كلمةُ الضَّلال والضلالةِ على معانِيَ منها : الخفاءُ ، والغِيابُ والضَّياعُ والتلَفُ والهلاكُ والبُطلان والذَّهابُ ، ويقال : ضَلَّ سعْيُه : أي عمِل عملًا لم يَعُدْ عليه نفعُه ، أو ذَهب هَباءً ، ويُقال ضَلَّ الطريقَ : لم يهتدِ إليه ، ففي الضَّلال إحباطٌ وضَياعٌ ، وقد حَبِط عملُه أي بطَل ، وأَحْبَطَ عملَه : أبطَلَه .

وهٰذه المعاني واضحةٌ في عبادة الكفارِ الأصنامَ ، وفي دعاء المشركين الأندادَ واستغاثتِهم بهم في شدائدهم ، إذ هي ذاهبةٌ مع الريح ، وضائعةٌ على أصحابها ، ومُحْبَطَةٌ ، وعلى غيرِ هِدايةٍ ، وباطلةٌ ، وقد خُتِم مَثَلُ باسطِ كفَّيه إلى الماء ليبلُغَ فمَه ، وما هو بواصلٍ إليه لبيان عدَمِ جدْوىٰ دعاءِ غيرِ اللهِ عَزَّ وجل ، خُتِم لتأكيد هٰذا المعنىٰ بقوله تعالىٰ : ﴿ **وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ** ﴾[1] أي في ضَياعٍ وخَسارٍ وبُطلانٍ بسبب الشركِ ، وتقديمِ العبادةِ لغيْرِ مُستحقِّها ، أي إلى الأصنامِ أو القبورِ أو الأمواتِ أو غيرِ ذٰلك من المخلوقات التي تُعبَد من دون الله .

وقال ابنُ عباسٍ : أي أصواتُ الكفَّارِ محجوبةٌ عن الله ، عزَّ وجل ، فلا يُجيبُ سبحانه دعاءَهم .

ولقد عُنِي القرآنُ الكريمُ بالتوحيد عنايةً كبيرة ، إذ هو الأساسُ في بناء

---

(١) الرعد : ١٤ .

شخصيةِ المؤمن بناءً سليمًا على استقامةٍ ، وهدايةٍ ، وقد نَبَّه القرآنُ العظيمُ ذوي البصائرِ والألبابِ إلى إخلاص العبادةِ للهِ وحْدَهُ ، وعدمِ تقديم شيءٍ منها كالنذْر والدعاءِ والاستعانةِ والاستغاثةِ والتوكُّلِ إلى غير اللهِ عزَّ وَجَلَّ ، إذْ في التضرُّع إلى غيرِ اللهِ ودعائِه خسرانٌ مبينٌ وبُعْدٌ عن الطريق المستقيم ، وانحرافٌ عن الجادَّة ، وضياعٌ وهلاك .

إنَّ الذين يُوجِّهون دعاءَهُم إلى ما لا يَمْلِكُ ضُرًّا ولا نفعًا لفي خَيبة وضلال ، إذ النفعُ والضرُّ بيد اللهِ وحده لا شريكَ له في مُلكه ، وقد تنزَّه عن الحاجة إلى الولد وعن مشابهةِ المخلوقين ، وهو سبحانه في رحمته بعباده لا يحتاجُ إلى شفعاءَ بينَه وبينَهُم ، وإن الذي يدعُو غيرَ الله لفي ضَياع شديد ، وضلالٍ بعيد ، كما بَيَّن سبحانه لعباده في قوله مُحذِّرا من الشرك : ﴿ **يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَالَا يَضُرُّهُ وَمَالَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ * يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ** ﴾[1] .

قال مجاهد : يعني يدعو الوثَنَ ، فقد عبدوه تَوهُّمَ أنه يشفعُ لهم يومَ القيامة ، ولكنهم صاروا إلى شقاءٍ أَبَدِيٍّ وعذابٍ مُقيم .

وقد نَعَىٰ إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام على قومه عدمَ استخدامهم العقلَ استخداما صحيحا ، إذ كيف يَقْبلُ عقلٌ سليمٌ ، وَفِكْرٌ مُستقيمٌ أن يقف ضارِعًا أمام مخلوقٍ من البشر أو صَنمٍ أو شمسٍ أو قمرٍ أو قبرٍ مُستغيثا داعيًا ، والمخلوقُ لا يملِكُ لنفسه شيئًا مِّن ضُرٍّ أو نَفْع .

قال إبراهيم موبِّخا قومَه على عبادتهم الأصنامَ منكِرًا ذٰلك أشدَّ الإنكار :

---

(١) الحج : ١٢ و ١٣ .

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

والحق تبارك وتعالىٰ يقول : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾[2] .

وفي سورة الرعد بعد أن بيّن اللهُ عزَّ وجل لعبادِهِ أن دعاءَ الكافرِ وعبادتَه في ضَياعٍ وضَلالٍ ساق لعباده الأدلةَ على قُدرته ، وعَظَمتِه ليعبدوه وَحْده ، ولينبذُوا الأندادَ والأصنامَ ، ولنتدبر قوله سبحانه : ﴿ وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[3] أي وينقادُ لعظمته سبحانه كلُّ شيء ، فهو سبحانه ذو العظمةِ وكَمالِ السلطانِ والقدرةِ الذي قَهَر كلَّ شيء ، ودان له كلُّ شيءٍ ، ولهٰذا يسجدُ له كلُّ شيء : من المؤمنين يسجدُون بأبدانهم طاعةً لربِّهم وإذعانًا لأمره ، وإقرارًا بفضله ، وَكَرْهًا من كل مخلوقٍ من المؤمنِ والكافرِ يسجدُ من حيث إنَّه مخلوقٌ ، يسجدُ دِلالةً وحاجةً إلى الصانع سبحانه وتعالىٰ .

قال الزجاج : سجودُ الكافرِ كَرهًا ما فيه من الخضوع وأثرِ الصنعة ، إنَّ كلَّ مَن في السمٰوات والأرضِ من المخلوقات كالملائكة والبشرِ والجنِّ فيهم من آثار الصنعةِ ما يَدُلُّ على وجود الصانع الحكيمِ ، وفيهم من الغرائب والعجائبِ والتباينِ والتسخيرِ ما يُبْرِهنُ على وحدانية الخالق ، وعلى كمال قدرتِه ، وكَمالِ عظمتِه وسلطانِه وتفرُّدِه بالإلٰهية ، وإن المتأمِّلَ يجدُ أن الناس وجميعَ الخلْق لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ، وأن أحدًا لا يمكنه أن يدفعَ عن نفسه ضُرًّا قُدِّر

---

(١) الأنبياء : ٦٦ و ٦٧ .

(٢) الأحقاف : ٥ .

(٣) الرعد : ١٥ .

عليه ، أو أنْ يجلِبَ لنفسه منفعةً لم تُقدَّر له ، مما يؤكد خضوعَ الخلْق لإرادة الخالقِ سبحانه وتعالىٰ .

والمعنىٰ العامُّ للسجود هو الخضوعُ ، مِن سَجد سُجودًا أي خَضَع وتَطامَن فهو ساجِدٌ وهُم سُجَّدٌ وسُجودٌ ، ويقال : سَجد المؤمنُ أي وضَع جبهته على الأرض ، فالمؤمن يَمْتَازُ بالانقياد والطاعة وأداءِ الصلاةِ والسجودِ تذلّلًا بين يدي الربِّ سبحانه وتعالى .

إن الله عز وجل هو مالكُ أمورِنا في الدنيا والآخرةِ ، وقد وَجَبَتْ علينا طاعتُه والإذعانُ لأمره : ﴿ **ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾[1] .

وفي حوار إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام قومَه وقد عَكَفُوا على أصنامٍ لهم يعبدونها من دون الله ، ويتضرعون إليها بَيَّن لهم عليه السلامُ أن صاحب الحقِّ في العبادة هو مالكُ أمورِ الناس ، وبيده وحده حياتُهم وموتُهم ، وسلامتُهم ومرضُهم ، وإليه وحده مصيرُهم ، ولنتدبر قولَه تعالىٰ على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ** ﴾[2] .

فَبيَّن لهم بُطلانَ عملهم ، وسوءَ تفكيرهم ، وفسادَ معتقدهم فقال : ﴿ **قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ** ﴾[3] .

وفي الاستفهام توبيخٌ وَإنكار ، وقد جاء لتقرير الحُجَّةِ ، فإذا لم ينفعوكم ولم يضرُّوا ، فما معنىٰ عبادتِكم لها ؟ إذ الإنسانُ العاقلُ لا يعمل عملًا إلا إذا كان فيه مَنفعة من جلْبِ نفعٍ أو دَفعِ ضُرٍّ .

---

(١) الأنعام : ١٠٢ .

(٢) الشعراء : ٦٩ : ٧١ .

(٣) الشعراء : ٧٢ و ٧٣ .

وقد أفحمتهم حجةُ إبراهيمَ عليه السلامُ ، فلم يَجدوا رَدًّا ولا جَوابًا ولا حُجَّةً لهم في عبادتهم إيَّاها ، فَنَزَعُوا لذٰلك إلى التقليد من غير حجةٍ ولا دليلٍ ، وكان منطقُهم : ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1] .

فأعْلَمَهُم إبراهيمُ عليه السلامُ أنه تبرأ مِمَّا يعبدون إلَّا الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] إذ الأصنامُ عدوةٌ لمن عَبَدَها يومَ القيامة .

ثم بَيَّنَ أنَّ الإلٰـه واحدٌ وأن العبادةَ تكون لله وحده ، لأنه هو وحدَه الذي يملكُ الـهدايةَ والرزقَ وبيده وحده المرضُ والشفاءُ ، وهو الذي أحيانا ويُميتنا ويَبعثنا بعد الموت ، ورجاؤنا إليه وحده في رحمته وعفوه وجوده وكرمه يوم لا ينفع مالٌ ولا ولدٌ ولا جاهٌ إلا مَن أتىٰ الله بقلب سليم .

ولنسمع متدبرين ما جاء على لسانه عليه السلام : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[3] أي : أرجو مغفرةَ الخطايا ، وسترَ الذنوب والعيوبِ يومَ الجزاء حيث يُجازَىٰ العبادُ بأعمالهم ، وفي هـٰذا اليوم العظيمِ يتحسَّر أهلُ الشركِ والإلحاد ، ويتمنَّون أن يكونوا تُرابًا ، أو يُردُّوا إلى الدنيا ، كما قال سبحانه من سورة الأنعام : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] . وأنَّى لهُم ذٰلك ؟

وإن أدلَّةَ التوحيد واضحةٌ جليةٌ ، ولله وحده الخلقُ والأمرُ ، والجميعُ عبيدُه وتحت قهرِه وسلطانه ، والفوزُ للمتدبر المتعظِ الذي يعود إليه رشدُه ، ويُخلِصُ

---

(١) الشعراء : ٧٤ .
(٢) الشعراء : ٧٥ : ٧٧ .
(٣) الشعراء : ٧٨ : ٨٢ .
(٤) الآية : « ٢٧ » .

العبادةَ لربِّه ، ويؤمن بنَبيِّه محمدٍ ﷺ ويقتدي به .

وفي سورة الرعد تَتابَعَ سياقُ الآياتِ وتتابعت الأمثالُ على إثبات التوحيد ، وإبطالِ الشرك وبيانِ فساده ، فله سبحانه يخضعُ كلُّ مَن في السمٰوات والأرض طوعًا وكَرْهًا ﴿ وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ أي ظلالُ الخلْق ساجدةٌ لله تعالىٰ وخاضعةٌ بالغدو والآصال ، أي بالبُكُر - بضمتين - جَمْعُ بُكْرة وهو أولُ النهار ، والآصالُ وهو جمْعُ أَصِيل وهو آخرُ النهار ، لأن الأجسامَ تميل ظلالُها من ناحيةٍ إلى ناحية في هٰذين الوقتين تَبعًا لشروق الشمس ثم ميلِها نحو الغروب على سَنَنٍ لا يتخلف ، كما في سائر الظواهر الكونية كتعاقُب الليل والنهار ، وخروج الشمس من المشرِق أولَ النهار ونحو ذٰلك إلى أن يأذنَ الله عز وجل بخراب هٰذا العالم ، وتَبَدُّلِ نظامِه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1] فسبحان مالكِ الملكِ ، ومدبِّرِ الأمرِ ، سبحان الغنيِّ عن الشريك والولدِ والمشيرِ والوزيرِ ، هو الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ إن مِّن شيء إلا يُسبح بحمده ، والجميعُ عبيدُه وفقراءُ إليه سبحانه .. سبحانه .

بعد أن بَيَّن السياقُ في سورة الرعد أن كلَّ مَن في السمٰوات والأرض خاضعٌ لقدرة الله ، منقادٌ لإرادته في كلِّ وقتٍ وحين ، وطوعًا أو كَرْهًا بحسب ما يُريد سبحانه ، عاد السياقُ إلى توجيه الكلامِ إلى المشركين ليُلزمهم الحجةَ ، ويُقنِعَهم بالدليل ، وبضربِ الأمثال ليُقِرُّوا لله بالوحدانية ، وشمولِ القدرة وكمالِ الإرادة ، وأنه لا معبودَ بحقٍّ سِواه ، ولا ربَّ غيرُه ، ولنتدبر : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ... ﴾[2] .

آمنت بالله ، وأطلب عفوه ورضاه .

---

(١) إبراهيم : ٤٨ .

(٢) الرعد : ١٦ .

٢٠ - ج - هل تستوي الظلماتُ والنورُ

بَيَّن اللهُ سبحانه وتعالىٰ لعباده في سورة الرعد ، أن كلَّ مَن في السمٰواتِ والأرضِ خاضعٌ لقدرته عزَّ وجل ، منقادٌ لإرادته ، محكومٌ بالنواميس والسُّنَنِ الإلٰهية في الغُدوِّ والآصَال ، في أولِ النهار وآخره ، وفي كل وقتٍ وحين ؛ طوْعًا أو كَرهًا بحسب ما يُريدُ سبحانه وتعالىٰ ، فجميعُ الخلْق تَجْرِي عليهم أحكامُ القضَاء والقدَر ، وجميعُ العقلاءِ يلجئُون إلى الله في شدائدهم ، كما يلجأُ أهلُ الإيمانِ من الثَّقلَين إلى الله عز وجل في الرخاء والشدَّة عن رغبةٍ فيما عند الله من الرحمة والإحسان :

﴿ **قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُون** ﴾[1] .

إذ إن أهْلَ الشِّرك والكفرِ يعرفون رَبَّهم في شدائدهم ، فتتعلقُ قلوبُهم بالرجاء في انفراجِ الأزمةِ ، وزوالِ الشِّدَّةِ ، وَيَجْأَرون إلى اللهِ داعين مُتضرِّعين ، كما فعل ذٰلك الطبيبُ الألمانيُّ في قصةٍ أُذِيعت منذ سِنين ، وكانت له بِنْتٌ واحدةٌ تعلَّقَ بها قلبُه ، وكان هو مِمَّن يأخذون أنفسَهم بالمذهَب الماديِّ الإلحاديِّ الذي لا يُؤمن بالغيْب ، ويُنكِرُ وجودَ اللهِ ، ثم مَرِضَتْ الطفلةُ مَرضًا عُضَالا ، وَعُرِضَت على نُطُسِ الأطباءِ وحُذَّاقهم في حِينه ، وزاد تعلقُ الطبيبِ الوالِدِ بابنته ، والتمس لها

---

(١) الأنعام : ٦٣ و ٦٤ .

الدواءَ والعلاجَ ، وكان هـٰذا الوالدُ معروفًا بين الأطباءِ الألمانِ بخضوعه لفكْرِ المذاهبِ الماديةِ التي شاعت في الدول الأوربيةِ بعد ظهورِ عصرِ الصناعة ، وشيوعِ الفكْرِ الإلحاديِّ الذى يَهْدف إلى هَدْم الإنسان ، والحطِّ من كرامته ، وحَبْسِ فِكْرِه في مضايقِ العالمِ الطينيِّ مع إنكار الجانبِ الروحيِّ في الإنسان ، وعدمِ الإيمانِ بعالمِ الغيْب .

بَذل هـٰذا الطبيبُ الوالدُ يُعاونُه نُطُس الأطباءِ الجُهْدَ في الْتماس الدواءِ للطفلة المريضة ، وكانت الطفلةُ تَذْوِي كلَّ يوم كالوردة يُصيبها الذبولُ ، فتجفُّ ساعةً بعدَ ساعة ، والوالدُ الطبيبُ تزداد آلامُه ، كما تزداد حَيرتُه أمام مَرَضِ ابنتِه ، وذبولِها ، وضمورِها يومًا بعد يوم ، وفي الساعة التي كانت تُعالِجُ فيها الطفلةُ سَكَراتِ الموْت ، ووالدُها بجوراها ، وحولَها مجموعةٌ من الأهل والأطباءِ ، صدرت عن الوالد صيحةٌ من قلبه قائلا ما ترجمته : يا ربِّ ابنتي ، يا ربِّ اِشْفِها وأَبْقِها لِي ، وَتَطَلَّعَ إليه الحاضرون فى دهشة ، وَهَتَفُوا به : أعرفْتَ رَبَّك يا فلان ؟[1] .

نعم . إن كل إنسان مهما كان اتجاهُه وفكرُه يشعرُ شعورًا ضروريا بأنَّ له ، ولهـٰذا الكون العظيم من حوله إلـٰهًا واحدا عالِمًا قديرا له كمالُ الحِكمةِ وكمالُ التدبير ، وكم من مُلحدٍ ومشركٍ لجَأ ويلجأُ إلى الله عندما تَضِيقُ به الحياة ، ولا تنفعُه الأسبابُ وتحاصِرُ الشدائدُ نفسَهُ وقلبَهُ ، فلا يَجِدُ عندما تَضِيق عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ ، وقد ضاقت عليه نفسُه لا يجدُ عندَئِذٍ ملجأً من الله إلا إليه سبحانه وتعالىٰ : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى**

---

(١) هذا ملخّص لقصة أوردها الشيخُ عبد الرحمن الجديلي في إحدى محاضراته الإذاعية التي جُمعت في كتاب قبل أكثر من ثلاثين عاما .

ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وهَـٰذا سؤالٌ من سورة النـمل موجَّهٌ للفطرة الإنسانية ، وللضمائر الحيَّة ، والقلوب والعقول : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

ولنتدبر قولَ الحكيم الخبير من سورة النَّحل : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[3] .

ويقول سبحانه لعباده ليتدبَّروا في عَظَمة المُلك ، وقُدرة المَالك سبحانه ، وكمال سلطانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا * أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾[4] .

تَبِيعًا : أي نَصِيرًا ، أو مُطالِبًا بالثأْر مِنَّا .

---

(١) يونس : ٢٢ و ٢٣ .

(٢) النـمل : ٦٢ .

(٣) الآيتان : ٥٣ و ٥٤ .

(٤) الإسراء : ٦٧ : ٦٩ .

فَسُبحانَ مَن يَستدرِجُ عبادَهُ بالنِّعَم ، وَيَخْتَبِرُهم بالأَمْن والخيْر ، سبحان مَن يسجُد له كلُّ مَن في السمـٰواتِ والأرضِ طوْعا أو كَرْها ، وَظِلالُ خَلْقِه ساجدةٌ لهُ سبحانه بالغُدوِّ والآصالِ ، خاضعةٌ لإرادته يُصَرِّفُها على ما يَشاء ، فهـٰذه الظلالُ تَميل من جانبٍ إلى جانب ، مُرتبطةً بالنِّظام الكونيِّ وَحَرَكَةِ الشمسِ بين الصباحِ وآخرِ النهارِ على النَّحْو المقدَّرِ علىٰ مُقْتَضىٰ حكمةِ المدبِّرِ الحكيمِ إلى أن تُبَدَّلَ الأرضُ غيرَ الأرض والسمـٰواتُ ، ويَبْرزَ الخلْقُ لله الواحدِ القهارِ للحساب فالجزاءِ : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾[1] .

مَن ربُّ السمـٰواتِ والأرض ؟ :

وفي سياق الآياتِ من سورة الرعدِ أُعِيدَ الكلامُ مع هـٰؤلاء الَّذين يَجعلون لله نِدًّا ، ويتقرَّبون إلى غير الله بالقرابينِ والدُّعاء والنَّذرِ لإلزامهم بالحُجَّة ، وإقناعِهم بالدليل ، لِيُقِرُّوا بوحدانيةِ الله عزَّ وجل وبشمول قدرتِه ، وكمالِ إرادتِه ، وبأنَّه لا معبودَ بحقٍّ سِواه ، ولا ربَّ غيرُه ، ولذا أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يقولَ للمشركين : ﴿ **قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ** ﴾[2] .

يُقرر اللهُ عز وجل أنه لا إلـٰهَ إلا هو ، لأنَّ المشركين مُعترفون أنه سبحانه وتعالىٰ هو الذي خَلَقَ السمـٰواتِ والأرض ، وهو رَبُّها وَمُدبِّرها ، وهم مع هـٰذا قد اتَّخَذوا مِن دُونه آلهةً يَعبدُونهم ، وأولئكَ الآلهَةُ لا تَملِك لنفسها ولا لعَابِديها

---

(١) المؤمنون : ١١٥ .

(٢) الآية : ١٦ .

بطريقِ الأولى ﴿ نفْعًا ولا ضرًّا ﴾ ، أي : لا تُحصِّلُ منفعةً ، ولا تَدفع مضرَّةً ، فهل يَستوي من عَبَد هـٰذه الآلهةَ مع اللهِ ومَن عبدَ اللهَ وحْده لا شريكَ له وهو على نُورٍ من ربه ؟

إن الذين يعبدون الأصنامَ وغيرَها من الـمخلوقات كالشمس ، والقمرِ ، والقبرِ ، والبقرِ يعترفون بأن الله هو خالقُ السمـٰواتِ والأرضِ ، وهو الرزَّاقُ المُنعمُ الـوهَّابُ كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] ، أي فإذا كان هـٰذا هو اعترافَهُمْ ، فَلِم يعبدون غيرَ الله ؟ وذٰلِكَ الغَيرُ لا ينفعُ ولا يضرُّ ، وإذا أُريد بالعبد شرٌّ لا تستطيعُ هـٰذه الآلهةُ أن تَردَّه عنه ، وإذا قُدِّر له خيرٌ لا تَقوىٰ على مَنْعه لأنها لا تملكُ مع اللهِ شيئا ، ولذا جاء في آيةِ الزمَر : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1] .

وفي هـٰذا إلزامٌ بالحجَّة ، وتنويرٌ للبصيرة والعقلِ ، وقد ضَرب اللهُ عزَّ وجلَّ لهم مثَلًا في آيةِ الرعدِ فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي قل لهم مُصوِّرًا سخيفَ آرائِهم مُفنِّدًا قبيحَ مُعتقداتِهم : هل يَستوي مَنْ لا يُبْصِر شيئًا ، ولا يَهْتَدي لـمحجَّةٍ يَسْلُكُها إلا بأن يُهْدَىٰ بدليل ، والبصيرُ الذي يَهْدِي الأعمىٰ لسلوك الطريقِ ؟ لا شَكَّ أن الجوابَ أنهما غيرُ مُتساويين ، فكذٰلِكَ لا يستوى المؤمنُ الذي يُبصرُ الحقَّ ، والمشركُ الذي لا يُبصِرُ الحقَّ ، وشتَّان بين مَن يعيشُ على هدايةٍ وبصيرةٍ وَمَن يَقْضِي حياتَه في ضلالةٍ وتخبُّط . وقيل : الأعمىٰ مَثَلٌ لما عبدُوه من دون اللهِ ، والبصيرُ مَثَلُ الله تعالىٰ .

---

(١) الزمر : ٣٨ .

ثم ضَرَبَ مثَلًا للكُفر والإيمان فقال : ﴿ **أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ** ﴾ أي بل هل تَستوي الظلماتُ التي لا تُرَىٰ فيها الطريقُ فتُسْلَكَ والنورُ الذي تُبْصَرُ به الأشياء ، ويجلُو ضَوءُه الظلام ، لا شكَّ أن الجواب عن ذٰلك أن النور في هدايته والظلامَ في تَغطيته وَمَحاذِرِه لا يستويان ، فكذٰلك الكفرُ بالله صاحبُه منه في حيرة ، يَضْرِبُ أبدًا في غَمرة لا يَهْتدِي إلى حقيقة ولا يَصِلُ إلى صَواب ، والإيمانُ بالله صاحبُه مِنه في هداية ورشادٍ فهو يعملُ على عِلْمٍ بربِّه ومعرفةٍ منه بأنه سبحانه يُثيبه على إحسانه ، ويُعاقبُه على إساءته ، ويَرزقُه من حيث لا يحتسب ، ويكلؤُه بعنايته في كل وقت وحين ، والمؤمنُ يفوِّضُ أمرَه إلى ربِّه إذا أظلمت الخطوبُ ، وتعقَّدت في نظره الأمور ، وادلْـهمَّت الحوادث .

فانظر كيف صُوِّرت المعاني ، وأُبرِزت خَفِيَّاتُ النفوسِ والقلوبِ في صورةٍ محسوسةٍ مع المقابلة والتضادِّ بين الأعمىٰ والبصيرِ والظلماتِ والنورِ مِمَّا يزيدُ المعنىٰ وضُوحا ويُقَرِّبه ، ويجعلُه أشدَّ تأثيرا في النفس ، وأقوىٰ إلزامًا بالحجَّة وإقناعًا للعقل . فسبحان مَن لا نِدَّ له ولا مثيلَ .

* * *

٢١ - د - الله خالق كل شيء فكيف يُعبد غيره .

قال تعالىٰ من سورة الرعد : ﴿ **أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ** ﴾[1] وَهَـٰذا مِن تَمام الاحتجاج على المشركين بَعْد أَنْ ضَرَبَتْ آيةُ سُورة الرعْد المثَلَ للكُفر بالظلمات وللإيمان بالنور ونَفَت الاستواءَ بينهما ، كما نَفَت الاستواءَ بين المؤمنِ الذي يُشبِهُ البصيرَ إذ يقودُه إيمانُه في مسالكِ الخيرِ ويُجنِّبه مزالقَ الهَوىٰ والشبهاتِ والشهواتِ ،نَفَت الاستواء بينه وبين المشركِ الذي يُشبِهُ الأعمىٰ إذ يدفعُ به الشركُ إلى ظلمات الحَيرةِ ، وأسبابِ الهلاكِ فيعيشُ مُتخبِّطًا ضائعًا بسبب شِرْكه وإلحادِه ، بَعْد هَـٰذين المثَلَيْنِ ساقت الآيةُ الكريمةُ الحجَّةَ على أنَّه لا ينبغي أن يُجعَلَ المخلوقُ كالخالق سبحانه وتعالىٰ فيُعبدَ مِن دون اللهِ : ﴿ **أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ** ﴾ أي : أخَلَق غيرُ الله مِثْلَ خلقه سبحانه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون خلْقَ الله من خلق آلهتهم ؟ . أو كما يقول ابن كثير : أي أجعل هـٰؤلاء المشركون مع اللهِ آلِهَةً تُنَاظِرُ الرَّبَّ وَتُماثِلُه في الخَلْق فَخَلَقُوا كَخَلْقِه؟ ﴿**فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**﴾ أي: فاشتبه عليهم أمرها فيما خلقت وخلق اللهفجعلوها له شركاء مَن أجل ذلك ، والاستفهام لإنكار الوقوع أي أن يكون هناك اعتقاد بوقوع خلق كخلقه سبحانه أي : إنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه فظنوا استحقاق هذه الأنداد العبادة لأجل ذلك ، بل إنما هم جعلوا له شركاء عاجزين ولا قدرة لهم

---

(١) آية : ١٦ .

على ما يقدر عليه الأحياءُ من الخلق فضلا عما يقدر عليه الخالقُ، ولكن الذي أعماهم هو الجهل والبعد عن الصواب ، فإن اللهَ سبحانه وتعالىٰ لا يُشابِهُه شيءٌ ، ولا يُماثله ، ولا نِدَّ له ، ولا عِدْلَ له ، ولا وزيرَ له ، ولا ولدَ ولا صاحبةَ – تَعَالىٰ ٱللَّهُ عَنْ ذٰلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا – ، وإنما عَبَد هٰؤلاء المشركون معه آلهةً هم يَعترفون أنها مخلوقةٌ له ، وعبيدٌ له ، وكان هٰذا الاعتقادُ يَرِدُ في تلبية مُشركي العربِ قبل الإسلام ، إذ كانُوا يقولون : « لَبَّيكَ لا شريكَ لَك ، إلا شَرِيكًا هُوَ لَكَ ، تَمْلِكُه وَمَا مَلَك » أخرجه مسلم في كتاب الحج . وقد أخبر الله عز وجل عن المشركين بأنهم يُؤمنون بوجود اللهِ وإنما يَعبدون الأصنام وغيرَها ليقربُوهم إلى الله ، ويَشفعُوا لهم عنده سبحانه ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ** ﴾[1] وقد أمر اللهُ عَزَّ وجل بإخلاص العبادةِ له سبحانه : ﴿ **أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ** ﴾[1] ، وقد قال سبحانه لنبيِّه والأمرُ لكلِّ المؤمنين ، والحثُّ على التوحيد والإخلاصِ لجميعِ الإنسِ والجِنِّ : ﴿ **فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ** ﴾[2] .

أنكر اللهُ عز وجل على المشركين اتِّخَاذَهم أولياءَ من دون اللهِ يعبدونهم ليقَرِّبوهم إلى الله زُلْفَىٰ ، فهٰذا اعتقادٌ خاطئٌ ، وَعَمَلٌ باطل ، فهو سبحانه لا يُشَفِّعُ عنده أحدًا إلا بإذْنِه : ﴿ **وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ** ﴾[3] ، وقال سبحانه من سورة النَّجم : ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ**

---

(١) الزمر : ٣ .

(٢) الزمر : ٢ .

(٣) سبأ : ٢٣ .

﴿ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[1] ، وقال سبحانه من سورة مريم : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾[2] ، فإذا كان الجميعُ عبيدًا لله عَزَّ وجَلَّ ، فلِمَ يَعْبُدُ بعضُهم بعضًا بلا دَليلٍ ولا بُرهان ، بل بمجردِ الرأْيِ والاختراعِ والابتداع ؟ . وقد أرسل اللهُ عز وجل رسلَه من أولهم إلى خاتَمِهم النبيِّ محمدٍ ﷺ تزجُر الناسَ عن عبادة غيرِ الله ، وتنهاهم عن دعاءِ مَن سِوى الله ، فكَذَّب أهلُ الشركِ والضلالِ والإلحاد الرسلَ ، وعاندوهم ، وخالفُوهم فحقَّت عليهم كلمةُ العذَاب ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[3] .

وبعد أن ضَربت آيةُ الرعد الأمثالَ وقَدَّمت الأدلةَ على بُطلان الشرك وإثباتِ التوحيدِ ، قال الله عز وجل لنبيِّه ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ أي قل لهم يا محمدُ مبينًا لهم وَجْه الحقِّ وصفوةَ العقيدةِ الصحيحةِ : اللهُ خالقُ كُلِّ شيءٍ فَلَزِمَ لذٰلِكَ أن يَعْبُدَهُ كلُّ شيءٍ ، اللهُ خالقُ البشر ، وخالقُ الأوثان ، وخالقُ الجنِّ ، وخالقُ الكونِ كلِّه سمائِه وأرضِه بحارِها ويابستِها ، وإنَّ جميعَ الأنبياء عبيدُه فهو خالقُهم ورازقُهم كغيرهم من الناس ، وهو سبحانه الفردُ الذي لا ثانِيَ له ، والواحدُ قبلَ كلِّ شيء ، و « القهَّارُ » الغالبُ لكل شيءٍ الذي يَغلِب في مرادِه كُلَّ مُريد سِواه . فكيف تَجعلُون له وَلَدًا ؟ وكيف تَعبدون غيرَهُ تُشرِكُون به ما لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ ؟ .

يقول سبحانه من سورة المائدة : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[4] .

وفي هٰذه الآيةِ إنكارٌ على مَن عَبَد غيرَ اللهِ من الأصنام والأندادِ والأوثان ،

---

(١) الآية : ٢٦ .
(٢) الآيات : ٩٣ : ٩٥ .
(٣) الكهف : ٤٩ .
(٤) الآية : ٧٦ .

وإقامةُ الحجةِ على مَن اتخذوا عيسىٰ عليه السلام إلـٰهًا ، وتَبْيينُ أَنَّ أحدًا ولا شيئا يستحقُّ شيئا من الإلهٰية ، لأنَّ الله واحدٌ لا شَريك له ولا ولدَ ، ولا مثيلَ ، أي « قُل » يا محمدُ لهٰؤلاء العابدين غيرَ الله من سائر فِرقِ بَني آدمَ ، ومنهم اليهودُ الذين جعلوا عزيرَ ابنًا لله ، والنصارى وغيرُهم من أهل النِّحَل المنحرفةِ ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي لا يَقْدِرُ علىٰ إيصال ضررٍ إليكم ، ولا إيجادِ نفع ، ومنهم المسيحُ عليه السلام الذي تُقِرُّون أيها النصارى أنه كان جَنِينًا في بطْن أُمِّه لا يَمْلِكُ لأحد ضَرًّا ولا نَفْعا ، وتُقِرُّون – أيضا – أنه عليه السلامُ كان في وقتٍ من الأوقات وفي حالٍ من الأحوال لا يسمعُ ولا يُبصر ، ولا يعلمُ ولا يَنفع ولا يَضُرُّ . فكيف اتخذتموه إلـٰها ؟ وهو عبدٌ من عباد اللهِ وُجِدَ بعد أن لم يكن ، وسيموتُ ثم يُبعث مَثَلُهُ في ذٰلك مَثَلُ العِباد جميعِهم ﴿ وَٱللهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي لم يزل سبحانه سميعًا عليمًا يَملك الضرَّ والنفعَ ، وَمَن كانت هـٰذه صفتَه فَهُو الإلـٰهُ على الحقيقة ، فَلِمَ عَدَلْتُم عن إفراد السميعِ لأقوالِ عبادِه ، العليمِ بكل شيءٍ إلى عِبادة جمادٍ لا يَسمع ولا يُبصِرُ ولا يَعْلَم شيئا ، أو عبادةِ إنسان أو أمواتٍ ، والجميعُ لا يَمْلِكُ ضُرًّا ولا نَفْعا لغيرِه ولا لنفسِه ، إذ النفعُ والضُّرُّ بيد اللهِ وحده ، وإنَّ الجميعَ عبيدُه وتحت قَهْرِه وسلطانِه ، وهو سبحانه يسمعُ ما يقولون ويعلمُ ما يفعلون ، وما يدور في القلوب ، ويتردَّدُ في الخواطر ، لا يخفَىٰ عليه شيءٌ . وقد حَكَمَ سبحانه بتكفير فِرَقِ النَّصارىٰ مِمَّنْ قال : إنَّ المسيحَ هو اللهُ ، تَعَالىٰ اللهُ عن قولهم ، وتَنزَّه ، وتقدَّسَ علوًّا كبيرًا ، كما حَكَمَ سبحانه بتكفِير مَن قالوا : إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ مُدَّعِين أن المسيحَ وأمَّه إلـٰهان مَعَ اللهِ فَجَعَلُوا اللهَ ثالثَ ثلاثةٍ بهـٰذا الاعتبارِ ، ومنهم مَنْ قال : أبٌ ، وابنٌ ، وروحُ القُدسِ إلـٰهٌ واحدٌ ، فهم يقولون : إنَّ الابنَ

إلٰهٌ ، والأَبَ إلٰهٌ ، وروحَ القُدسِ إلٰهٌ ، فكَفَرُوا بذٰلك وضلُّوا ضَلالًا بعيدا ، وهناك أيضا اليهودُ ادَّعَوا أنَّ عُزيرَ ابنُ الله ، وادَّعت النَّصارىٰ أنَّ المسيحَ ابنُ الله ، فجعلُوا الله ثالثَ ثلاثةٍ .

وقد خَوَّفَ المسيحُ – عليه السلام – بني إسرائيلَ مِن الشرك ، وبيَّن لهم أن عاقبتَه الخلودُ في النار ، ودعاهم إلى التوحيد النقيِّ الخالص ، ولنسمع قولَ العليمِ القدير ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ** ﴾[1] أي إذا كان المسيحُ نفسُه يقول : يا ربِّ ويا اللهُ ، فكيف يدعو نفسَه أم كيف يسألُ نفسَه ؟ هٰذا مُحالٌ . ولقد تَقدَّم إليهم المسيحُ مبيِّنا أنه عبدُ الله ورسولُه وكان أَولَ كلمةٍ نَطَق بها وهو صغيرٌ في المهْد ، أنْ قال : ﴿ **إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ** ﴾[2] ولم يَقُل أبدًا : إنه اللهُ ، ولا إنَّه ابنُ الله ، بل قال : ﴿ **إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا** ﴾[2] إلى أنْ قال : ﴿ **وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾[2] وكذٰلك قال عيسىٰ عليه السلامُ في حال كُهولتِه ونُبُوَّتِه آمِرًا لبني إسْرائيلَ بعبادة الله ربِّه وربِّهم وحدَهُ لا شريك ، ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ** ﴾ أي فيعبدْ معه غيرَه ﴿ **فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ** ﴾[1] أي فقد أَوْجَبَ له النَّار ، وَحَرَّمَ عليه الجنَّة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾[3] .

وفي الصحيح أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ مُناديًا يُنادي في الناس : « إنَّ الجنَّةَ

---

(١) المائدة : ٧٢ .

(٢) راجع الآيات : ٣٠ : ٣٦ من سورة مريم .

(٣) النساء : ٤٨ .

لا يَدخُلها إلَّا نفسٌ مؤمنةٌ » وفي لفظ : مُسلِمة ، خرجه مسلم ، كتاب الإيمان كما خرَّجه ابنُ ماجة وأحمدُ عن أبي بكر .

﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[1] أي وما لهُم عندَ اللهِ ناصرٌ ولا معينٌ ، ولا مُنْقِذَ لَهُم مِمَّا هُم فيه من عذابٍ مُقيم .

ولقد دَعا اللهُ القائلين بالتثليثِ إلى التوبة والانتهاءِ عن هٰذا الاعتقادِ الباطل ، وأنذرهم بعذابٍ مُقيم وأغلالٍ وجحيمٍ إذا لم يتوبوا ، ويرجعوا إلى دين الفطرةِ دينِ التوحيدِ واتباعِ الرسلِ وخاتَمِهم النبيِّ محمدٍ ﷺ ، ولنتدبر قولَه تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] أي : إن لم يكفُّوا عن الافتراء والكذبِ والقولِ بالتثليثِ لَيَمَسَّنَّهم عذابٌ أليم من الأغلال والنَّكال . ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] وهٰذا مِن كَرَمِه تعالىٰ وَجُودِه ولُطْفِه ورحمتِه بخلْقِه ، مع هٰذا الذنبِ العظيمِ ، وهٰذا الافتراءِ والكذبِ والإفكِ يَدعوهم سبحانه إلى التوبة والمغفرة ، فكلُّ مَنْ تَاب قَبْلَ المَمات إلى اللهِ تاب عليه بفضله وإحسانِه ، فطوبىٰ لمن تاب إلى اللهِ ، وسأله سَتْرَ ذنوبه ، واسْتَغْفَرَ وعَمِلَ صَالِحًا .

* * *

(١) المائدة : ٧٢ و ٧٤ .

٢٢- هـ- الحق والباطل .

الحقُّ والباطلُ ضِدَّان مُتقَابِلان ، والحقُّ اسمٌ من أسماء اللهِ تعالىٰ أو من صفاتِه ، والحقُّ : القرآنُ ، والثابتُ بلا شكٍّ ، وفي التنزيل ﴿ **إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** ﴾[1] ، والحقُّ : العدلُ ، والإسلامُ ، والموجودُ الثابتُ ، والصِّدقُ .

والباطلُ : ضِدُّ الحقِّ . وفعلُه : بَطَلَ ، تقول : بطَل الشيءُ بُطْلًا وَبُطُولًا وَبُطْلَانًا : أي ذَهب ضَياعا وَخُسْرا ، وتقول : بطَل البيعُ : أي فَسد وسَقَط حُكْمُه ، وبطَل الدليلُ فهو باطلٌ ، وبطَل العاملُ بِطَالَةً : تَعطَّل فهو بَطَّال ، وَجَمْعُ الباطِلِ : أباطيلُ : وتقول : أَبْطَلَ فلان : أي جاءَ بالباطل ، وأبطَل في حديثه بَطَالَةً أي هَزَل في كلامه ، وأبطَل الشيءَ : جَعله باطلًا ، والأُبطولة : ما لا ثَباتَ له عند الفحْص عنه والجمعُ الأباطيلُ ، والبَطَلَةُ هم السَّحَرةُ ، والباطلُ : الأُبْطُولةُ ، وفي اصطلاح الفقهاءِ : ما وَقَعَ غيْرَ صحيحٍ من أصلِه .

وفي الحقِّ طمأنينةٌ وسلامةٌ ، وفي الباطل حَيرةٌ وضلالٌ وضياعٌ ، في الحقِّ خيرٌ وأمْنٌ وراحةٌ ، وفي الباطل شرٌّ وخوفٌ ، وقلقٌ ، في الحقِّ والثباتِ عليه قهْرٌ للشيطان ، ودحْرٌ للهوىٰ الجامح ، وفي الباطل واتِّباعِه انقيادٌ لإبليس ، وخضوعٌ للأهواء المُردِيةِ وللشهواتِ المُهْلِكَةِ ، وفي الحقِّ نورٌ وَهِدايةٌ واسْتِقامةٌ ، وفي الباطل ظَلامٌ وعِوَجٌ ، وشُبُهاتٌ مُضِلَّة .

---

(١) الذاريات : ٢٣ .

وإنَّ أهلَ الحقِّ هم أهلُ الخير والـمحبةِ والعدلِ والسلامِ والبِرِّ والرحمةِ ، أمَّا أهلُ الباطلِ فهم أعوانُ الشرِّ وأهلُ الشقاقِ والنفاقِ والظُّلمِ والجُحودِ والقسوةِ والفسادِ والإفساد ، والحقُّ ثابتٌ ، والباطلُ ضائعٌ ولا أساسَ له .

وقد رَغَّب الإسلامُ في الحقِّ واتباعه والثباتِ عليه ، وحذَّر من الباطل ، وخَوَّف من اتباعه . ودعا من زَلَّتْ به القدمُ إلى الرجوع عنه وإلى لزومِ الحقِّ ، إذ الرجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ من التَّمادي في الباطل ، فالحقُّ نافعٌ ، والباطلُ ضَارٌّ .

وفي سورة الرعدِ ضَرب اللهُ عز وجل مثَلَ الحقِّ في ثباته وبقائِه بالماءِ الذي يَنزل من السماء فَتسيلُ به الأوديةُ في قَدْرِ حاجةِ الناس ، ويمكثُ بعضُه في الأرض لمصلحتهم . كما ضَرَبَ مَثَلَ الحقِّ في دوامه ونفعِه بالمعادن التي يَنتفِع بها الناسُ في صُنع الحُليِّ والأدواتِ .

وَشبَّه سبحانه الباطلَ في عدم ثباتِه وبقائِه بزبَد الماءِ ، وزَبَدِ المعادنِ يَهيجُ ثم يضمحِلُّ ويتَلاشىٰ .

ولنتدبرْ مَثَلَ الحقِّ والباطلِ في قول الحقِّ تبارك وتعالىٰ : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ** ﴾[1] .

معاني الألفاظ :

الأوديةُ : واحدُها الوادي ، وهو الموضعُ الذي يسيل فِيه الماءُ والفُرْجَةُ بين الجَبلين ، وقد يُراد به الماءُ الجاري فيه .

---

(١) الرعد : ١٧ .

بِقَدَرِهَا : أي بِقَدْرِهَا وبمقدارِها المتفاوتِ قِلةً وكثْرةً بحسب تفاوتِ أمكنتِها صِغَرًا و كِبَرًا ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي أخذ كلُّ وادٍ بحسَبه ، فهذا كبيرٌ وَسِعَ كثيرا من الماء ، وهـٰذا صغيرٌ فَوَسِعَ بِقَدْره ، وهـو إشارةٌ إلى القلـوب وتفاوتِها ، فمنها ما يسَعُ عِلما كثيرا ، ومنها ما لا يَتَّسع لكثير من العلوم بل يَضِيقُ عنها ، وقال أبو علي : ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ ﴾ أي سال ماؤُهـا ، فَحُـذِفَ المضافُ ، قال : ومعنى ﴿ بقدَرِها ﴾ أي بقَدْر مياهِها لأن الأودية ما سالتْ بقدْر أنفسِها .

﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ .

احتمل : أي حَمَل ، والزبَد : ما يعلو وَجْهَ الماءِ حين الزيادةِ كالحَبَب وما يعلو وَجْه القِدْر عند غَلَيانِها ، والرابِي : العالي المرتفعُ فَوْقَ الماءِ الطافي عليه ، والمعنى : فجاء على وَجْه الماءِ الذي سال في هَـٰذه الأودية زَبَدٌ عالٍ عليه .

وهـٰذا مَثَلٌ ضُرِب للحقِّ والباطلِ ، فَشُبِّه الكفرُ بالزَّبَد الذي يعلو الماءَ فإنَّه يَضْمَحِلُّ وَيَعْلَقُ بِجَنَباتِ الأودية ، وتدفعُه الرياحُ ، فكذٰلك يذهبُ الكفرُ ويَضمحِلُّ .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ هـٰذا هو المَثَلُ الثاني ، وهو ما يُسْبَكُ في النَّار من ذَهَب وفضَّة ﴿ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ ﴾ أي ليُجْعَلَ حِلْيةً ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ قال مجاهد : الحديدُ والنحاسُ والرَّصاص ، وقولُه : ﴿ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ أي يعلو هـٰذه الأشياءَ زَبَدٌ كما يعلو السيلَ ، وإنما احتمل السيلُ الزبَد أي بما خالَطَ الماءَ كتُرابِ الأرضِ فصار ذٰلك زَبَدًا ، كذٰلك ما يُوقَد عليه في النار من الجَوْهر ومن الذَّهَب والفِضة مما يَنْبُتُ في الأرض من المعادن فقد خالطَه التُّرابُ ، فإنما يُوقَد عليه ليذوبَ فيُزايِلَهُ تُرابُ الأرض .

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ ﴾ أي : إذا اجتمعا لاثباتَ للباطل ولا دوامَ له ، كما أنَّ الزبَدَ لا يثبتُ مع الماء : ولا مع الذهَبِ ونحوِه مما يُسْبَكُ في النار ، بل يذهبُ ويضمحِلُّ ، ولهٰذا قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ أي : لا يُنْتَفَعُ به ، بل يتفرَّق ، ويتمزَّقُ ، ويذهبُ في جانِبَي الوادي ، وَيعْلَقُ بالشجَر وتنسفُه الرياحُ ، وكذٰلك خَبَثُ الحديدِ والنُّحاس والذَّهبِ والفِضةِ يَذْهَبُ ، ولا يَرجِعُ منه شيءٌ ، ولا يَبقىٰ إلا الماءُ ، وذٰلك الذهبُ وَنَحْوُه يُنْتَفَعُ به ، والجُفَاءُ : ما رَمَىٰ به الوادِي من الزَّبَد في جوانبه ، قال أبو عمرو بنُ العَلاء : أجفَأَتِ القِدْرُ إذا غَلَتْ حتى يَنْصَبَّ زَبَدُها ، وإذا جَمَدَ في أسفلها ، والجُفاءُ : ما أجفأَهُ الوادي أي رَمَىٰ به .

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : هو الماءُ الخالصُ الصافي ، وقيل : الماءُ وما خَلَصَ من الذهب والفضةِ والحديدِ والنحاسِ والرَّصاصِ ، وهو أنَّ المَثَلَيْن ضَرَبَهُما اللهُ للحق في ثباته وللباطلِ في اضمحلاله ، فالباطلُ وإن عَلا في بعض الأحوالِ فإنه يَضْمَحِلُّ كاضمحلال الزَّبَد والخَبَث .

تأمَّلْ هٰذا المَشْهدَ الذي تَراه العينُ ، تأمَّل ماءَ المطَر تستقبلُه الأوديةُ ، ويحتفظُ كلُّ وادٍ منها بالقدْر الذي تُطيقُه أبعادُه المكانيةُ ، والماءُ يَسيلُ وقَد حَمَل في تدفُّقِه الأخلاطَ والأوشابَ ، ثم انظُر هٰذه الأوشابَ والأخلاطَ مِمَّا لا نَفْعَ فيه يتفرَّقُ ويتبدَّدُ حتى يَستقرَّ في جانِبَي الوادي إلى أنْ تذروه الرياحُ ويذهبُ هَباء ، وَيبْقَىٰ الماءُ يَسُرُّ النَّاظِرين ، وينفعُ الناسَ ولا غِنَى لهم عنه إذْ بوجود الماء تَبْقَىٰ الحياةُ إلىٰ أن يأذنَ اللهُ عز وجل .

إنه مشهدٌ محسوسٌ ، نَرى أبعاده ، ونُحِسُّ أثَره ، ولا يختلفُ اثنان في منافع

الماءِ وفي أنَّ به حياةَ الأبدان ، وحياةَ الأرض ، فإذا كان الوادي مَثَلًا للقلْبِ ، وإذا كان المطرُ والماءُ الصافي الصالحُ الخالصُ مَثَلًا للقرآن العظيم فإنك مع التأمُّل تُدْرِكُ المعنى جَلِيًّا ، والمفهومَ بالعقل كأنه مُدْرَكٌ بالعَيْن ، فالمطرُ يعمُّ خيرُه ويبقىٰ نفعُه والأرضُ بغير الماءِ تموتُ ، وإذا انعدم الماءُ هَلكت الأبدانُ ، وبقدْر ما يُصيب الأرضَ من الماءِ بقدْر ما تَنْبِضُ بالحياة والأحياءِ وكذٰلك القلبُ بِقَدْر قوةِ إيمانه ، وما يَدْخُلُ من القرآن العظيمِ إلى هٰذا القلبِ بقدْرِ ما يكونُ له من الحياة والنورِ والـهدايةِ والرشاد .

وقد قيل : المرادُ مَثَّلَ ضَرَبَهُ اللهُ للقرآن ، وما يدخلُ منه القلوبَ ، فَشَبَّه القرآنَ بالمطَر لعموم خيرِه ، وبقاءِ نفعِه ، وشَبَّه القلوبَ بالأودية يدخلُ فيها من القرآن مِثْلُ ما يدخلُ في الأودية بحسَب سَعَتها وَضِيقِها ، قال ابن عباس : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَاءً** ﴾ قال : قُرآنا ﴿ **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ قال : الأوديةُ قلوبُ العباد .

وجاء عن عليِّ بنِ أبي طلحةَ عن ابن عباس – أيضا – في قوله تعالىٰ : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ هٰذا مَثَّلَ ضَرَبَهُ الله – أي لِمَا أَنْزَلَ اللهُ على نبيِّه محمدٍ ﷺ – احتملت منه القلوبُ على قدر يقينها وَشَكِّها ، فأمَّا الشكُّ فلا ينفعُ معه العملُ ، وأمَّا اليقينُ فينفع اللهُ به أهلَه ، وهو قولُه تعالىٰ : ﴿ **فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً** ﴾ وهو الشكُّ ، ﴿ **وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ وهو اليقينُ ، وكما يُجْعَلُ الحَلْيُ في النار فيؤخَذُ خالصُه ، ويُتْرَكُ خَبَثُه في النار ، فكذٰلك يقبلُ اللهُ اليقين ، وَيُتْرَكُ الشكُّ .

« ابن كثير نقلا عن الطبرى » .

فَرأْيُ ابنِ عباس أن الماءَ الصافِيَ الخالصَ ، وخالصَ الذَّهب والفضةِ ونحوِهما

مَثَلٌ لليقين الذي لا نجاةَ إلا به ، ولا يتمُّ إلا بالإيمان بكل ما جاء به النبيُّ محمدٌ ﷺ وما أخبر به القرآنُ والسنَّةُ من عالم الغيْب ، وبالعمل بمقتضَىٰ هـٰذا الإيمان .

ويلمح بعضُهم في حِلْية الذَّهَبِ والفِضَّةِ أنها مَثَلٌ للأحوال السَّنِيَّة ، والأخلاقِ الزكيَّةِ التي بها جمالُ الرجال ، وَقِوامُ صالحِ الأعمال ، كما أن من الذهب والفضةِ زينةَ النساء ، وبهما قيمةُ الأشياء .

وكما ينفعُ الذهبُ والفضةُ الناسَ ، وكما تنتفع الأرضُ بماء المطر إذا شَرِبت منه فتحيا بالنبات والشجرِ والخضرةِ ، فكذٰلك العملُ الصالحُ يبقىٰ لأهله ، أمَّا العملُ السيِّئ فيضمحِلُّ عن أهله ولا ينفعُهم ، كما يَذْهَبُ الزبَدُ ويتلاشَىٰ ، فكذٰلك الهُدَىٰ والحقِّ جاءا من عند الله فَمَن عَمِل بالحق كان له ، ويَبْقَىٰ كما يَبْقَىٰ ما ينفعُ الناسَ في الأرض ، وكذٰلك الحديدُ لا يُنْتَفَعُ منه بسكِّين وسيفٍ ونحوهما حتى يدخلَ النارَ فتأكلَ خَبَثَهُ ، وَيَبْقَىٰ جيِّدُه فَيُنْتَفَعُ به ، كذٰلك عند عَرْضِ الأعمالِ على عَالِم السرِّ والنَّجْوىٰ يزيغُ الباطلُ ويَهْلِكُ ، وينتفعُ أهلُ الحقِّ بالحق .

* * *

٢٢ - و - كذلكَ يضربُ اللهُ الأمثالَ.

جَعل اللهُ تعالىٰ مَثَل الباطلِ كَمَثَل الزبَدِ يطفو على وجْه الماءِ أو يَخْرجُ من المعادن عند صَهْرها ثم يتلاشَىٰ ويضمحلُّ ، وجعل مَثَلَ الحقِّ كمثَل الماءِ الصافي والمعادنِ النقيةِ التي تنفعُ الناسَ وتمكثُ في الأرض .

إننا نشربُ الماءَ ، ونَسقي به الأرضَ فتُنبتُ الزروعَ والثمارَ مما ينتفعُ به الناسُ والحيوانُ ، وإن الناس يَنتفعون بالذَّهب والفضةِ زينةً للنساء ، وفي صَكِّ النقودِ وغيرِ ذٰلك ، كما يُنْتفَعُ بالحديد والنحاسِ ونحوِهما فيما لا غِنىٰ عنه من المَتاع كأدوات الحَرْثِ والحصْدِ وفي المصانع والمعاملِ وصناعةِ السلاحِ وفي الأواني والقدورِ وغيرِ ذٰلك من المصالح والمنافع .

وإنَّ العاقلَ يحرِصُ على النافع المفيد ، ويَضِنُّ بجُهدِه وعُمرِه أن يضيعَ عبَثًا ، وإن المَثَلَ يجلُو لنا هٰذه الحقيقةَ ، ويدعونا إلى الإيمان بالحق واتباعِه والعملِ بمقتضاه ، كما نَزل به الوحْيُ على قلب خاتمِ الرسلِ والأنبياء ، وأن نجتهدَ في تَقْوىٰ اللهِ وطاعتِه بقدْر ما نستطيع ، وبذٰلك تتفاوتُ درجاتُ أهلِ الإيمانِ بتفاوت قوةِ الإيمانِ ودرجاتِها في القلوب ، وبتفاوت الأعمالِ الصالحة ، ومنازلِ أهلِ الإيمانِ في التسابق في ميدانِ الخيراتِ والمبَرَّاتِ ، وذٰلك مِثْلُ الأوديةِ يحملُ كلٌّ منها من الماء بقدْر سَعَتِه وأبعادِه .

وإن الذي يَحرص على الباطل كالإلحاد والشركِ والانغماسِ في فتنة الشهواتِ ومسالكِ الشُّبهات مَثَلُه كَمَثَل الحريص على اقتناء الغُثَاء وما يَنْفِيه

الكِيرُ من خَبَثِ الحديدِ أو الذهبِ والفضةِ مِمَّا لا منفعةَ منه ، ولا خيْرَ فيه ، ولا قدْرَ له ولا وزنَ .

قال الزجاج : « مَثَلُ المؤمنِ واعتقادِه ونفعِ الإيمان له ، كَمَثَل الماءِ المنتفَعِ به في نَبات الأرضِ وحياةِ كلِّ شيء ، وكَمَثَل نَفْعِ الفضَّة والذهبِ وسائرِ الجواهرِ ، لأنها كُلَّها تَبقىٰ مُنتفَعًا بها ، وَمَثَلُ الكافر وكُفره كَمَثَلِ الزَّبَد الذي يذهبُ جُفاء ، وكمثَل خَبَثِ الحديد ، وما تُخرِجُه النارُ من وسَخِ الفضةِ والذهبِ الذي لا يُنْتَفَعُ به » .

لقد أنزل اللهُ عز وجل الوحْي لحياة القلوبِ وحياةِ الأسماع والأبصارِ ، وإن حياةَ القلوب بالإيمان والهداية ، وحياةَ الأسماعِ بسمَاع الحقِّ واتباعِه وبالإعراض عن الباطل واجتنابِه ، وإن حياة الأبصارِ بالاعتبار بآيات اللهِ ، والنظرِ في ملكوت السمٰواتِ والأرضِ وَمَن لم يكن كذٰلك كان أَوْلَىٰ بصفة الموتِ والموتَىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾[1] .

يقول ابنُ القيِّم مُتدبِّرا هٰذا المَثَلَ القرآني : ﴿ **كذٰلك يَضربُ ٱللهُ ٱلأمثال** ﴾ شَبَّه الوحْيَ الذي أنزله لحياة القلوبِ والأسماعِ والأبصارِ بالماء الذي أنزله لحياة الأرضِ بالنبات ، وَشَبَّه القلوبَ بالأودية ، فقلبٌ كبيرٌ يَسَعُ عِلما عظيمًا كوادٍ كبيرٍ يَسَعُ ماءً كثيرًا ، وقلبٌ صغيرٌ إنما يسَع بحسَبه كالوادي الصغير ﴿ **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ واحتملت قلوبٌ من الهُدَىٰ والعِلْم بِقَدْرها ، كما أن السيلَ إذا خَالطَ الأرضَ ومَرَّ عليها احتملت غُثاءً وزبَدا ، فكذٰلك الهُدىٰ والعِلم إذا خالط القلوبَ أثار ما فيها من الشهوات والشبهاتِ لِيَقلعَها

---

(١) الكهف : ١٠٣ و ١٠٤ .

وَيُذْهِبَهَا ، كما يُثير الدواءُ وَقْتَ شُربه من البَدَن أخلاطَه – وأمراضَه – فينكربُ بها شاربُه ، وهي من تمام نَفْعِ الدواءِ فإنه أثارها لِيَذْهَبَ بها ، إذ الدواءُ لا يساكنُ الأمراضَ ولا يستقرُّ معها وهٰكذا : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ ﴾ .

وبعد هٰذا المَثَلِ المائيِّ كما يقول ابن القيم ، ذَكَرَ المَثَلَ النَّاريَّ ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ وهو الخَبَثُ الذي يَخرجُ عند سَبْكِ الذَّهبِ والفضةِ والنحاسِ والحديدِ فتخرِجُه النارُ وتميِّزُه وتَفصِلُه عن الجَوْهرِ الذي يُنْتفَعُ به فيُرمَىٰ ويطرَحُ ويَذْهَبُ جُفاء ، فكذٰلك الشهواتُ والشبهاتُ يَرميها قلبُ المؤمن ، ويطرحُها ، ويجفوها كما يطرحُ السيلُ والنارُ ذٰلك الزبدَ والغثاءَ والخَبَثَ ، ويستقرُّ في قرار الوادي الماءُ الصافي النقيُّ الذي يُسْقَىٰ منه الناسُ ، ويزرعون ، ويسقُون أنعامهم ، كذٰلك يستقرُّ في قرار القلبِ وجُدرِه الإيمانُ الخالصُ الصافي الذي ينفع صاحبَه ، وينتفعُ به غيرُه .

ثم يقول ابنُ القيم في ختام تأملاتِه في المثَل : « ومن لم يَفْقَهْ هٰذين المثَلَيْن ، ولم يتدبرْهُما ويعرفْ ما يُراد منهما فليس من أهلهما ، واللهُ الموفِّقُ »[1] .

ومن تأمُّلات الحكيم الترمذيِّ في مخطوطته : ضَرَب اللهُ مثَلًا ليُبيِّنَ الحقَّ من الباطل .. ثم قال : فقولُه : أَنزَلَ من السماء ماء ، أي القرآنَ ، شَبَّه القرآنَ بالماء : لأن فيه منفعةَ الدينِ من الأحكام والشرائع ، كما أن في المطر منفعةَ الدنيا ، ثم شَبه القلوبَ بالأودية لأنه وَجَدَ النورُ في القلب مَنْفَذًا ومَجَازًا ، كما وَجَدَ الماءُ في هٰذه الأوديةِ مَنْفَذًا ومجازا .

ثم شَبَّهَ القلوبَ بالسَّيل ، وَشَبَّه الباطلَ بالزبَد الذي يعلو فوق ، فكلُّ قلْبٍ لم يتفكَّر ، ولم يعتَبِر ، ولم يرغَب في الحق خَذله اللهُ تعالىٰ ، وَوَجَدت الظلمةُ

---

(١) الأمثال في القرآن الكريم – طبعة دار المعرفة .

والهوىٰ في قلبه مَنْفَذًا ومجَازًا ، كما أن السيلَ وجَد في الأودية منفذًا ومجازا ، فلما خُذِل هٰذا القلبُ احتمل الباطلَ كما احتمل السيلُ الزبَدَ الرابِيَ .

وإذا وَجَد القلبُ التوفيقَ فَتفكَّر واعتبر احتمل الحقَّ كما انتفع الناسُ بالماء الصافي ، ثم وَصَف الحقَّ والباطلَ لصاحبهما ، فقال : ﴿ **فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً** ﴾ . يعني تذهبُ منفعتُه ، كذا الباطلُ تذهبُ منفعتُه لصاحبه في الدنيا والآخرة .

أمَّا ما ينفع الناسَ فيمكث في الأرض ، وهو الماءُ الصافي ، كذٰلك الحق : « شَبَّه الحقَّ بالماء الصافي لأنه تَبْقَىٰ منفعتُه لصاحبه في الدنيا والآخرة ، كما يَبْقَىٰ الماءُ لِمَن أَخَذه » من كلام الحكيم الترمذي .

﴿ **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ** ﴾ أي وَمِثْلُ ضَرْبِنا لهٰذه الأمثالِ البديعةِ التي تُوضح للناس ما أُشكل عليهم من أمور دينهم ، وتُظهِرُ الفوارقَ بين الحقِّ والباطل ، والإيمانِ والكفرِ ، نضربُ لهم الأمثالَ في كل بابٍ حتى تَستَبِينَ لهم طريقُ الهُدى فيسلكوها ، وطرقُ الباطلِ فينحرفوا عنها ، وتتمَّ لهم سعادةُ المعاش والمعادِ ويكونَ أهلُ الإيمانِ المُثُلَ العُليا بين الناس : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾[1] .

وفي تفسير القرآنِ العظيم للحافظ ابنِ كثير بعد أن بيَّن المَثَلَ النَّارِيَّ والمَثَلَ المائِيَّ في الآية الكريمةِ من سورة الرَّعد ذَكَر مَثَلًا مائيًّا جاء على لسان الصادقِ الأمينِ وآخرَ ناريًّا من كلامه ﷺ ، أمَّا الأول : فقد جاء في الصحيحين عن أبي موسىٰ – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به من الهُدىٰ

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

والعِلم كمثَل غَيثٍ أصابَ أرضًا ، فكان منها طائفةٌ قَبِلَت الماءَ ، فأنبتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير ، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماءَ فنفع اللهُ بها الناسَ ، فشرِبُوا وَرَعَوْا ، وَسَقَوا وَزَرَعُوا ، وأصاب طائِفَةً أُخرى إنما هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً ، فذٰلك مَثَلُ مَن فَقُهَ في دينِ اللهِ ، ونفعَه اللهُ بما بَعَثَنِي به ، وَنَفَعَ الناس : فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَن لم يرفَعْ بذٰلك رأسًا ، ولم يقبَلْ هُدىٰ اللهِ الذي أُرسِلتُ به » .

وفي هٰذا الحديثِ الشريف تمثيلٌ وتشبيهٌ للدِّين بالغَيْث العامِّ ففي كل منهما حياةٌ ، ففي الوحْي حياةُ القلوب ، وفي الغيْث حياةُ الأرض والإنسانِ وسائرِ الحيوان ، وكما أن الماءَ يُحْيي الأرضَ بعد موتها وما عليها من شجر وزروع ، كذٰلك الوحْيُ يُحيي مواتَ القلوب وما اتصلَ بها من أعضاء البَدَنِ وجوارحِه ، وكما أنَّ قابليةَ الأرض للانتفاع بالغيْث تتفاوتُ فمنها ما يَقْبَل الماءَ وَيُنبِتُ ما ينفع ، ومنها ما يَحتفِظُ بالماء ليُنْتَفَعَ به ، ومنها ما لا يَقْبَلُ الماءَ ولا يُنْبِت ، كذٰلك الناسُ منهم من انتفع بما أنزل اللهُ على عبده ونبيِّه محمدٍ ﷺ ونَفع غيرَه ، وهٰذا هو الذي عَلِم وَعَلَّم وَعَمِلَ ، ومنهم الكافرُ الجاحدُ الذي أعرض عن الهُدىٰ والعِلم ، ومنهم — أيضًا — من عَلِمَ ولم يتفقَّه فيما جَمَعَهُ من العِلم ، أو لم يعمَل بنوافله ولكنَّه أدَّاه لغيره .

وأمَّا المَثَلُ النَّاريُّ فقد رواه أبو هريرة ، وأخرجاه في الصحيحين : قال رسولُ الله ﷺ : « مَثَلِي ومَثَلُكم كمثَل رجلٍ استوقَد نارًا ، فلمَّا أضاءت ما حَوْله جعل الفَراشُ وهٰذه الدوابُّ التي يَقَعْنَ في النَّار يَقَعْنَ فيها ، وجعَل يَحْجُزُهنَّ ، ويَغْلِبْنَه فيتقَحَّمْنَ فيها ، قال : فذٰلكم مَثَلي وَمَثَلُكم أنا آخذُ بِحُجَزِكُم عن النَّار ، هَلُمَّ عن النار ، (هَلُمَّ عن النار ، هَلُمَّ)[1] فتغلِبُوني ، فَتَقْتَحِمُون فيها » .

---

(١) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد .

واللفظُ عند البخاري : « مَثَلِي وَمَثَلُ الناسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ استوقَد نارًا فَجَعَل الفَراشُ وهـٰذه الدوابُّ تقعُ في النار » مع اختصار آخرِ الحديث وتمامُه كما عند مسلم : « فَجَعَلَ الرجلُ يَزَعُهُنَّ ويَغْلِبْنَه ، ويقْتَحِمْن فيها ، فأنَا آخذُ بِحُجَزِكم عن النَّار ، وأنتم تَقَحَّمون » .

وفي هـٰذا المَثَلِ بيانٌ لرحمة الإسلامِ بالناس ، ورحمةِ النبيِّ محمدٍ ﷺ بأمته .

* * *

٢٤ - ز - النجاة في الوقوف عند حدود الله واتباع نبيه صلى الله عليه وسلم .

« مَثلي وَمَثَلُ الناسِ كَمَثَل رجُلٍ استوقَد نارًا » هٰذا من الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة ، وفيه شَبَّه النبيُّ ﷺ نفسَه في دعائه الناسَ إلى الإسلام المنقِذِ لهم من النار ، وكثيرٌ من الناس الذين دُعُوا إلى الهُدَىٰ والنور قد زَيَّنَتْ لهم أنفسُهم التمادي على الباطل ، شَبَّه النبى – عليه السلام – نفسَه في هٰذه الحالةِ بحال رجلٍ أوقد نارا « فجعل الفَراشُ وهٰذه الدوابُّ تقعُ في النار » .

والفَراش : اسمٌ لنوع من الطير معروفٍ له أجنحةٌ أكبرُ من جُثَّته وأنواعُه مختلفةٌ في الصِّغر والكِبَر .

« وهذه الدوابُّ » أي كالبَرْغَش والبَعُوض .

« فجعَل الرجلُ يَزَعُهنَّ ويغلِبْنَه ، ويقتحِمْن فيها ، فأنا آخذُ بِحُجَزكم عن النار وأنتم تقحَّمُون » .

« يَزَعُهنَّ » : بفتح الياءِ والزاءِ وضَمِّ العَين ، أي يدفعُهن .

« فيقتَحِمْن فيها » أي يَدْخُلن ، وأصلُه من القُحْم ، وهو الإقدامُ والوقوعُ في الأمور الشاقَّةِ من غير تثبُّت .

« فأنا آخُذ » الفاء للفصيحة ، كأنَّه لمَّا قال : « مَثَلي ومثَلُ الناس » .. الحديث ، استشعر مَن يقول : فماذا بعد ذٰلك ؟ فقال : فأنا آخذُ بِحُجَزكم عن

النار وأنتم تقحَّمون » وفي الكلام التفاتٌ من الغَيْبَةِ في قوله : « مَثَلُ الناسِ » إلى الخِطَاب في قوله : « بِحُجَزِكم » لأن مَن أَخَذَ يتحدَّث عن شخصٍ له عنايةٌ بشأنه ، وهـٰذا الشخصُ منهمكٌ فيما يؤدِّي به إلى الهلاك ، فإن المتحدِّث يجدُ لشدة حرصِه على نجاته كأنه حاضرٌ أمامه يصحُّ خطابُه ، وفيه إشارةٌ إلى أن الإنسانَ إلى النذير أحوجُ منه إلى البشير ، لأن جِبِلَّةَ الإنسانِ مائلةٌ إلى الحظِّ العاجلِ دون الآجلِ .

بِحُجَزِكم : بضمِّ الحاء وفتْح الجيم جمْعُ حُجَزَة ، وهي مَعْقِدُ الإزارِ من السراويل .

وقولُه « عن النار » فيه وضْعُ المسبَّب موضِعَ السببِ لأن المرادَ منْعُ الناسِ من الوقوع في المعاصِي التي تكون سببًا لدخول النار .

« تَقَحَّمُون فيها » بثلاث فَتَحَات مع تشديد الحاء ، والأصل : تَتَقحَّمُون أي تدخلون .

وفي هـٰذا المثَلِ النبويِّ تصويرٌ رائعٌ ، وخطوطٌ واضحةٌ ، وحركةٌ ، وَدِقَّةٌ في الألفاظ ، وقوةٌ في التعبير ، وقد ساعد هـٰذا التصويرُ على إيضاح المعنى وتقريبِه والتأثيرِ به في النفوس .

قال بعض أهلِ العلم : شَبَّه النبيُّ ﷺ تهافُتَ أصحابِ الشهوات على المعاصي التي تكون سببًا للوقوع في النار بتهافتِ الفَراشِ على الوقوع في النار ، وشَبَّه دَفْعَه العصاةَ عن المعاصي بما حذَّرهم به بِدَفْعِ صاحبِ النارِ الفَراشَ عنها . وهذا يتمشَّى على تشبيه الجُملة بالجملة من غيرِ نظرٍ إلى كل جزءٍ من أجزاء المشبَّه والمشبَّه به ، وَعَقْدِ المقابلةِ بينهما .

ويرى الطِّيبيُّ أن تحقيقَ التشبيه الواقعِ في هٰذا الحديثِ يتوقفُ على معرفة معنى قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] .

وذٰلك أن حدودَ اللهِ هي محارمُه ونواهيه – كما جاء في الحديث الصحيح – ورأسُ المحارم حبُّ الدنيا وزينتِها ، واستيفاءُ لذَّاتها وشهواتِها . فشبَّه ﷺ إظهارَ تلك الحدودِ ببياناته الشافيةِ الكافيةِ من الكتاب والسنةِ باستيقاد الرجلِ النارَ ، وشبَّه مراقبتَه الناسَ وتعهدَهُم بالمواعظ ، والإرشاداتِ بِحَجْزِ المتهافتِ على النار حتى لا يقعَ فيها ، وشبَّه الناسَ وعدمَ مبالاتِهم بذٰلك البيانِ ، وهٰذا الإرشادِ ، وتعدِّيهم حدودَ اللهِ بالفَراش التي تقتحمُ النارَ ، وتغلِبُ المستوقِدَ على دَفْعها عن الاقتحام .

فكما أنَّ المستوقدَ كان غرضُه مِن فِعْله انتفاعَ الخلقِ به من الاستضاءة والاستدفاءِ وغيرِ ذلك ، والفَراشُ لجهلها جعلته سببًا لهلاكها ، ولم تُحسن الانتفاعَ بالضَّوء والدفء ، فكذٰلك كان القصدُ بتلك البياناتِ والإرشاداتِ النبويةِ الشريفةِ اهتداءَ الأمة ، واجتنابَها ما هو سببُ هلاكها ، والعصاةُ مع ذٰلك جعلوها مقتضيةً لهلاكهم ، أي باقتحامهم حدودَ الله ، وارتكابِهم معاصِيَه ، وبإفراطهم وتفريطِهم وإسرافِهم على أنفسهم .

فانظُر – ياذا اللُّب – وتأمَّل شفقةَ النبيِّ ﷺ بأمته ، وحرصَه على إبعادهم عن أسباب الهلاكِ والشَّقاوة ، وقد بيَّن للأمة الحلالَ والحرامَ ، والخيرَ والشرَّ ، وأسبابَ النجاة ، وسبلَ الطمأنينة والسلامةِ في الدنيا والآخرة ، فَمَنْ سلك طريقَه ﷺ مقتديًا به ، مُهتديًا بنور الوحْي ، عاملًا بما أمر اللهُ ، مُجتنبًا ما نهَىٰ عنه وزجَر ، مؤدِّيًا الفرائضَ ، ومجتهدًا في سائر الطاعاتِ فإنه يكون من الناجين المنتفعين بالإرشاد والتوجيهِ والوعظِ والتذكير .

---

(١) البقرة : ٢٢٩ .

أمَّا من انحرف عن طريقه ﷺ ، وفَتَنَتْه الشهواتُ ، وأضلَّته الشبهاتُ فهو من الهالكين ، مَثَلُه مَثَلُ هـٰذا الفَراشِ الذي يَرْمِي بنفسه في النار ، وَيُلقى بها في التهلُكة لنَزَقِه وطَيْشِه وسُوءِ تدبيره ، وفي الحديث الذي رواه العرباضُ بنُ سارية يقول الرسول ﷺ : « قد تُرِكْتُم على البيضاءِ ليلُها كنهارها لا يَزِيغُ عنها بَعْدي إلا هالكٌ » أخرجه ابنُ ماجةَ وغيرُه .

والمراد بالبيضاء : المِلةُ والحُجَّةُ الواضحةُ التي لا تَقبلُ الشُّبه أصلا ، وفي الحديث حَثٌّ للأمة على اتباع طريقه ﷺ والنَّهْيُ عن مخالفته ، وتبصيرُ أهلِ العقلِ والحكمةِ بالوقوف عند حدودِ الله ، ولزومِ الصراطِ المستقيم ، وعدمِ اتباعِ سبلِ الشيطان ، والله عز وجل يقول : ﴿ **وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[1] .

ومن وصايا الحبيبِ المصطفى ﷺ قولُه : « أيُّها الناسُ إنَّ لكُم مَعالِمَ فانتهُوا إلى مَعالِمِكُم ، وإنَّ لكُم نهايةً فانتَهُوا إلى نِهَايَتِكُم ، إنَّ العبدَ بَيْنَ مَخَافَتَيْن : بَيْنَ أَجَلٍ قد مَضَىٰ لا يَدرِي ما اللهُ صَانِعٌ فيه ، وبين أجلٍ قد بَقِيَ لا يَدري ما اللهُ قاضٍ فيه ، فليأخُذِ العبْدُ من نفسِه لنفسِه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشَّبِيبةِ قبلَ الكِبَر ، ومن الحياة قبلَ الموتِ ، والذي نفسي بيده ما بعْدَ الموتِ من مُسْتَعْتَب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّةُ أو النارُ » رواه جابر .

تحذير :

ومن رأفته ﷺ بأمته وخوفِه عليها من الفتن والشبهات والأهواءِ التي تُؤدي

---

(١) الأنعام : ١٥٣ .

إلى الهلاك والضياع تحذيرُه أهلَ الإسلام من الاقتداء بغير المسلمين فيما نَهَى عنه الشرع وذمَّه ، فقال ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاريُّ ورواه أبو سعيد : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلكم شِبْرًا بشِبر ، وذِراعًا بذراع ، حتى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لسلكتُموه ، قلنا : يا رسولَ الله ، اليهودَ والنصارىٰ ؟ قال النبيُّ ﷺ : فَمَن ؟

سَنَن : أي طريق ، شبرًا بشبر : منصوبٌ على النيابة عن الْمحذوف الذي أُقيم مَقَامه ، والأصل : اتباعَ شِبْرٍ متلبِّسٍ بشبر ، وفي رواية : « شبرًا شبرًا ، وذراعًا ذراعًا » قال عِياض : الشبرُ والذراعُ والطريقُ ودخولُ الجُحْر تمثيلٌ للاقتداء بغيرِ المسلمين في كل شيءٍ مِمَّا نَهَىٰ الشرعُ عنه وذمَّه .

« جُحر ضَبٍّ » الضبُّ : دُوَيبَّةٌ معروفةٌ ، قال الحافظُ بنُ حَجر : والذي يَظْهَرُ أن تخصيص جُحرِ الضبِّ لشدةِ ضيقِه ورداءتِه ، ومع ذٰلك فإنَّ المسلمين لاقتفائهم آثارَ غيرِهم واتباعِهم طريقَهم ، لو دَخلوا في مِثْل هٰذا المكانِ الضيِّقِ الرديءِ لاتَّبعوهم .

قال ابنُ بَطَّال : أَعْلَمَ ﷺ أن أمتَه ستتبع المحدَثاتِ من الأمور والبِدَعَ والأهواءَ .

وإذا كان النبيُّ ﷺ يَخشىٰ على أمته من اتباع اليهودِ والنصارىٰ فيما يضرُّ عقائدَهم وأخلاقَهم وَقِيَمَهم وفضائلَهم وطريقةَ تفكيرهم فخشيتُه ﷺ من الاقتداء بغيرهم أشدُّ وأَوْلَىٰ كالملحدين والمادِّيين الذين يُنكرون وجودَ اللهِ عز وجل .

وهٰذا الحديثُ أصلٌ عظيم من أصول الدين لو فَطِن إليه أهلُ الإسلام لَمَا

صِرْنا في مظاهرنا في كثير من بلدان المسلمين ، وفي المواسم والأعيادِ على حالةٍ لا تتصلُ من تعاليمِ الشرعِ بسبب ، وتأمَّل أحوالَ المسلمين في كثير من ديارهم تجِدْ التقليدَ الأعمىٰ أنْهكَ قُواها ، وَبَدَّدَ شَملَها ، وساق كثيرًا من أبنائها في طريق الغَواية والشقاءِ والانحرافِ عن صراط اللهِ المستقيم . ومع هـٰذه الآثارِ التي بلغت الغايةَ في السوء فما زِلنا في غفلةٍ ساهون ، ولا حول ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم .

هـٰذا وقد لمح بعضُ العلماء في تمثيل الناسِ بالفَراش ، أن الفَراش تَتَضَرَّرُ بِشِدَّة النور ، فتقصِدُ إطفاءه ، فلشدة جَهْلها وَرَّطَت نفسَها فيما لا قدرةَ لها عليه ، وكان فعلُها ذٰلك سببًا لهَلاكها ، وعلى هـٰذا المعْنَى تكون الكافُ أي الضمير في قوله ﷺ « فأنا آخذُ بحُجَزكم » لأمة الدعوةِ الشاملةِ لمَنْ كَفَر بها لأنَّه لا يحاول إطفاءَ نُور الشريعةِ ، ويحاربُها متضرِّرًا منها إلا كافرٌ بها .

وهـٰذا من جوامعِ كلمِه ﷺ .

* * *

٣٥ - ح - إنما يتذكر أولوا الألباب .

أخبر اللهُ عز وجل في سورة الرعدِ عن مآل السعداءِ أهلِ الحقِّ ومآلِ الأشقياءِ أهلِ الباطلِ ، بعد أن ضَرَبَ المثَلَ للحقِّ وللباطلِ وبيَّن شأنَهُما في الحال والمآلِ ، شَرعت الآياتُ بعد ذلك في بيان حالِ أهلِهما ومآلِهما ترغيبًا في اتِّباع الحقِّ ، وترهيبًا من الباطل ، ولنتدبرْ قولَه تعالىٰ : ﴿ **لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ** ﴾[1] .

وهٰذه بُشرىٰ لأهل الطاعةِ ، والانقيادِ لأوامرِ اللهِ الذين أجابُوا إلى ما دعاهم اللهُ إليه من التوحيد والنبواتِ ، وصَدَّقوا بما أخبر اللهُ به في كُتبِه وعلى ألسنة رسلِه ، هٰؤلاء لهم ﴿ **ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾ أي الجزاءُ الذي هو في نهايةِ الحُسْن ، لهم الكرامةُ والتأييدُ في الدنيا ، ولهم النعيمُ المقيمُ في الآخرة .

أمَّا الذين لم يُجيبوا إلى الإيمان بالله ، ولم يُطيعوه سبحانه ، ولم يَمْتَثِلُوا أوامرَهُ ، ولم ينتهُوا عَمَّا نَهَىٰ عنه فإن مصيرَهم إلى جهنَّمَ حيث العذابُ الذي لا تُطِيقُه الجبالُ الرواسي ، لهٰذا فإنَّهم من شِدَّة ما يَرَوْنَ من هوْل العذابِ لو استطاعُوا أن يجعلوا ما في الأرض جميعًا ومثلَه معه فِديةً لأنفسهم لفعلوا ، فإن المحبوبَ - أولا - لكل إنسانٍ هو ذاتُه ، وما سِواها فإنما يُحَبُّ لكونه وسيلةً إلى مصالح الذاتِ ، فلو كان الواحدُ من أهل جهنَّمَ مالكًا لهٰذه الدنيا كلِّها وَلِمِثْلِ ما فيها من الأموال

---

(١) الرعد : ١٨ .

لجعله فِداءً لنفسه . وأنَّىٰ له ذٰلك ؟ إنها الندامةُ بعد فواتِ وقتِها ، وإنها الحسرةُ يومَ لا تنفعُ الحسرة .

وفي هـٰذا من البيان ما يَردع أهلَ العقلِ عن الغَيِّ والشرِّ ويردُّهم إلى الطريق السويِّ ليُعِدُّوا أنفسَهم للسعادة الأخرويةِ بالإيمان الصحيحِ ، والعملِ الصالحِ ، واجتنابِ الشرِّ والفساد .

وفي يَوْمِ القيامةِ تُكْشَفُ الخَبايا ، وتُفْضَحُ النَّوايا ، وَيُحَاسَبُ المخذولون أهلُ الباطلِ على الصغير والكبير ، والجليلِ والحقير ، وفي الحديث : « مَن نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ » ذاك أنَّ كفرهم أَحْبَط أعمالَهم ، وارتكابَهُم الشرورَ والآثامَ رَان على قلوبهم وجعلَها تستمرئُ الغَوايةَ والضلالةَ ، كما أن حُبهم للدنيا جعلهم يُعرضون عَمَّا يُقرِّبهم إلى الله زُلفىٰ ، فباءوا بالخسران والهوانِ والنَّكال ، وصار مأواهم جهنَّمَ ، وبئس المسكنُ مسكنُهم يومَ القيامة : ﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ** ﴾ إذ إنهم غَفلوا عمَّا يُقرِّبهم إلى ربِّهم ، وَيُنيلهم كرامتَه ورضوانَه ، واتَّبعوا أهواءَهُم ، وانغمسُوا في الشهوات ، وَفُتنوا بالشبهات ، فحقَّت عليهم كلمتُه سبحانه : ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾[1] .

بعد هـٰذا ضَرَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ مثلًا للمؤمن والكافرِ فقال : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ** ﴾ .

إنَّ الذي أنزله اللهُ على النبى محمدٍ ﷺ هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه ، ولا مِريةَ

---

(١) هود : ١١٩ .

فيه ، ولا لَبْسَ ولا اختلافَ فيه ، بل هو كلُّه حَقٌّ يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا ، لا يُضَادّ شيءٌ منه شيئًا آخرَ ، فأخبارُه كلُّها حقٌّ ، وأوامرُه ونواهيه عَدْلٌ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[1] ، أي : صِدقا في الإخبار ، وعَدْلا في الطلب .

وَإنَّه لا يَستوى مَن يعلمُ هٰذا ويُؤمن به ، ويُوقن أن الذي أنزله اللهُ عليك يا محمدُ هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه ، ومَن لا يعلم مِمَّن عَمِيَت قلوبُهم فهم لا يَهتدون إلى الخير ولا يفهمُونه ، ولو فَهِمَه ما انقاد له ، ولا آمَنَ به ، ولا اتَّبعه ، لاختياره الضلالةَ على الهُدىٰ .

إنَّهما ضِدَّان فريقٌ على هداية ورشادٍ ونورٍ ، وآخرُ على عَمىً وضلال وظلامٍ ، قومٌ انتفعوا بما سَمِعوا من كتاب اللهِ عز وجل وعقَلُوه وَوعَوْه واتَّبعوا نبيَّ الهُدىٰ ﷺ ، وآخرون كَمَن هو أَعْمَىٰ عن الحق ، فلا يُبصِرُه ولا يَعْقِلُه ، والمرادُ بالعمَى عَمَى القلوبِ ، والجاهلُ بدين اللهِ عَمِيُّ القلبِ لكثرة ما عليه مِنْ رانِ المعاصي والذنوبِ فهو محجوبٌ عن نور الوحْي .

إنه لا استواءَ بينهما ، كما لا يَستوي الأعمىٰ والبصيرُ ، وكما لا تَستوي الظلماتُ والنورُ ، إنها أضدادٌ لا تجتمع في مكانٍ واحدٍ في وقت واحدٍ ، وإنَّما تُعرَفُ الأشياءُ بأضدادها ، كما يُعرف الظلُّ بضوء الشمسِ ، وكما في الفرق بين الحياةِ والموت ، والأمواتِ والأحياءِ ، واللهُ عز وجل يقول من سورة فاطر : ﴿ ... إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا

---

(١) الأنعام : ١١٥ .

﴿ ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[1] .

فتأمل – ياذا اللبِّ – هـٰذا التمثيلَ ، تمثيلَ المؤمنِ بالبصيرِ وبالحيِّ وتمثيلَ الملحدِ والكافرِ والمشركِ بالأعمىٰ وبالميِّت ، إذ الحياةُ الحقَّةُ هي حياةُ القلبِ فينتفعُ المرءُ بظاهره وباطنِه ، فإذا فُقِدَ الإيمانُ ماتَ القلبُ فلم يُنْتَفَعْ به والعياذُ بالله .

إنَّ في هـٰذا التأملِ ما يدفعُ بذوي الألباب إلى الانتفاع بالأمثالِ والاعتبارِ والاتعاظِ فيُقبلون على الخير والنورِ والهُدىٰ ويُعرضون عن الشر والظلامِ والحيرة . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي إنَّما يعقِلُ ويَنتفِعُ ويَتَّعِظ أولوا العقولِ السليمة ، والأفكارِ المستقيمة ، جعلنا اللهُ منهم بفضله وإحسانه .

بعد أن ضرب اللهُ المثَلَ لِمَن اتَّبع الحقَّ ، وسلك سبيلَ الرشاد ، ولمن رَكِبَ رأسَه ، وسار في طرق الضلالةِ غيرَ مُبالٍ بالعاقبة ، ولا متدبرٍ في المصير ، بعد هـٰذا بيَّن صفاتِ أولي الألباب الذين جمعوا صفاتِ الخيرِ واتبعُوا الحقَّ ، وآمنوا إيمانا صحيحا ، وأقاموا دعائمَ الإيمان ، وهـٰؤلاء قد كُتب لهم حُسْنُ العُقْبىٰ والسعادةُ في الدنيا والآخرة .

هـٰؤلاء هم أولو الألبابِ حقًّا ومن صفتهم الوفاءُ بالعهد ، وعدمُ نَقْض الميثاق ، وَيَصِلُون الرحِمَ ، ويخافون ربَّهم بالغيْب ، ويخشَوْن موقفَهم بين يدي عَلَّام الغيوب للحساب ، ويحذَرون مناقشتَه إياهم وعدَمَ الصفحِ لهم عن ذنوبهم ، وهم من أهل الصبرِ والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضائه ، وَيُحافظون على الصلوات ، ويُنفقون المالَ في وجوه الخيرِ رغبةً فيما عند اللهِ من الرحمة ، وهم من أحاسن الناسِ أخلاقا ، وأطيبِهم عِشرة ، وأوسعِهم صَدْرًا لا يُجْزُونَ بالسيئة

---

(١) الآيات : ١٨ : ٢٢ .

السيئةَ ولكن يَعفُون ويصفحُون اقتداءً بالحبيب المصطفىٰ ﷺ .

إنَّهم جَادُّون في طاعة الله ، مُحافظون على اتِّباع أوامرِه سبحانه ، وترك نواهيه رجاءَ رحمتِه ، وخوْفًا من عقوبته ، وفيهم يقول اللهُ عز وجل : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ** ﴾ .

أي : إنما يتذكر أولو الألباب الموفُون بعهد الله ، والعهدُ اسمٌ للجنس ، أي بجميع عهودِ الله ، وهي أوامرُه ونواهيه التي وَصَّىٰ بها عبيدَه ، ويدخلُ في هٰذه الألفاظِ أداءُ جميع الفرائض ، وتجنُّبُ جميع المعاصي . كما يدخل في العهد ما بين العبدِ وأخيه من العهود والمواثيقِ ، فَمِن شأن أهلِ الإيمانِ أنهم ليسُواْ كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدُهم غَدر ، وإذا خاصم فَجَر ، وإذا حدَّث كذَب ، وإذا ٱؤتُمِنَ خان ، بل إن المؤمنَ إذا عقَد في طاعة اللهِ عهْدًا لم ينقُضْه ، كما أنه يَفِي بما بَيْنه وبين الناس من العقود كالبيع والشراءِ وسائرِ المعاملات والعهودِ التي يَتِمُّ التعاهدُ على الوفاء بها إلى أَجَل .

وقد جاء ذِكْرُ الوفاءِ بالعهد والميثاقِ في بِضْع وعشرين موضعًا من القرآن الكريم عنايةً بأمره ، واهتمامًا بشأنه .

وفي نَقْض الميثاق : مَجَازٌ ، فقد نُقل من نَقْض البناءِ أي هَدْمِه ونَقْضِ الحبْلِ أو الغزْلِ أي حَلِّ طاقاتِه نُقل إلى إبطال ما أَبرمَه ، وقَصْدِ عَدَمِ الوفاء بما عاهد عليه ، فأبرز المعْنَى في صورة حِسِّية ، وفي التنزيل : ﴿ **وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا** ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِ** ﴾[2] ونَقْضُ اليمينِ ونَقْضُ العهدِ نَكْثُه ونَبْذُه وعدمُ البِرِّ والوفاء .

---

(١) النحل : ٩١ .

(٢) البقرة : ٢٧ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ أي مِن صِلَةِ الأرحامِ والإحسانِ إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذلِ المعروف ، ويدخلُ في ذٰلك جميعُ الطاعاتِ ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ قيل : في قطْع الرحم ، وقيل : في جميع المعاصي أي يُراقبون الله فيما يأتون وما يَذَرون من الأعمال ، ويخافون سوءَ الحسابِ في الآخرة ، فهم لذٰلك محافِظون على اتِّباع أوامرِ اللهِ واجتنابِ نواهيه ، مع الجِدِّ في الطاعة خوفًا من عالم السرِّ والنَّجْوىٰ .

والخشيةُ : خوفٌ مقرونٌ بالتعظيم والعلمِ بِمَن تَخشاه ، وَمِن ثَمَّ خصَّ اللهُ بها العلماءَ بدينه وشريعتِه والعالِمين بجلاله وجبروتِه في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾[1] والمرادُ أنهم يَخْشَون رَبَّهم ويخَافُونَه خَوْفَ إجلالٍ ومَهابةٍ .

فطُوبىٰ لِمَن خَشِيَ ربَّه وخاف سوءَ الحساب .

* * *

(١) فاطر : ٢٨ .

٢٦ - ط - حال السعداء وحال الأشقياء ومآل كل فريق .

جاء في سورة الرعْد وصفُ أولي الألبابِ مِن ذوي البصائرِ الذين انتفعُوا بالقرآن العظيمِ ، وبما جاء فيه من الحِكَم والأحكامِ والعِبَرِ والعِظَاتِ والأمثالِ فهم : أوفياءُ بالعهْد ، ويَصِلُونَ الأرحامَ ويُحسِنُون إلى الفقراء والمحاويج ، ويَبذلُون المعروفَ ابتغاءَ وجْهِ اللهِ عز وجل ويُراقِبون اللهَ عزّ وجل فيما يأْتون وما يَذَرون من الأعمال ، ويَخافون سوءَ الحِسَاب في الآخرة ، ويَحْذَرون مناقشتَه إيَّاهم فيه ، وَمَن نُوقش الحسابَ عُذِّب ، فهم لرَهبتِهم جادُّون في طاعة الله ، مُحافظون على اتِّباع أوامرِه وتَرْكِ نواهيه : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ** ﴾[1] .

إنَّهم أهلُ السَّدادِ والاستقامةِ في جميع حركاتِهم وسكناتِهم ، وفي جميع أحوالهم وأقوالِهم وأعمالِهم ، وَمِن صفاتِهم أنهم يَصبِرون على طاعةِ اللهِ عز وجل ويَصبِرون عن معصيتِه ، كما يَصبرون على الشدائِد والرزايا والحوادثِ والنوائبِ طلبًا لِرضا ربِّهم عز وجل ورجاءَ رحمتِه وعفوِه ، فهم يمتثلون أوامرَ الله ، ويتأدَّبُون بأدب القرآنِ العظيم ابتغاءَ مرضاتِه سبحانه ورغبةً في جزيل ثوابِه لا رياءً ولا سُمعة ، ولا ينظرون إلى جانب الخَلْق ، ولا إلى جانب أنفسِهم زينةً وعُجبا .

---

(١) الرعد : ٢٠ و ٢١ .

وإنهم يُؤدون الصلاةَ بحدودها ومواقيتها وركوعِها وسجودِها وخشوعِها على الوجْهِ الشرعيِّ المَرْضِيِّ ، إنهم يَتحرَّون أداءَ الصلوات المكتوباتِ في مواقيتها مع تمامِ الأركانِ والهيئاتِ والطمأنينةِ احتسابًا لوجْه اللهِ عزوجل ،كما أنهم يُبادرون إلى الخيرات بالإنفاق مِمَّا رزقَهم اللهُ عز وجل إقرارا بِفَضْلِه سبحانه ، وَشُكْرا للمنعم الوهَّاب على ما أَنْعَم ، إنهم يُنْفِقُون مِمَّا رزقهم اللهُ سِرًّا فيما بينهم وبين ربِّهم ، وعَلانيةً بحيث يَراهم الناسُ لأن قلوبَهم عامرةٌ بالإيمان ، وبالإخلاص لا يَلتفتِون في طاعتهم إلى غيرِ مولاهم سبحانه وتعالى ، إنهم يُنفقون على الذين يجبُ عليهم الإنفاقُ عليهم بلا تقتير ولا إسرافٍ كالزوجات والأولاد والأقاربِ الفقراءِ مِمّن تَجِبُ نفقتُهم عليهم ، كما أنهم يبذلون المالَ سَخِيَّةً به نفوسُهم على المساكين والْمحاويج .

وهٰؤلاء الذين عَلِموا أنَّ ما أُنزِل على النبيِّ محمد ﷺ هو الحقُّ واتَّبعوه وتأدَّبوا بأدب الوحْي ، وأطاعوا ربَّهم ، واقتدَوا بنبيِّهم ، هٰؤلاء يَدفعون الشرَّ بالخير ، ويُطفئون النَّارَ بالماء ، وَيُجازُون الإساءةَ بالإحسان ، وكما قال ابن عباس : يَدفعون بالعمل الصالح السيئَ من الأعمال ، وكما قال سعيدُ بنُ جُبير : يدفعون المنكرَ بالمعروف ، وكما قال غيرُه : يدفعون الظلمَ بالعفْو ، وَسَفَهَ الجَاهِلِ بالحِلْم ، كما أنهم إذا هَمُّوا بسيِّئَة رَجَعُوا عنها واستغفَروا ، ويتوبون من الذنب ، ولنتدبر قوله تعالىٰ : ﴿ **وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ** ﴾[1] .

أي هٰؤلاء الذين وُصِفُوا بتلك الْمحاسنِ ، والكمالاتِ الإنسانيةِ التي بلَغت

---

(١) الرعد : ٢٢ .

الغايةَ في الشرَّف والجمالِ هم الذين لهم العُقْبىٰ الحسنةُ في الدار الآخرة ، ثم بيَّن هٰذه العُقبىٰ وفسَّرها سبحانه بقوله : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ وعَدْن مأخوذٌ من عَدَنَ بالمكان إذا أقام فيه ، أي جنّاتُ إقامة دائمةٍ يُخَلَّدون فيها لا يَخرجون منها أبدا ، وجاء عن ابن عمرَ – رضي الله عنهما – كما نقل ابنُ كثير عن الطبرى : « إنَّ في الجنَّة قَصْرًا يُقال له عَدْن ، حولَه البروجُ والمروجُ فيه خمسةُ آلافِ بابٍ على كل بابٍ خمسةُ آلافِ حِبَرَةٍ[1] ، لا يدخلُه إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شهيدٌ » والحبرَةُ نوعٌ من البُرود اليمنية .

وفي جنات عَدْن يَجدُ أهلُ الإيمان الأُنسَ باجتماع الأهلِ والمحبين الصالحين : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾[2] . فيالَسعادةِ الأسرةِ الصالحةِ ، التي يتعاونُ أفرادُها على طاعةِ الله ، ويسعَوْنَ في دنياهم فيما يُرضي الله عزوجل ، إنَّ الله سبحانه وتعالى يجودُ عليهم برحمته وفضلِه يومَ القيامة ، فيجمعُ سبحانه بين أهلِ الجنةِ وبين أحبابِهم من الآباء والأهلين والأبناء ، مِمّن هو صالحٌ لدخول الجنَّة من المؤمنين ، لِتَقَرَّ أعينُهم بهم ، حتى أنَّه تُرفَعُ درجةُ الأدنىٰ إلى درجةِ الأعلىٰ من غير تنقيصٍ لذٰلك الأعلىٰ عن درجته ، بل امتنانًا من الله وإحسانا ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[3] ، وما ألتناهم أي ما نقصنا الآباءَ بِهٰذا الإلحاقِ .

---

(١) الحِبَرَة : بفتح أوّله وكسره ، وفتح ثانيه : ثوب أو كساء من قطن أو كتان مخطّط كان يصنع باليمن ، والمقصود : الستور ذات الألوان والنقوش .

والجمع : حِبَر : بفتح أوله أو كسره ، وفتح ثانيه ، والحبير : الثوب الناعم الموشّى .

(٢) الرعد : ٢٣ .

(٣) الطور : ٢١ .

إن الدارَ غَدًا داران : الجنَّةُ للمطيع ، والنارُ للعاصي ، وتتمُّ النعمةُ غَدًا على الأُسرة المؤمنة الصالحةِ ، وعلى الأهل والمحبين بأن يجعلَهم رَبُّهم مجتمعين مع قَراباتهم من أهل الصلاح في جَنَّات النعيم ، وإن النفسَ لَتَسْعَدُ وتأنسُ بالجليس الصالح ، وبالذريَّةِ الصَّالحة ، والأهلِ الصالحين .

وفي الآية الكريمةِ إيماءٌ إلى أنه في ذٰلك اليومِ لا تُجْدِي الأنسابُ إذا لم يُسعِفْها العملُ الصالحُ : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾[1] فَمَنْ بَطَّأَ به عملُه لم يُسرِع به نسبُه ، وكما قال النبيُّ ﷺ لفاطمةَ – رضي الله عنها : « يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ، سَليني من مَالي ما شِئْتِ ، فإني لا أُغني عَنْكِ من الله شَيْئًا » .

ومع نعيم الجَنَّة ، والسعادةِ بالأهلِ والجليسِ الصالح ، والزُّمرةِ الطيبة ، يَزيدُهم ربُّهم إكرامًا فتدخلُ عليهم الملائكةُ الكرامُ من كل بابٍ للتسليم عليهم ، وتَهنئتِهم بما حصَل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامةِ في دار السلام ، في جوار الرسلِ والأنبياءِ والشهداءِ والصِّدِّيقين : ﴿ **وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ** ﴾ أي تقول الملائكة : سلامٌ عليكم ، فأَضْمَرَ القولَ ، أي قد سَلِمْتُم من الآفات والمِحَنِ والمخَاوِف بما احتملتُم مِّن مَشاقِّ الصَّبر ، ومتاعِبه ، والآلامِ التي لاقيتموها في دار الحياةِ الدنيا .

فَطُوبىٰ لمَن صبرَ على طاعة الله ، وطُوبىٰ لمن صَبر عن معاصي الله ، وما أعظمَ منازلَ الصابرين على أمرِ اللهِ تعالىٰ ونَهْيِه ! وطُوبىٰ لمن صَبَرَ على الفقر والآفاتِ والآلامِ في الدنيا ، وصَبَرَ على الجهاد في سبيلِ الله .

---

(١) الشعراء : ٨٨ و ٨٩ .

وقد جاء في الأثَر : كان رسولُ اللهِ ﷺ يَأتِي قُبورَ الشهداءِ على رأسِ كلِّ حَوْلٍ ، فيقول لهم : « سَلامٌ عليكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّار » وكذا كان يفعَلُ أبو بكر وعمرُ وعثمانُ رضى الله عنهم . رواه محمدُ بنُ إبراهيم ، وجاء مثلُه عن أبي هُريرة وأخرجه البيهقى ... فطوبَى لمن كانت عاقبةُ دنياه جنَّاتِ النعيم .

وقد جاء في الأثَر عن عبد اللهِ بنِ سلام ، وعلىٍّ بنِ الحُسين رضي الله عنهم أنهما قالا : إذا كان يومُ القيامةِ يُنادِي منادٍ : لِيقُم أهلُ الصَّبرِ ، فيقومُ ناسٌ من الناس ، فيقال لهم : انطلِقُوا إلى الجنَّة ، فتتلقَّاهُم الملائكةُ ، فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنَّة : قالوا : قَبْلَ الحِسَابِ ؟ قالوا : نَعَم ، فيقولون : مَنْ أنتُم ؟ فيقولون : نحنُ أهلُ الصَّبر ، قالوا : وما كان صَبْرُكم ؟ قالوا : صَبَرْنَا أنفسَنا على طاعةِ اللهِ ، وصَبَرْنَاها عَن معاصِي اللهِ ، وصَبَرْنَاها على البلاءِ والمِحَن في الدنيا ، قال علىُّ بنُ الحسين : فتقول لهم الملائكةُ : ادخُلوا الجنَّةَ فَنِعْمَ أجْرُ العاملين ، وقال ابنُ سلام : فتقول لهم الملائكةُ : « سَلَامٌ عليكُم بِمَا صَبَرتُم » القرطبى / تفسير سورة الرعد .

بعد أن قَدَّمت الآياتُ من سورة الرعد أوصافَ المتقين ، وما أعدَّه اللهُ لهم عنده في دار الكرامة ، بما كان لهم من كريمِ الخِصالِ ، وفاضلِ الأخلاق ، بَيَّنتْ الآياتُ بعد ذلك حالَ الأشقياءِ ، ومآلَهم في الآخرة ، ومصيرَهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنَّهم اتَّصفوا بِخلَاف صِفَاتِهم في الدنيا .

ولنتدبر قوله تعالىٰ : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ** ﴾[1] .

---

(١) الرعد : ٢٥ .

إنَّ أُولِي الألبابِ كانوا يُوفُونَ بِعَهْد الله ، وَيَصِلُونَ الأَرْحَامَ ، وَيَرْحَمُونَ الفقراءَ وأهلَ الحاجَة ، أمَّا هـٰؤلاء التُّعساءُ فإنهم ينقضُون عهْدَ اللهِ الذي أَلْزَمَهُ عِبادَه بما أقام عليه من الأدلَّة العقليةِ ، وبما جاءت به الكتبُ التي أنزلها اللهُ على رسلِه كالتوحيد والإيمان بما أخبر اللهُ به عن عالَم الغيب .

وفي نَقْضِ العهْد تمثيلٌ إذْ شُبِّهَ حالُ مَن يخونُ العهْدَ ولا يَفِي به بحالِ مَن يَنْقَضُ غَزْلَهُ بعْد فَتْلِه ، أو يَهْدِمُ بِنَاءَهُ بعْد أن أقامَهُ للتَّنبيه إلى أنَّ هـٰذا لا يليقُ بذوي العقولِ الراجحةِ ، ثم نُقِلَ النقْضُ من المحسوس إلى المعقولِ وهو العَهْدُ لتقويةِ المعنىٰ وتوضيحِه .

ومن خِصال هـٰؤلاء الأشقياءِ أنهم يَقْطَعُون الأرحامَ ، ويكفُرون ببعض الرسُلِ ويُؤمنون ببَعْض : ﴿ **وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ** ﴾ وتأمَّلْ المجازَ في ﴿ **وَيَقْطَعُونَ** ﴾ فهو من قَطَعَ الشيءَ قَطْعًا أي فَصَل بَعْضَه وأبانَه كقَطْع الحبْلِ والخشَبةِ ونحوِهما ، فنُقِلَ من هـٰذا الأمرِ الحسِّيِّ إلى أمورٍ معنويَّةٍ مقرونةٍ بأمورٍ حِسِّيَّةٍ أحيانًا مثلُ : هَجْرِ الأقاربِ وتَركِهم وعَدَمِ التودُّدِ إلى الأرحام ، ومثلُ عَدَمِ الإيمان بجميع الأنبياءِ والمرْسَلين ، وإن نَقِيضَ القطْعِ الوصْلُ ، مِنْ وَصَلَ الشيءَ بغيرِه فاتَّصَل ، ووصَّل الحِبَالَ وغيرَها تَوصِيلا : وَصَلَ بعضَها ببعض ، ومن المجاز وَصَلَ رَحِمَه ، وأَمَر اللهُ تعالى بِصِلَةِ الرَّحِمِ ، فكأنَّ هـٰؤلاء قَطَعُوا حَبْلًا أُمِرُوا بالمحافظة عليه مَوصُولًا ، فانظُر إلى المعنىٰ ، وقد ظَهَر في صورةٍ محسوسةٍ مع الطِّباقِ بين : يَقْطَعُونَ وأن يُوصَلَ ، مِمّا زاده وَضُوحا وتأكيدًا ، مع الإيجاز في اللفظِ ، وقوَّةِ التعبير ، والثراءِ في المعنى .

فطوبَىٰ لِمَن آمنَ بجميع الأنبياءِ المجتمعين على الحقِّ ، وراعىٰ حقوقَ الأرحام ، وَوالَىٰ المؤمنين .

كما أنَّ هـٰؤلاء الأشقياءَ مصدرُ فَسادٍ وإفسادٍ في الأرض بِكُفرِهم وارتكابِهم المعاصِي وبإظهـارِ العـداوةِ للمؤمـنين وتهييجِهـم الفتـنَ بيـنَ المسلـمين : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ أي الطَّردُ والإبعادُ من رحمَةِ الله عز وجل ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أي سوءُ المُنقَلبِ ، وهو جهنَّمُ جزاءً وِفَاقًا لِمَا أتَوا به من الشرورِ والآثامِ ... وقد وَصَفَتْ سُورةُ الرعدِ حالَ الفَرِيقين ، ومآلَ كلٍّ فريق ، وقابلتْ بينهما ، لِيَسْلُكَ العقلاءُ طرِيقَ أهلِ التَّقوى ، ويَنبـذُوا القبيحَ ، ويُخَالِفُوا أهلَ الشَّرِّ والفسادِ ...

والله أعلم .

* * *

من سورة الجمعة

٢٧ - يحمل أسفارًا نافعة ويشقى بحملها .

الحمد لله الذي تَقدَّست ذاتُه ، وجلَّت صفاتُه ، وتعالت أسماؤه ، وعَظُمت آلاؤه ، لا إلٰه إلا هو ربُّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على نبيه الأمين وآله وأصحابه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1] .

هٰذه الآيةُ الكريمة من سورة الجمعة ، وهي من السور المدنيةِ ، وقد بدأت السورةُ بتوحيد اللهِ وتنزيهه ، ولفْتِ ذوي العقولِ إلىٰ أن كلَّ ما في الكون سمائِه وأرضِه ينطِقُ بتنزيهِ اللهِ عزَّ وجل وتقديسِه ، وتبرئتِه سبحانه وتعالىٰ عن السُّوء وعن مشابهة المخلوقين ، وَيَشْهَدُ لله بالوحدانية وبأنه مُتَّصِفٌ بكل صفاتِ الكمالِ وكلِّ نعوتِ الجلالِ والجمالِ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فهو سبحانه المِلكُ المتصرفُ في الممكنات بالأمر والنَّهي ، وهو المالكُ لجميع الأشياءِ المتصرفُ فيها بإرادته وقدرتِه وحكمتِه ، وهو سبحانه ذو العظمةِ والسلطانِ والغِنَىٰ ، المستغني بذاته

---

(١) الجمعة : ٥ .

وصفاتِه وأفعالِه عن كل ما سِواه ، وهو سبحانه الغنيُّ مطلقا عن كل ما سِواه ، المحتاجُ إليه كلُّ ما عَداه .

وهو سبحانه القُدُّوس : أي المُنزَّه عن سمات النقصِ والعيوبِ وموجباتِ الحُدوثِ ، أو هو مَنْ تقدَّست عن الحاجات ذاتُه وتنزَّهت عن الآفات صفاتُه ، والقُدْسُ : هو الطهارةُ والنزاهةُ .

وهو سبحانه : العَزِيز : أي الغالبُ الذي لا يُغْلَب ، فلا يُنال جنابُه لِعزَّته وعظمتِه وجبروتِه وكبريائِه ، من العِزَّة وهي القوةُ والشدةُ والغلبةُ . ومن معاني العزيز : الذي يستحيلُ وجودُ مثلِه ، وتَشْتدُّ الحاجةُ إليه ، ويصعبُ الوصول إليه ، سبحانه .. سبحانه قد خضع له كلُّ شيء .

وهو سبحانه : الحكيم أي ذو الحكمةِ ، وهي كمالُ العلمِ وإحسانُ العملِ ، أو المنزَّهُ عن فِعْل ما لا يَنبغي له ، ولا يليقُ بجلاله ، وكمالِه ، وهو سبحانه الحكيمُ في خَلْقِه وأمرِه وشرعِه .

إن الحكمةَ في حقِّه سبحانه معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غايةِ الإحكام والإتقانِ والكمال .

وفي سورة الجمعة مِصْداقُ إجابةِ اللهِ لخليله إبراهيمَ ، حين دعا لأهل مكةَ أن يَبْعَثَ اللهُ فيهم رسولًا منهم يتلُو عليهم آياتِه ، ويزكِّيهم ، ويعلِّمُهم الكتابَ والحكمة، وبيانُ أنه – عليه الصلاةُ والسلامُ – رسولُ اللهِ إلى الناس كافة، ثم ذَمَّت السورةُ مَن تَرَكَ العملَ بأحكام التوراةِ ، ولم يُؤمنوا بالنبيِّ محمدٍ ﷺ بعد ظُهوره ، وكان اليهودُ أعلمَ الناسِ بأنه خاتمُ النبيِّين ، لِمَا يَعرِفون من صِفته ﷺ وصفةِ زمانِه الذي يُبعَثُ فيه مِمَّا جاء في التوراةِ ، كما قال الله تعالىٰ من سورة البقَرة :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

أي لمَّا جاءهم القرآنُ الكريمُ يدعوهم إلى الدخول في الإسلام واتباع النبى محمدٍ ﷺ كما دعتهم التوراةُ إلى ذٰلك ، وكان اليهودُ يتحدثون بذٰلك إلىَ العرب ، ويطلبون الفتْحَ والنصرَ عليهم بعد ظهورِ النبىِّ العربى المنتظرِ واتباعِه ومحاربةِ الشِّركِ معه ، ولكنهم لما علموا بأنه عليه السلام قد بُعث حَسَدوا وجَحَدوا ، وكفَروا إلا مَنْ عَصَم اللهُ عز وجل منهم ، كما أشارت سورة الجمعة إلى طلب مُباهلة اليهودِ لادِّعائهم أنهم أولياءُ لله من دون الناس ، ثم حثَّت الآياتُ في ختام السورةِ على التجارة الرابحةِ الباقيةِ ، وهي طاعةُ الله والحِرصُ على أداء الصلاة ، والسعْيُ إلى صلاة الجمعةِ في أولِ وقتِها ، ثم السعْيُ على الأرزاق بعد ذٰلك مع عدم الغفلةِ عن ذكرِ الله عز وجل ، وفي ختام السورةِ عُوتب المؤمنون على تركهم النبىَّ ﷺ وهو يخطبُ قائمًا ، وانصرافِ عددٍ كبيرٍ منهم عن الخطبة يومَ الجمعة إلى التجارة التي قَدِمَتْ المدينةَ يوْمَئِذٍ وكان مع التجارة لهوٌ . ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي لمَن أحسنَ التوكُّل عليه ، وطلب الرزقَ في وقته ، وأدَّىٰ العبادةَ في وقتها .

هٰذه لمحةٌ عَمَّا جاء في هٰذه السورة الكريمةِ التي ذَمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها اليهودَ الذين أُعطوا التوراةَ ، وَحُمِّلوها للعمل بها ، فلم يعملوا بها ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أي كُلِّفوا العمل بها ، وعُلِّمُوها : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ : أي لم يعملوا بها ، ولم ينتفعوا بما عُلِّمُوا ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ

---

(١) آية : ٨٩ .

﴿ أَسْفَارًا ﴾ هي جَمْعُ سِفْر ، وهو الكتابُ الكبير ، لأنه يُسفِر عن المعنىٰ إذا قُرِئ ، قال ميمونُ بنُ مَهران : الحمار لا يَدري أَسِفْرٌ على ظهره أو زَبيل[1] ؟ فهٰكذا اليهود ، وفي هٰذا تنبيهٌ من الله تعالىٰ لمَن حُمِّلَ الكتابَ أن يتعلَّم معانِيَهُ ، ويعلمَ ما فيه ، ويعملَ بما علم من الخير والطاعاتِ ممتثلا أوامرَ الله ونواهِيَه لئلَّا يَلْحَقَه من الذمِّ ما لحِقَ هٰؤلاء .

إن الذمَّ تَوجَّه إلى اليهود في هٰذه الآيةِ الكريمةِ لأنهم حَفِظُوا التوراةَ لفظًا ، ولم يَفْهموها ، ولم يَعملُوا بمقتضىٰ التوراة ، بل أَوَّلوها وحَرَّفُوها وَبَدَّلُوها ، وذٰلك مِثْلُ قولِهم : إن الرسولَ محمدًا ﷺ لم يُبعث لنا ، فردَّ الله عليهم مقالهم بأنهم لوفَهِمُوا التوراةَ حقَّ الفهم ، وعَمِلوا بما فيها لرأَوْا نَعْتَ النبى محمدٍ ﷺ والبشارةَ به ، وأنه يَجِبُ عليهم اتباعُه ، وما مَثَلُهُم في حَمْلِهم التوراةَ على هٰذا النحو بلا فَهْمٍ ولا عملٍ إلا كَمَثَل الحمارِ إذا حَمَلَ كتبًا لا يَدري ما فيها ، فهو يَحْمِلها حَمْلًا حِسِّيًّا ولا يَدرِي ما عليه ، بل إنهم أسوأُ حالًا من الحمير ، لأن الحمار لا فَهْم له ، وهٰؤلاء بشرٌ لهم فُهُوم لم يستعملوها ، وعقولٌ لم يستخدموها استخداما صحيحا في فَهْم آياتِ الله في كتابه ، والانقيادِ لأمره سبحانه ، وفيهم وفي أمثالهم جاء قولُه سبحانه في سورة الأعراف : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[2] .

وهٰذا مَثَلٌ ضربه الله لليهود لمَّا تركوا العملَ بالتوراة ، ولم يَقْدُروها حقَّ قَدْرِها ، ولم ينتفعوا بما تضمَّنته من عقيدةٍ وشريعة ، ولم يؤمنوا بالنبى محمدٍ ﷺ ، وهو مَثَلٌ فيه دِقَّةٌ وروعةٌ وجمالٌ ، وفيه شُبِّهَ اليهودُ والتوراةُ في أيديهم وهم لا يعملون بها ، ولا ينقادون لأوامرها بالحمار يَحمل كتبا وليس له إلا ثِقْلُ الحِمْل من غير فائدة بل هو

---

(١) زَبيل : هو الزِّنبيل كالقُفَّة ونحوها

(٢) آية : ١٧٩ .

العَناء بلا منفعة ، ألا ترىٰ أنها صورةٌ حيَّةٌ ماثلةٌ أمام العَيْن في الآية الكريمةِ : صورةُ الحمار وهو مُشتَهِرٌ عند الناسِ بالبلادة والغباء والجهالةِ المفرِطة ، ويُستخدَم على ألسنتهم عند الذمِّ الشديد في المواقف التي يتبلَّدُ فيها حِسُّ المشبَّهِ ، ويقفُ عقلُه عن التفكير السديد ، والفهمِ والوعي للأمور ، ثم تأمَّـل القَيْـدَ في الصورة ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أي حالةَ كونِه يحملُ كتبًا ، وهـٰذا أبلغُ في الوصف ، وأدقُّ في تأدية المعنىٰ المراد ، وألذعُ في الذمِّ ، مِمّا لو قيل في كلامنا مَثَلا : مَثَلُهُم كَمَثَلِ الحِمَارِ الذي لا يَعْقِلُ ؛ لأن الصورةَ تزدادُ قوّةً والتصاقًا والتحامًا وتكاملًا حين يُقْرَنُ بين المشبَّهِ وهم الذين حُمِّلُوا التوراةَ فلم ينتفِعُوا بما فيها ، وبين الحمارِ يَحْمِلُ أسفارَ العلمِ ، ولا يَدري مِمَّا تضمنته شيئا ، فتمامُ الصورة يأتي من هـٰذا القيدِ أي كونِ المشبَّهِ بهِ وهو الحمارُ مقيَّدًا بحالةٍ خاصةٍ وهي حَمْلُ الأسفارِ مِمَّا جَعَلَ الصِّلةَ بين المشبَّهِ والمشبهِ به قويةً ، وجعَل المعنى المرادَ واضحًا جليًّا ، وجعل الصورةَ دقيقةً واضحةً أخّاذة .

الحكُم عامٌّ :

إنَّ عِلْمَ الإنسان حُجَّةٌ عليه ، وهو مسؤولٌ عن علمه فيما عمل به ، وإن هـٰذا المَثَلَ وإن كان مضروبًا لذمِّ حَمَلَةِ التوراة وقرائِها وحُفَّاظِ ما فيها من بني إسرائيلَ وهم لم يَعملوا بها ، ولم ينتفعوا بآياتها إلا أنها عامةٌ في كل مَنْ عَلِم ولم يَعْمَلْ بِعلمه ، أو تعلَّم الألفاظَ وحَفِظَها ثم لم يَسْعَ إلى فهْمِ دلالاتها ، ولا عَمِل بها ، ويرى ابنُ القيم أن كل من حمل القرآنَ على ظهْر قلب ، فَقَرَأَهُ بغير تدبُّر ، ولا تفهُّمٍ ، ولا اتِّباعٍ له ، ولا تحكيمٍ له ، ولا عَمِل بموجبه فهو كحمارٍ على ظهره حِمْلُ أسفارٍ ثقيلٌ لا يدري ما فيها ، وإنما حظُّه منها حَمْلُها على ظهره ليس إلا ، فحظُّه من كتاب الله كحظِّ هـٰذا الحمارِ من الكتب التي على ظهره ثم يقول — رضي —الله عنه : فهـٰذا المثَلُ وإن كان قد ضُرِب لليهود فهو متناولٌ من حيثُ المعنىٰ

لمن حَمَل القرآنَ فَترك العملَ به ، ولم يؤدِّ حقَّه ، ولم يَرْعه حقَّ رعايته .

وواضحٌ أن الغرض من ضرب هذا المَثَل الذَّمُّ بالجهالة المساويةِ لجهالة البهائم ، وبالتدبُّر في الجَمْع بين الطرفين ؛ المشبَّهِ والمشبَّه به نرى – أيضا – الذمَّ بالشقاء في شيءٍ يتعلق به غرضٌ جليلٌ وفائدةٌ شريفةٌ مع حِرمان ذٰلك الغرض وعدمِ الوصول إلى تلك الفائدة ، ونرى استصحابَ ما يتضمَّنُ المنافعَ العظيمةَ ، والنعمَ الخطيرةَ من غير أن يكونَ ذٰلك الاستصحابُ سببًا إلى نيْل شيءٍ من تلك المنافعِ والنعمِ الجليلة .

والشَّبَهُ مُنتزَعٌ من أشياءَ أُلِّفَتْ وقُرِن بعضُها إلى بعض ، أي من أحوال الحمارِ وهو أنه يحملُ الأسفارَ التي هي أوعيةُ العلوم ، ومستودَعُ ثَمَرِ العقول ، ثم لا يُحِسُّ بما فيها ، ولا يشعرُ بمضمونها ، ولا يفرِّقُ بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيءٍ ، ولا من الدلالةِ عليه بسبيل ، فليس له حظٌّ سِوىٰ أنه يَثْقُلُ عليه ، وَيَكِدُّ جَنبيه .

وفي هٰذا المَثَل تقبيحٌ لعمل اليهود للتنفير من مثله ، لذا قبَّح الله مَثَلَ هٰؤلاء القومِ وذمّه فقال : ﴿ **بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ** ﴾ أي المَثَل الذي ضَرَبه لهم سبحانه ﴿ **وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴾ أي الظالمين لأنفسهم بإعراضهم عن نور الحق .

* * *

من سورة الجاثية

٣٨ - ١ - تعس من اتخذ إلهه هواه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾[1] .

هٰذه الآيةُ الكريمةُ من سورة الجاثيةِ[1] ، وهي من السور المكيةِ ومن مقاصدها : لَفْتُ العبادِ إلى الآيات القائمةِ في الكون وفي خلْق الإنسانِ وسائرِ الحيوانِ مَمَّا يدلُّ على وجود الخالقِ ووحدانيته ، ويُبرهِنُ على كمال قدرتِه وحكمتِه سبحانه وتعالىٰ -، ثم أنذرت السورةُ الكريمةُ الذين كذَّبوا بآياتِ الله ، واستكبَروا عن سماعها .

وبَيَّنت أن الأهواء والأغراضَ الخاصةَ مَزَّقت الأمةَ الواحدةَ ، وجعلتها شِيعًا وأحزابا كما وقع لبني إسرائيل ، فقد أنعم اللهُ عليهم بإنزال الكتابِ وإرسالِ الرسل ، وبعد أن عَلِموا الصراطَ المستقيمَ الذي يجمعُهم على طريقِ الحقِّ فرَّقهم الحسدُ والهوىٰ ليكونَ في ذلك عِبرةٌ لأهل الإسلامِ والإيمان ، لذا نهىٰ اللهُ عز وجلَّ نبيَّه عن اتباع أهواءِ الذين لا يعلمون ، وأمره بالثبات على شريعةِ الإسلام .

ثم جاء التعجُّبُ من حال من يتخذ الهوىٰ إلها فيسيرُ وراء الشبهات والشهواتِ غيرَ مبالٍ بما جاء به الوحْيُ .

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

كما سَفَّهت أحلامَ مُنكري البعث ، مع بناء أحكامهم على الظنِّ والوهم دون نظرٍ في الدليل والبرهان ، فهم يَنسُبون الموتَ إلى مرور الأيام وتوالي الشهور والأعوام ، وقد بَيَّنت السورةُ الكريمةُ أن الله عز وجل هو الذي أوجدنا من العدم وهو الذي يُميتنا ، وسيجمعُنا في يومٍ لا ريب فيه للحساب والجزاء ، وفي القيامة يخسرُ المبطلون ، ويُدخِلُ اللهُ أهلَ الإيمان والصلاح في رحمته ، وَتُكْشَفُ النَّوايا ، وَيُجْزَىٰ كلُّ إنسان بعمله ، فسبحان ربِّ السمـٰواتِ وربِّ الأرضِ ربِّ العالمين ، سبحان من له الجلالُ والعظمةُ والسلطانُ في العالَمَيْنِ ؛ العُلوى والسُّفلى ، وهو المنعم وحده ، وله الحمدُ وحده .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ تعجيبٌ من حال مَن تَرَكَ متابعةَ الهُدَىٰ إلى مطاوعة الهوَىٰ فكأنه يعبدُه ، فالكلامُ على التشبيه البليغ ، فقد شُبِّه الهَوىٰ بالإلـٰه ، ثم قُدِّم المفعولُ الثاني وهو ﴿ إِلَـٰهَهُ ﴾ على المفعول الأول وهو ﴿ هَوَىٰهُ ﴾ للاعتناء بالمفعول الثاني من حيث أنه الذي يدور عليه أمرُ التعْجِيبِ ، أي أفرأيتَ الذي جعل هَواه إلهًا لنفسه بأن أطاعه وبنىٰ عليه أَمْرَ دِينهِ مُعْرِضًا عن استماع الحجةِ الباهرةِ ، وملاحظةِ البراهينِ النيِّرةِ بالكلِّية ، فالمعنىٰ ، انظُر إلى هـٰذا الشخصِ وتعجَّب منه .

إن المشبه به هَـٰهنا في الأصل هو : الإلـٰه ، والمشبَّهَ هو الهوىٰ ، وأصلُ الجملة : هَوَاهُ إلـٰهُهُ ، أي جعل هواه كالإلـٰه فحُذفت أداةُ التشبيه ، لأن الملحدين والكافرين نَزَّلُوا أهواءَهم في المتابعة منزلةَ الإلـٰه ، فَقُدِّمَ في الآيةِ المشبَّهُ به الأصليُّ وهو ﴿ إِلَـٰهَهُ ﴾ وأُوقِع مُشبَّهًا ليُؤذِنَ بأن الهَوىٰ في باب استحقاقِ الخضوع والعبادةِ عندهم أقوىٰ من الإلـٰه عزَّ وجل ، والقرينةُ هاهنا عقليةٌ دالةٌ على أن ﴿ إِلَـٰهَهُ ﴾ هو الخبرُ أي المفعولُ الثاني لاتَّخَذَ لأن المعنىٰ علىٰ ذٰلك .

لقد عَجَّبَ اللهُ سبحانه مِمَّن رَكِبَ رأسَه ، واتَّبع هواه ، وترك هِدايةَ الدين الحقّ ، وأضلَّه اللهُ – عز وجل – وهو سبحانه العليمُ باستعداده وخُبْث طويَّته ، وأنه مِمَّن يَميل إلى تَدسِيَةِ نفسِه ، واجتراحِ الآثام والمعاصي ﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ أي انظُر واعْجَبْ من حال هـٰذا الذي رَكِب رأسَه ، وترك الرشادَ ، وأطاع الهَوىٰ فكأنه جعله إلهًا يعبدُه من دون الله ، فهو لا يَهْوَىٰ شيئا إلا فَعَلَه ، لا يخاف ربًّا ، ولا يَخْشَىٰ عقابا ، وينغمِسُ في شهواته وأهوائِه ، لا يفكِّر في عاقبةِ ما يعملُ ، فهو من المخذولين غيرِ المَوفَّقين للخير ، لأن الله عز وجل قد عَلِم أنه لا يَهتدي وَلَوْ جاءته كلُّ آية ، لِمَا في نفسه الخبيثةِ من الميل إلى الفساد ، ومتابعةِ الشهواتِ ، والإيغالِ في القبيح دون زاجرٍ ولا وازع .

فهو ممن ختم اللهُ على سمعه وقلبه ، فلا يتأثر بموعظةٍ ولا يفكِّرُ في برهان ، وجعل سبحانه على بَصَره غِشاوةً مانِعةً من الاستبصار والاعتبار ﴿ **وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً** ﴾ والكلامُ على التمثيل من قبيل الاستعارة . والخَتْمُ معناه الطبْعُ والتغطيةُ على الشيء فلا يوصَلُ إلى ما فيه ولا يدخلُه شيء كختْم البابِ والإناء ، والغِشَاءُ هو الغطاءُ ، فالختمُ على سمْعِ مَنْ عَبَدَ هَواه ، هو عَدَمُ فهمِه للقرآن إذا تُلِيَ عليه ، وعدمُ استجابتِه للداعي حين يدعوه إلى الإيمانِ بوحدانية اللهِ – عز وجل ، والختْمُ على القلب هو عَدَمُ وَعْيِه عن الحقِّ مفهومَ مخاطباته وعدمُ الفكرِ في آياته ، والغِشاءُ على بصر هـٰذا المخذول هو عدمُ توفيقه إلى النظر في الآيات نَظَرَ إنعامٍ وتدبُّرٍ وتفهُّمٍ للاستدلال بهـٰذه الآياتِ الكونيةِ على عظمةِ خالقِها ، ومدبرِ أمرها ، وعلى كمال سلطانِه ، فكأنَّ غطاءً على بصره يمنعُه أن يُبْصِرَ حُجَجَ اللهِ وآياتِه في الآفاق والأنفسِ فيستدلَّ بها على وحدانية الخالق ، ويعلمَ بها أنه لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، وإذا خُذِلَ العبدُ والعياذُ بالله

فَمَن بعْد اللهِ يَهديه ؟ .

فتأمَّل حال عابدِ هَواه الغارقِ في الشبهات والشهواتِ ، وكأنَّ على قلبه حائلًا وغطاءً محسوسًا يمنع نورَ الإيمانِ من الدخول إليه ، وكأنَّ غطاءً أيضا علىٰ سمْعه لا ينفذُ منه إلَّا ما يُناسِبُ هَواه ، ويمنعُ السمعَ من استقبال البرهانِ والدليل والعِظَةِ والعِبرة مِمّا يَهْدِي إلى الخير ، ويدلُّ عليه ، ويُرشِدُ إليه ، فيصيرُ حالُ المتحدِّثِ معه كحال الراعِي الذي يُنادِي على البهيم الذي يسمع صوتًا ولا يفهم معنىً ، ثم تأمَّل بَصَر المخذولِ يُحَمْلِقُ فيما حوله ولا يُدرك سِرَّ الشيء ، فهو لا يُحدِّث نفسهَ : أنَّ كلَّ مصنوع لا بدَّ له من صانع ، وأن جمالَ الصنعةِ وعظمتَها لَمِن أوضح الأدلة على عَظمةِ الصانع وكبريائِه ، وكمالِ قدرته ، ووحدانيتِه ، فهٰذا الملحدُ المخذولُ يَرَىٰ وكأنه لا يُبصِر ، ولا يَرى ، تأمّل – أيضا – جمالَ التعبير وقوتَه في الخَتْم والغِشَاوةِ والطبْعِ ، وكيف جَعَل هذا التعبير المعنىٰ واضحا جليًّا قويًّا مؤثِّرا في النفس .

﴿ **فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ** ﴾ أي فمن يُوفِّقه لإصابة الحقِّ وإبصار مَحَجَّةِ الرُّشد بعد إضلال اللهِ إيَّاه ، أي لا أحدَ يستطيع أن يفعل ذٰلك ﴿ **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ أي تتعِظُون وتعرِفُون أن الله على كل شيءٍ قدير ، وأنه يفعل ما يشاء ، وأنه ولِيُّ المؤمنين وخاذِلُ المشركين .

قال مقاتل : نزلت في أبي جهل ، وذٰلك أنه طاف بالبيت ذاتَ ليلة ، ومعه الوليدُ بنُ المغيرة ، فتحدثا في شأن النبيِّ ﷺ ، فقال أبو جهل : واللهِ إنِّي لأعلَمُ أنَّه لصادق ، فقال له الوليد : مَهْ – أي اسكُتْ – وما دلَّك على ذٰلك ! ؟ قال : يا أبا عبدِ شمسٍ ، كنَّا نُسمِّيه في صِباه الصادقَ الأمينَ ، فلما تمَّ عقلُه ، وكَمُل رشدُه ، نُسمِّيه الكذابَ الخائنَ ، واللهِ إني لأعلمُ أنه لصادقٌ ! قال : فما يمنعُك أن تصدقَهُ ، وتؤمنَ به ؟ قال أبو جهل : تتحدثُ عني بناتُ قريشٍ أني

قد اتبعت يتيمَ أبي طالب من أجلِ كِسْرَةٍ ، واللاتَ والعُزَّىٰ إنِ اتَّبعتُه أبدًا ، فنزلت : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ... ﴾ الآية ، وهي عامة في أرباب الهوىٰ المنصرفين عن هداية الدينِ الحق ، ونحوُ هذه الآية قولُه تعالىٰ من سورة البقرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

وفي هـٰذه الآيةِ الكريمةِ تَقَدَّمَ السمْعُ على البصر كما في آية الجاثية ، وفي قوله تعالىٰ من سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ ﴾[2] وفي قوله تعالىٰ من سورة المُلك : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾[3] وفي قوله من سورة المؤمنون ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾[4] فاستدلَّ بذٰلك مَنْ فَضَّل السمعَ على البصر ، قال : والسمعُ يُدْرَكُ به الجهاتُ الستُّ وفي النور والظُّلمةِ ولا يُدْرَكُ بالبصر إلَّا من الجهة المقابلةِ ، وبواسطةٍ من ضياءٍ وشُعاع ، وقال غيرُهم بتفضيل البصَرِ على السمْع لأن السمع لا يُدرَكُ به إلا الأصواتُ ، أما البصرُ فتدرَكُ به الأجسامُ والألوانُ والهيئاتُ كلُّها ، وعلى أي حالٍ فالإنسانُ مسؤولٌ عن سمعه وبصره .

إن الإنسانَ إذا اتَّبع هواه ، ولم يُذعن للدين الحق ، ضلَّ ضلالًا بعيدا ، وقاده الهوىٰ إلى ظلمات العقائد الباطلة ، والأعمالِ التي لا يُقرها الشرع ، ولا يقبلها العقلُ المستقيم ، كما أن الهوىٰ يَهْوِي بالإنسان إلى مالا يَليق من الفساد والانحرافِ

---

(١) الآيتان : ٦ و ٧ .
(٢) الآية : ٤٦ .
(٣) الآية : ٢٣ .
(٤) الآية : ٧٨ .

والعِوَج ويصدُّ صاحِبَه عن التدبر الصحيح ، ويحجبُه عن الحق والخيرِ والهُدَىٰ ، وتُؤدِّي الأهواءُ إلى التفرُّق والـتمزُّق والتعادي لأن الحق واحدٌ ، والأهواءُ متعددة ومختلفة . لهٰذا جاء أنَّ أبا أمامةَ – رضي الله عنه – قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول : « ما عُبِدَ تحتَ السماءِ إلٰهٌ أبغضُ إلى الله مِن الهوىٰ » .

قال ابن عباس : ما ذَكَر اللهُ هَوىً في القرآن إلَّا ذمَّه ، قال الله تعالىٰ من سورة الأعراف : ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾[1] ، وفي وصفِ مَنْ غَفَل قلبُه عن ذِكْر اللهِ جاء في سورة الكهف : ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[2] ، وفي التحذير من اتباع الهوىٰ في الحكم بين الناس جاء في سورة ص : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3] ، وفي الذين ظَلموا أنفسَهم بالشرك جاء في سورة الروم : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[4] .

الدين الحق نور ومنجاة من المهالك :

إن الإنسان العاقلَ الحكيمَ الذي ينظر في العواقب هو الذي يجعلُ هواه وميلَهُ تَبعًا لما جاء به الدينُ الحقُّ ، لأنه بذٰلك يستقيم حالُه ، ويسلمُ من الغوائل ، وينجو من المهالك ، إذ طريقُ الدين هو الطريقُ المأمونُ السالمُ من العثَرات وبلزومه يَسلَمُ المرءُ في العاقبة بإذن اللهِ تعالىٰ ، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أن الإيمانَ لا يتمُّ إلَّا بإخضاع الأهواءِ لما جاء به الوحْيُ ، ولفظُ الحديثِ كما رواه ابنُ عمرو : « لا

---

(١) الآية : ١٧٦ .
(٢) الآية : ٢٨ .
(٣) الآية : ٢٦ .
(٤) الآية : ٢٩ .

يؤمِنُ أحدُكم حتَّى يكونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِه » وهٰذا أمارةٌ على العقل السليمِ والفكرِ المستقيم إذ الكيِّسُ العاقلُ السديدُ الرأْي هو الذي يرىٰ نفسَه دوما مقصِّرًا في أداء الطاعاتِ فيجتهد ، ويزدادُ من المبرات والصالحاتِ واضعًا نُصْبَ عينيه الموتَ وما بعد الموتِ من حسابٍ وجزاء ، أمَّا الأحمقُ الفاجرُ القصيرُ النظرِ الفاسدُ الرأي والفكرِ فهو الذي يُطلق نفسَه وراء هواها وشهواتِها ، وَيُسرِفُ على نفسه ، فيقصِّرُ في الطاعة ، وَتُذِلُّه الدنيا ، وتستعبدُه الملذاتُ العاجلةُ ، ويغفُلُ عن الآجلة ، وقد جاء في الحديث الشريف : « ثلاثٌ مهْلكاتٌ ، وثلاثٌ مُنجيات ، فالمهلكات : شُحٌّ مَطَاعٌ ، وهَوَىً مَتَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه ، والمنجياتُ : خشيةُ اللهِ في السرِّ والعلانية ، والقصْدُ في الغِنىٰ والفقر ، والعدلُ في الرضا والغضب » .

قال الشعبى : إنما سُمِّي الهَوىٰ « هَوىً » لأنه يَهوِي بصاحبه في النار ، إن كلَّ شابة وكلَّ شابٍّ بل وكلَّ ذي عقلٍ لو تَرَكَ نفسَه بلا وازع ولا رادعٍ عن الشر والفسادِ لصارت حياةُ الإنسان أسوأَ من حياة السباع في الآجام ، إذ تُنْتَهَكُ الحُرمات ، وتَضِيع الحقوقُ ، وتَفْسُدُ المسالكُ والأخلاقُ ، وتختلُّ الموازينُ تبعا للأهواء والأغراضِ والشهوات ، يقول أبو الدرداء – رضي الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعملُه وعِلمُه ، فإن كان عملُه تبعًا لهواه فيومُه يومُ سُوء ، وإن كان عملُه تبعًا لِعلمه فيومُه يومٌ صالح .

وفي الحكمة لسهل : هواك داؤُك ، فإن خالفته فدواؤك ، لذا كان الدينُ الذي نزل به الوحي من عند الله عز وجل من أعظم النعمِ على العباد لأنه يهذب الضميرَ ، ويُحيي القلب ، ويبينُ للناس ما ينفعهم وما يضرُّهم ، ويوضِّح

الحلال والحرام ، والخيرَ والشر ، ويرسم طريقَ السلامةِ والطمأنينة . وإن الله عز وجل أعلمُ بعباده وبما تصلُح به نفوسُهم وأحوالُهم ، فإذا خضعت الأهواءُ للدين الحقِّ ، وأذعن الخلقُ لأوامر الخالقِ ، وأطاعوه ، واتَّبعوا نبيَّه فازوا وأفلحوا ، لأن الإنسان إذا كان عملُه تبعًا لهواه ساءت عاقبتُه ، وإن كان عملُه تبعًا لعلْمه وإيمانِه بخالقه ومراقبتِه لربِّه فإنه يوفَّق للخير بإذن الله ، ويسلكُ مسالكَ أهلِ الهُدىٰ والصلاح ، والله عز وجل يقول : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ** ﴾[1] . اللهم يا مثبتَ القلوبِ ثبِّت قلوبَنا على دينك وعلى طاعتك واهدِنا لما تُحبه وترضاه .

* * *

(١) النازعات : ٤٠ و ٤١ .

٣٩ - ب - مِن ضَلالِ الذينَ جَعَلوا إلٰهَهُم هَواهُم .

بعد أن بيَّنَتْ سُورَةُ الجاثيةِ أنَّ المشركين قد اتَّخذوا إلٰـهَهُم هواهم ، وأن الله سبحانه وتعالىٰ قد أضلَّهم على عِلْمٍ بِحَالِهم ، وأنه سبحانه قد خَتَم على سمْعهم وقلْبِهم ، وجعل على بَصَرِهم غِشْاوة .

ذكر السياقُ بعد هـٰذا جنايةً أخرى من جناياتهم ، وحماقةً من حماقاتهم ، ذٰلك أنهم أنكروا البعثَ والحياةَ بعد الموت ولم يَلتفِتوا إلى آيات اللهِ في السمـٰواتِ وفي الأرضِ الدالةِ على كمالِ قدرته وسلطانه ، ولم يتدبروا آياتِه في خلق الإنسانِ وفيما بَثَّ من دابَّة ، وفي اختلاف الليلِ والنهار ، وفيما أنزل اللهُ من السماء من المطر فأحيا به الأرضَ بعد موتها ، وفي تصريف الرياحِ وأعاجيبها في حالَيْ ما تأتي به من خيرٍ أو شرٍّ ونَفْعٍ أو ضُرٍّ ، وفي غير ذٰلك من الآيات والبراهين الشاهدةِ بوجود اللهِ ، والدالةِ على وحدانيتهِ وقدرتِهِ ، وأنه سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ ، والذي خَلَقَ الإنسانَ وأوجدَهُ قادرٌ على إعادته وإحيائِه بعْد موتِه للحساب فالجزاءِ .

إنَّ المشركين والمُلْحِدِين يسمَعُون وكأنَّهم صُمٌّ ، ويُبصِرون وكأنَّهم عُمْيٌ لأن الملِحدَ يرىٰ ظواهرَ الأشياء ، ويدركُ منافعَها المادية ، ولا يمتدُّ عقلُه وشعوُره إلى ما تدلُّ عليه المصنوعاتُ من أنَّ صانعًا عظيمًا أوجَدها على مقتضَىٰ الحِكْمة ، لهـٰذا نجدُ الضالَّ الجاحدَ يَميلُ فِكرُه عن الحقِّ ، ويَبني أحكامَه على الظنِّ والوهْم ، لأن الله خَتَم على سمعِه فلا يتأثرُ بالآياتِ تُتلىٰ عليه ليعتَبرَ بها ، ولا يتدبرُها ليعقِلَ ما فيها من الهداية ، وطَبَع على قلبه فهو لا يَعِي الحقَّ ولا يهتدي

أو يسترشدُ إلى صواب ، ولا يفقَهُ الهُدَىٰ ، لذا فقد أدَّىٰ بهم عَمَىٰ البصيرةِ إلى أن يَنسُبوا إلى الدهر والزمنِ ما لا يَقْدِر عليه ، بل مالا يفهمُه ولا يَعِيه ، ولنتدبر قوله تعالىٰ من سورة الجاثية : ﴿ **وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾[1] .

وفي كل عصرٍ ينسُب هـٰؤلاء الملاحدةُ إلى ما يُسَمُّونه (الطبيعة) مالا يقبلُه الفكرُ المستقيم ، وما يأباه العقلُ السليم ، إذ الطبيعةُ أو الآياتُ الكونيةُ ومنها الليلُ والنهارُ ، والشمسُ والقمرُ ، واليابسةُ والبحرُ وغيرُ ذٰلك كلُّها مخلوقاتٌ وجِدَت بعد أنْ لم تكُن ، وهي مسخَّرةٌ لِما خُلِقَت له ، وكما أن لها بدايةً فلا بدَّ لها من نهاية ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ** ﴾[2] وإن المخلوقَ لايمكن أن يَخْلُقَ نفسَه ، ولا يُوجَدَ بدون مُوجِد ، لذا فإن كل آيةٍ في الكون تشهدُ بأنها مصنوعة ، وبأن لها صانعًا أوجدها على مقتضىٰ حكمتِه سبحانه ، وسخَّرها بإرادته ، وأنها لا تملِكُ ضُرًّا ولا نفعا ، ولا تملِكُ أن تتصرفَ في غيرها لأنها مأمورةٌ لا آمِرةٌ ، محكومةٌ لا حاكِمة ، مملوكةٌ لا مالِكة ، إذ الأمْرُ بيد اللهِ وحده ، والحُكم لله وحده ، وهو الذي خلق الخلْق ، وهو سبحانه المُبدِئُ المُعِيدُ ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾[3] .

وقد خلق الله عزَّ وجلَّ الناسَ ، وابتلاهم في الدنيا بالشرِّ والخيرِ فتنةً واختبارًا ، ومصيرُهم إلى الحياة الأبدية ؛ فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ، وقد ضَلَّت أُمَّةٌ يَحْسَبونهم للنفادِ ، ويُظنون أنه لا حياةَ بعد الموت . ولنتدبر : ﴿ **وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا** ﴾ وفي هذا إنكار منهم

---

(١) الآية : ٢٤ .

(٢) إبراهيم : ٤٨ .

(٣) الأعراف : ٢٩ .

للآخرة ، وتكذيبٌ للبعث ، وإبطالٌ للجزاء ، ومعنى : نموتُ ونحْيا : أي نموتُ نحْن ونَحيا أولادُنا من بعدنا ، أي ما ثَمَّ إلَّا هـٰذه الدارُ يموتُ قومٌ ، ويعيشُ آخرون ، وليس هناك بعثٌ ولا قيامةٌ ، وقيل فيه تقديمٌ وتأخير أي : نحيا ونموت .

﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ يعني السنينَ والأيام ، أي يعتقدون أنه ما يُفنيهم إلا مرورُ الأيام والليالي ، فمرورُها هو المؤثِّرُ في هلاك النفوس ، ويُضِيفون كلَّ حادثٍ إلى الدهْر ، قال ابنُ عُيينةَ : « كان أهلُ الجاهلية يقولون : الدهرُ هو الذي يُهلكنا ، وهو الذي يُحيينا ويُميتنا ، فنزلت هـٰذه الآيةُ ، لأنَّ أحكامَهُم هـٰذه مبنيةٌ على الوهْم والتخْمِينِ من غير حُجَّةٍ ولا نظَرٍ ولا دليلٍ » ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ، أي وما لهم بِقَصْرِ الحياةِ على حياةِ الدنيا ، وَنِسْبَتِهم الإهلاكَ إلى الدَّهر ، ما لهم عِلْمٌ يَستند إلى عقْل أو نقْل ، وقُصَارىٰ أمرِهم الظنُّ والتخمينُ من غير أن يكونَ لهم ما يتمسَّكون به من حُجَّة نافذة .

رَوىٰ أبو هريرة عن النبى ﷺ قال : « كان أهلُ الجاهليةِ يقولون ما يُهلكنا إلا الليلُ والنهارُ ، وهو الذي يُهلكنا ويُميتنا ويُحيينا ، فَيَسُبُّون الدهرَ ، قال الله تعالىٰ : « يُؤذيني ابنُ آدمَ يسبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ بيدي الأمرُ أُقَلِّبُ الليلَ والنهار »[1] .. ومن قوله « قال الله » الحديثُ في البخارى وخرجه مسلم وأبو داود .

ولقد أحسن مَنْ قال :

يا عاتبَ الدهـر إذا نابَـه ... لا تَلُـم الدهـرَ على غَدْره

الدهـرُ مأمـورٌ له آمـــرٌ ... وينتهي الدهـرُ إلى أمـره

---

(١) قرطبى / الجاثية .

كم كافرٍ أموالُه جمَّة تزداد أضعافا على كفره

ومؤمنٍ ليس له دِرهمٌ يزداد إيمانا على فقره

اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ :

لقد كان الجاهليون يعتقدون أن الدهر هو الفاعلُ ، فكانوا إذا أصابهم ضُرٌّ أو ضَيْم أو مكروهٌ نسبوا ذٰلك إلى الدهر ، فقيل لهم : لا تسبُّوا الدهرَ ، فإن اللهَ هو الدَّهْر ، أي إنَّ اللهَ هو الفاعلُ لهٰذه الأمورِ التي تُضيفونها إلى الدهر ، فمن سبَّ الدهرَ رجَعَ السبُّ إليه سبحانه وتعالىٰ فنُهوا عن ذلك . وفي الحديث القدسي يقول ربُّ العزة والجلال : « يُؤْذِيني ابنُ آدَم يقول : يا خيبةَ الدهرِ ، فلا يقولَنَّ أحدُكم يا خيبةَ الدهرِ ، فإنِّي أَنَا الدهْرُ أُقلِّبُ ليلهَ ونهارَه ، فإذا شِئتُ قبضتُهما » في مسلم مِثْله .

وفي هٰذا تصحيحٌ للعقيدة ؛ إذ الفاعلُ في الحقيقة للأمور التي يُضِيفها الإنسانُ إلى الدهْر وإلى الزمنِ هو اللهُ تعالىٰ وحده ، والزمنُ إنما هو ظَرفٌ لمواقع هٰذه الأمورِ ، قال الشافعيُّ وغيرُه من الأئمة – رضي الله عنهم – في تفسير قوله ﷺ : « لا تسبُّوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » قالوا : كان العربُ في الجاهلية إذا أُصيبوا بشدة أو بلاء ، قالوا : يا خيبةَ الدهر ، فيُسنِدون تلك الأفعالَ إلى الدهر وَيَسبُّونه ، وإنما فاعلُها هو اللهُ تعالىٰ ، فكأنهم إنما سَبُّوا اللهَ عزَّ وجل لأنه فاعلُ ذٰلك في الحقيقة ، فلذا نُهِيَ عن سبِّ الدهر بهٰذا الاعتبارِ ، لأن اللهَ تعالىٰ هو الدهرُ الذي يَعْنُونه ، ويُسنِدُون إليه تلك الأفعالَ .

وإن الضالَّ عن الحق المعانِدَ إذا تُليت عليه الآياتُ الواضحاتُ والحجَجُ القاطعاتُ بإمكان البعثِ بعد الموتِ لجأ إلى التعنُّت وأعرضَ عن الدليل :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[1] أي إذا تُقرأُ على هـٰؤلاء المشركين آياتُنا المنزَّلـةُ في جَواز البعثِ بعد الموت ، لم يكن لهم من حُجَّة في دحْض هـٰذا إلا أن قالوا : ائتُوا بآبائنا الموتَىٰ نسألُهم عن صِدْق ما تقولون ، وتسميةُ كلامهم الزائفِ حُجَّةً ضرْبٌ من التهكم ، وَمِثْلُ ذٰلك في كلام البلغاء : تحيةُ بينهم ضَرْبٌ وَجِيعٌ ، فقد سُمِّي الضربُ الموجِعُ تحيةً ، و ﴿ حُجَّتَهُمْ ﴾ في الآية الكريمة خبرُ كانَ مقدَّم ، واسمُها ﴿ أَنْ قَالُوا۟ ﴾ أي قولُهم ، فردَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم بقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يَعني بعد كونِكُم نُطَفًا أمواتًا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي كما أحياكم في الدنيا ، ثم أكَّد ذٰلك بقوله تعالىٰ : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شكَّ في هـٰذا الجمْعِ والبعثِ ، فإنَّ مَنْ قَدَر على البدءِ قَدَر على الإعادة ، والحكمةُ قاضيةٌ بأنَّ البعثَ آتٍ لا شكَّ فيه لتُجْزَىٰ كلُّ نفسٍ بما كسَبت ، والأديانُ كلُّها متضافرةٌ على أن البعثَ حاصلٌ وأنَّ الناس سَيخْرجون من قبورهم للحساب والجزاء ، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يُعيدهم كما بدأهم ، ويَستبعِدون عودةَ الأجسامِ بعد تفَتُّتِها وحين تكونُ عِظامًا نَخِرةً باليةً ، كما قال سبحانه ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[2] أي يَرَوْنَ وُقوعَه بَعِيدًا ، والمؤمنون يرونه قريبًا ، وما دعا المشركين إلى ذٰلك الإنكارِ إلا جهلُهم وَقِصَرُ نَظَرِهم ، لا لأنّ فيه شائبةَ رِيْبٍ أو شكٍّ .

وفي هـٰذا تنبيهٌ لذوي العقول الراجحةِ ليُعِدُّوا أنفسَهم ليوم الحساب ، والويلُ لِمَن اتَّخَذَ إلـٰهَه هَواه ، وَبَنَىٰ أحكامَهُ على الظنِّ والتخمين دون استرشادٍ بدين

---

(١) الجاثية : ٢٥ .

(٢) المعارج : ٦ و ٧ .

اللهِ عز وجل يا ويلَ المشركين والملْحدين والضالِّين في يومٍ يقول فيه مالكُ الملكِ سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ * وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

طُوبَىٰ لمن اتَّعَظ :

قال سلمانُ الفارسيُّ – رضي الله عنه – : « إنَّ في يوم القيامةِ لساعةً هي عشرُ سِنين يَخِرُّ الناسُ فيها جُثَاةً على رُكَبِهم حتَّى أن إبراهيمَ عليه السلامُ لَيُنَادِي : لا أسألُكَ اليومَ إلَّا نَفْسي » .

وفي هٰذا الموقِفِ العظيمِ يُقال لهم : هٰذا كتابُ أعمالِكُم يَشْهَدُ عليكم شهادةَ حقٍّ دونَ زيادةٍ ولا نقصٍ ، فهو صورةٌ تطابِقُ ما فعلْتموه ، إنَّا كُنَّا نأمرُ الحفظَةَ بنسْخِ أعمالِكم وكتابتِها وإثباتِها عليكم ، فهي وَفْقُ مَا عَمِلتم في الدنيا بالدقَّة والضبط .

وقد جاء عن عليٍّ – رضي الله عنه – كما عند القرطبي – : إن لله ملائكةً يَنزِلون كلَّ يومٍ بشيءٍ يكتبونَ فيه أعمالَ بَنِي آدمَ .

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي يُبين بيانًا شافِيًا ويشهدُ عليكم شهادةَ حقٍّ لا شُبهةَ فيها ، ثم عَلَّلت الآيةُ مطابقةَ هٰذه الشهادةِ لأعمالهم بقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي نأمر بنسْخِ ما كنتُم تعملون .

وفي هٰذا اليومِ الشديدِ الهولِ ، وقد كُشِفَت الخبايا وفُضِحَت النَّوايا ، وظَهر

---

(١) الجاثية : ٢٧ : ٢٩ .

ما كان خافِيًا على الناس ، إذ ذاك تَتعالىٰ أصواتُ النادمين المتحسِّرين : ﴿ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[1] وقد وَجَدَ الجميعُ ما عَمِلوا ماثِلًا أمامهم ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1] .

فطُوبَىٰ لمن وُعِظَ فاتعظ ، وانتفع بالقرآن العظيم ، وهزَّت قلبَه حِكمُه وأمثالُه وعِبرُه وعظاتُه .

* * *

(١) الكهف : ٤٩ .

٤٠ - « إنَّ الذى أحيـا ها لمحيى الموتى » مَثَلٌ من الواقـع المشاهَد على عـودة الحياة إلى الموتى .

قال الله تعالىٰ من سورة عبس :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾[1] .

سورةُ عبس من السور المكيِّة ، وقد تُسَمَّىٰ سورةَ الصاخَّة وسورةَ السَّفَرة ، وَسُمِّيت عند بعضِهم سورةَ الأعمَىٰ ، وهي في ترتيب المصحَف بعد سورةِ النازعاتِ ، ولمَّا ذكَر الله عز وجل في « النازعات » ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَـٰهَا ﴾[2] أي إنما أنت يا محمدُ منذرُ مَن يَخْشَىٰ الساعةَ ، ويخافُ أهوالَها ، ووظيفتُك الامتثالُ بما أُمِرتَ به من بيانِ اقترابِ الساعة ، وتفصيلِ ما فيها من فنون الأهوالِ بما يُوحَىٰ به إليك ، وليس من وظيفتك تعيينُ وقتِها الذي لم يُفَوَّضْ إليك ولا إلى أحدٍ من الخلْق ، فما لهم يسألونك عمَّا لم تُبْعَثْ له ؟ .

لمَّا ذكَر الله ذٰلك ذكَرَ سبحانه وتعالىٰ في سورة عبس مَنْ ينفعُه الإنذارُ ، ومن لم ينفعْه .

---

(١) الآية : ٢٤ : ٣٢ .

(٢) الآية : ٤٥ .

وَمِمَّا جاء في سورة عبس : عِتابُ رسولِ الله ﷺ على ما حدَث منه مع ابن أمِّ مكتوم ، وهو الرجلُ الأعمىٰ الذي أقبل على مجلس رسولِ اللهِ ﷺ وهو يدعو بعضَ زعماءِ قُريش إلى الإسلام ، وَيُذَكِّرُهم بأيَّامِ الله ، ويُحذِّرهم بطشَه وجبروتَه ، فجاء ابنُ أمِّ مكتوم ، فقال : يا رسولَ اللهِ أقرِئْني وعَلِّمني مِمّا عَلَّمك الله ، وكرَّر ذٰلك وهو لا يعلم تشاغُلَه بالقوم ، فَكَرِهَ الرسولُ ﷺ قَطْعَه لكلامه ، وظهرت في وجهه الكراهةُ ، فعَبَسَ وأعرَضَ عنه ، فأنزل الله عز وجل : بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ** ... ﴾ الآياتُ إلىٰ قولِه تعالىٰ : ﴿ **فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ** ﴾[1] .

وكان الرسولُ ﷺ بعد نزولِ هذه الآياتِ يُكرِمُ ابْنَ أُمِّ مكتوم ، وَيَسأَلُ عنه إذا غاب ، ويقول له إذا رآه : أهلًا بِمَن عاتَبَني فيه رَبِّي ، ثم يسأله : أَلَكَ حاجةٌ ؟ .

ومَا أعظمَها من تربية ! ومَا أشرفَها من قِيم ! .

وفي السورة الكريمةِ تنبيهٌ إلى فضْلِ القرآنِ العظيم ، وأنه ذِكرىٰ وموعظةٌ لمن عَقَلَ وتدبَّر ، ثم أقامت السورةُ الكريمةُ الأدلةَ على وجود الخالقِ ووحدانيته وكمالِ سلطانِه وقدرتِه ، وإذا تأمَّل الواحدُ منا : مِمَّ خُلِق ؟ ثم الأطوارَ التي يمرُّ بها ، ثم تمكُّنَه مِن السعْي فيما قُدِّر له ، وَمَنْحَهُ العقلَ والفهمَ والتمييزَ حتى تنتهِيَ حياتُه ، ويعودَ إلى الأرض : ﴿ **ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ** ﴾ إذا تأملْنا ذٰلك بقلبٍ حيٍّ ، وَفِكْرٍ مُستقِيم ، لآمَنَ الجاحدُ ، وازداد المؤمنُ إيمانًا بربِّه وبالبعث والحسابِ والجزاءِ :

---

(١) الآيات : ١ : ١٠ .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ أي بعثَه بَعْدَ مَوْتِه في الوقْتِ الَّذِي قَدَّرَهُ سُبْحَانَه في عِلْمِه .

ثم ضَربت السورةُ المثَلَ على إمكان البعثِ ، وخروجِ الموتىٰ من قبورهم كنباتِ الزرعِ بعد دُثُوره ، ثم بَيَّنت أهوالَ القيامة وانشغالَ كلِّ امرئٍ بنفسه عن أخصِّ الناسِ لديه ، وفي الآخرة يكونُ الناسُ فريقين ، فريقَ السعداء ، وفريقَ الأشقياء .

هـٰذا بعضُ ما تضمنتْهُ السورةُ الكريمةُ لتنبيه الغافلين ، والتذكيرِ بِنِعَمِ اللهِ عز وجل ، وتطهيرِ النفوس ، وتزكيتِها بالفضائل العاليـةِ والعمـلِ الصالح ، وإعدادِها لتكونَ أهلًا للسعادة الأُخروية .

أَمَّا المثَلُ الذي ضربَه اللهُ –عز وجل– لبعْث الموتَىٰ من قبورهم وأَمَرَ الإنسانَ أن يلتفِتَ إليه ، وَيُطِيلَ النظَرَ والتأمُّلَ ، ليَسْتَدِلَّ بإحياءِ النباتِ من الأرض الهامدةِ على إحياءِ الأجسامِ بعدما كانت عِظَامًا باليةً ، وَتُرابًا مُتَمَزِّقًا ، هـٰذا المَثَلُ بَدأَ بقوله تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ ، أي : فَلْينظُر : كَيْفَ خَلَق اللهُ طعامَه ، وهـٰذا النظرُ وهو نظَرُ القلْب بالفِكر ، أي : ليتدبَّر كيف خَلَق اللهُ طعامَه ، وهو قِوامُ حياته ، وكيف هَيَّأَ له أسبابَ المعاش ، ليستعدَّ بها للمعاد .

وقال الحسنُ ومجاهد : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ أي إلى مَدْخَلِه وَمَخْرَجِه .

وروىٰ ابنُ أبي خيثمةَ عنْ الضَّحاك بنِ سفيانَ الكلابى قال : قال لي النبيُّ ﷺ : « يا ضَحَّاكُ ، ما طعامُكَ ؟ » قلتُ : يا رسولَ الله ، اللحمُ واللبنُ . قال : ثُم يَصِيرُ إلى ماذا ؟ قلتُ : إلى ما قد عَلِمْتَهُ ، قال : فإنَّ الله ضَرَبَ ما يَخْرُج من ابنِ آدمَ مثَلًا للدُّنيا » .

وَرُوي عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنَّ مطْعمَ ابنِ آدمَ جُعِلَ مَثَلًا للدُّنيا ، وإنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ فانظُر إلى ما يَصير » .

وَقَزَّحَه : أي تَبَّلَهُ ، من القَزْح وهو ما يُوضَعُ في القِدر من التَّوابِل كالكمُّون والكُزبرة ونحوِهما ، والجمعُ : أقزاح ، وَيُقال : قَزَح القِدْرَ قَزْحًا : جَعَل فيها التوابلَ ، وَقَزَّحَهَا – أيضا – .

والمعنى : إن المَطْعَمَ وإن تكلَّف الإنسانُ في إعداده وصَنْعتِه وتَطييبِه ما تَكَلَّف فإنَّه عائدٌ إلى حَالٍ يُكْرَهُ ، وَيُسْتقذَرُ ، فكذٰلك الدنيا المحروصُ على عمارتها وَنَظْمِ أسبابِها راجعةٌ إلى خَرابٍ وإدبار .

وللتذكير بحقارة الدُّنيا ، وهوانِها ، حتى لا تَشِحَّ النفوسُ بالفضل على المحتاجين والفقراء ، جاء عن أبي الوليد أنه سأل ابنَ عمرَ : عن الرجل يَدْخُلُ الخَلاء فينظرُ ما يَخْرُجُ منه ، فقال ابنُ عمر : « يَأْتيه المَلَكُ فيقول : انظُرْ ما بَخِلْتَ بِه إلىٰ مَا صَار » .

وكما أن في النظر إلى الطعامِ الذي هُيِّئ حتى يكونَ غِذاءً صالِحًا للجسم ، يُرضِي النفسَ ، وتقومُ به البِنْيةُ ، وفي الفِكْرِ في مَدْخَلِه ومَخْرَجِه ما يَدلُّ على أن الدنيا وما فيها من زُخرف ومتاعٍ وزينةٍ مصيرُها إلى الزوال والانقضاء ، فإن هٰذا التأملَ أيضا يُذكِّرنا بالنِّعم ، ويبعثُ أهلَ العقلِ والحكمةِ على شُكْرِ المنعمِ سبحانه وتعالىٰ والقيامِ بواجبِ الطاعة ، قبلَ انقضاءِ الأجل .

إنَّ الطعامَ الذي نأكلُه إنما هو من بركات السماء والأرضِ كما قَدَّره الحكيمُ الخبير ، وفيه من الآيات والبراهينِ ما يشهدُ بكمال قدرتِه ، وكمالِ تدبيره ، ويدلُّ على أن البعثَ أمرٌ مُمْكِنٌ ، وأنه آتٍ لا محالَة ، ولنتدبر :

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ أي : أنزلَنا الغيثَ والأمطارَ إنزالًا بعْد أن بَقِيَ حِينًا في جَوِّ السماء مَعَ ثِقَلِه .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي : أسكنَّاه في الأرض ، فدخَل في تُخومها ، وتخلَّلَ في أجزاءِ الحَبِّ المودَعِ فيها ، فَنَبَتَ وارتفعَ وظَهَر على وجْه الأرض ، أي شَقَقْناها بالنباتِ من الحبوب ، والفاكهةِ مِمَّا يَنْتَفِعُ به الإنسانُ والحيوانُ ، وما يَرَىٰ فيه المتدبرُ بديعَ الصَّنعةِ ، وباهرَ الحِكمةِ ، وكَمَالَ القدرةِ والتدبيرِ .

﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ أي : كلَّ ما هو معروف من الحبوب كالقمح والشعيرِ والأرزِ ، وسائرِ ما يُحْصَد وَيُدَّخَرُ ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ والعنبُ معروف ومنافعُه كثيرة ، وهو مِن وَجْهٍ غذاءٌ ، وفاكهةٌ مِن وَجْهٍ آخَر ، والقضْبُ : هو القَتُّ والعَلَفُ ، سُمِّي بذٰلك لأنه يُقضَبُ أي يُقْطَعُ بعد ظُهوره مَرَّةً بعد مَرَّة ، وقال ابنُ عباس : هو الرُّطَبُ لأنه يُقْضَبُ من النَّخْل ولأنه ذُكِرَ العِنَبُ قَبله ، وعن الخليل : أنه الفِصْفِصَةُ الرَّطْبَةُ أي القَتُّ الرَّطْبُ ، وأَطْلَقَ بعضُهم القضْبَ على ما يُقضَب من أغصان الشجرةِ ليُتَّخَذَ منها سِهامٌ أو قِسِيٌّ ، كما أُطْلِق على البقول التي تُقْطَع فَيَنْبُتُ أصلُها .

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ والزيتونُ والنخلُ معروفان ، ومنافعُهما كثيرة ، ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ والحدائقُ جَمْع حديقة ، وهي البساتينُ ذاتُ الأشجار المثمرةِ عليها حوائطُ تُحِيطُ بها و ﴿ غُلْبًا ﴾ أي عِظامًا شَجَرُها ، جَمْعُ غَلْبَاءَ بالمدِّ أي ضخمةٌ عظيمةٌ ، وَعِظَمُ الحدائقِ يكونُ بكثرة أشجارِها والتفافِها ، وقد يكون العِظَمُ في نفس الأشجارِ بأن تكونَ كلُّ شَجَرةٍ غَليظةً عظيمةً ، وقد جاء ذِكْرُ الحدائقِ بوصفها ذٰلك لبيان أن النعمةَ فيما تشتمِلُ عليه الحدائقُ بِرُمَّتِه ، فالنعمةُ في الأشجار بِجُملتها لا في ثَمَرِها خاصةً ، لأنه يُنتفَع بأخشابها ، وقد

يُنتفَع بأوراقها ، كما يُنتفَع بِثِمَارها كالتِّين والخَوخ وغيرِهما ، وقد خُصَّت الفاكهةُ بالذكر بعد ذٰلك لأنها مما يَتَمَتَّعُ به الإنسانُ خاصة فقال : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ والأبُّ هو المرعَىٰ لأنه يُؤَبُّ أي يُؤَمُّ ويُقْصَد ، قال ابنُ عباس وغيرُه : الأبُّ كلُّ ما أنبتت الأرضُ مِمَّا لا يَأْكلُه الناسُ ، وما يأكلُه الآدميون هو الحَصِيد ، ومنه قولُ الشاعرِ في مدْح النبيِّ ﷺ :

لهُ دَعْوَةٌ ميمونةٌ ، رِيحُها الصَّبَا بِها يُنْبِتُ اللهُ الحَصِيدةَ والأبَّا

وجاء عن ابن عباس أيضا وغيرِه : الأبُّ : ما تُنبِتُ الأرضُ مِمَّا يَأكلُ الناسُ والأنعامُ ، وقال الكلبيُّ : هو كلُّ نباتٍ سِوى الفَاكِهة .

والمشهورُ عندهم أن الأبَّ ما تَخْتَصُّ به البَهائم – واللهُ أعلم – .

إن هٰذه الخيراتِ ، وتلك البركاتِ التي تَخْرجُ من الأرض إنما هي إمتاعٌ وَعِيشةٌ لكم ولأنعامِكم في هٰذه الدارِ إلى يوم القيامةِ ، وإن دعوةَ اللهِ – عز وجلَّ – لعبادِه للنظر إلى طعامهم ، والتفكُّرِ فيه ، وفي إحياء الأرضِ المَيْتَةِ بالماء ، إن هٰذه الدعوةَ فيها تذكيرٌ وتنبيهٌ ، تذكيرٌ بِنِعَم اللهِ – عزَّ وجلَّ – ليشكروا المنعم ، ويُقِرُّوا بفضْله سبحانه ، ويعبدوه وحده ، وتنبيهٌ بضَرْبِ مَثَلٍ من الواقع الذي يَرونه بعيونهم ، ويُحِسُّونه بأنفسهم ، إذ نحن نرىٰ أثر الماءِ في إحياء الأرض المَيتةِ فتخضرُّ ، وتهتزُّ بألوان الزروع النَّضِرة ، فكذٰلكَ أمرُ البعثِ بعد الموتِ إذْ يُحيي اللهُ الموتَىٰ عند انقضاءِ الدنيا ، فيخرجُون من قبورهم بكاملِ وَعْيهم ، وشُعورِهم للحساب فالجزاءِ ، كما يَخْرج النباتُ من الأرض ، كما قال سبحانه في سورة فُصِّلت : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] سبحانه وتعالىٰ له كمالُ القدرةِ وكمالُ السلطان .

---

(١) آية : ٣٩ .

ثبت المراجع

	اسم الكتاب	صاحب الكتاب	القرن الهجرى
١	الجامع لأحكام القرآن « تفسير القرطبى » طبعة « دار الشعب » بالقاهرة	للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى	السابع
٢	تفسير القرآن العظيم طبعة « دار الشعب بالقاهرة »	للإمام أبو الفداء إسماعيل عماد الدين ابن عمر بن كثير	الثامن
٣	الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل مطبعة « مصطفى البابى الحلبى وأولاده » بالقاهرة	لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى	الخامس / السادس
٤	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني « إدارة الطباعة المنيرية القاهرة » دار إحياء التراث العربي « بيروت »	للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى	الثالث عشر

	اسم الكتاب	صاحب الكتاب	القرن الهجرى
٥	تفسير القرآن الكريم « البيضاوى » « مكتبة الجمهورية العربية » بالقاهرة	للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى	الثامن
٦	تنوير الأذهان من « تفسير روح البيان » دار القلم « دمشق » اختصار الشيخ محمد علي الصابونى	للشيخ إسماعيل حقى البروسوى	الثاني عشر الرابع عشر / الخامس عشر
٧	تفسير الخازن « المسمى : لباب التأويل في معاني التنزيل » « مطبعة مصطفي البابى الحلبى وأولاده » وبهامشة : تفسير البغوى المعروف بمعالم التنزيل	للشيخ علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن للشيخ أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى	السابع / الثامن الخامس / السادس
٨	تفسير المراغي « مطبعة مصطفى البابي الحلبى وأولاده » القاهرة	للشيخ أحمد مصطفى المراغى	الرابع عشر
٩	تفسير القرآن الحكيم « الشهير بتفسير المنار » « وفيه صفوة ما قاله الشيخ محمد عبده في دروسه » « دار المعرفة » بيروت	للشيخ محمد رشيد رضا	الثالث عشر / الرابع عشر

	اسم الكتاب	صاحب الكتاب	القرن الهجرى
١٠	أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن « مطبعة المدنى » القاهرة	للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطى	الرابع عشر
١١	تفسير جزء تبارك « دار الشعب » القاهرة	للشيخ عبد القادر المغربى	الثالث عشر / الرابع عشر
١٢	لطائف الإشارات « المجلد ٤ ، ٥ ، ٦ » « الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر » القاهرة	للعلامة عبدالكريم بن هوازن بن طلحة النيْسابورى القشيرىّ تحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى	الرابع عشر / الخامس عشر
١٣	تفسير جزء عم « دار الشعب » القاهرة	للشيخ محمد عبده	الثالث عشر / الرابع عشر
١٤	مجمع الأمثال « مطبعة عيسى البابى الحلبى » القاهرة	لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميدانى	الخامس عشر
١٥	الأمثال في القرآن الكريم « دار المعرفة » بيروت	للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيِّم الجوزية	السابع / الثامن

	اسم الكتاب	صاحب الكتاب	القرن الهجرى
١٦	الأمثال القرآنية « دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها » « دار القلم » بيروت	تأملات الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى	الرابع عشر / الخامس عشر
١٧	الأمثال القرآنية « دراسة تحليلية » « مطبعة الأمانة » القاهرة	الدكتور محمد بكر إسماعيل	الرابع عشر / الخامس عشر
١٨	أمثال القرآن « إصدار دار المعارف القاهرة »	محمود بن الشريف	الرابع عشر / الخامس عشر
١٩	الأمثال في القرآن الكريم « عالم المعرفة » جدة	الدكتور الشريف منصور بن عون العبدلى	الرابع عشر / الخامس عشر
٢٠	صفوة صحيح البخارى « جماعة الأزهر للنشر والتأليف » القاهرة	الشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر	الرابع عشر
٢١	السيرة النبوية لابن هشام « مطبعة مصطفى البابى الحلبى » القاهرة	للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى	الثاني / الثالث

	اسم الكتاب	صاحب الكتاب	القرن الهجرى
٢٢	أسرار البلاغة « دار المعرفة » بيروت	لأبي بكر عبد القاهر ابن عبد الرحمن الجرجانى	الخامس

من المعاجم اللغوية :

٢٣	أساس البلاغة « دار صادر » بيروت	لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشرى «صاحب الكشاف في التفسير »	الخامس / السادس
٢٤	القاموس المحيط « المؤسسة العربية للطباعة والنشر » بيروت	للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزى آبادى	الثامن / التاسع
٢٥	المعجم الوسيط « دار المعارف » القاهرة	مجمع اللغة العربية « القاهرة »	صدر في القرن الرابع عشر

***

كشاف الكتاب

الرقم	البيان	الصفحة
١	تقديم	٥
٢	١ - تمهيد	٩
٣	من سورة البقرة	
	٢ - أ - أصناف الناس ومثل المنافق .	١٤
	٣ - ب - من السفهاء على الحقيقة .	١٩
	٤ - ج - فقدوا النور وبقي لهم الإحراق .	٢٤
	٥ - د - النفاق حيرة وضلال .	٢٩
	٦ - هـ - الهداية والنجاة على قدر نور الإيمان والعمل .	٣٤
٤	من سورة البقرة	
	٧ - وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه الواحد	٣٩
٥	من سورة البقرة	
	٨ - ذمّ عدم التفكر والتقليد الأعمى .	٤٤
٦	من سورة المدثر	
	٩ - الملحدون والجاحدون . كأنهم حُمُرٌ مستنفرة .	٤٩
٧	من سورة الأعراف	
	١٠ - الطيّب والخبيث	٥٤
٨	من سورة البقرة	
	١١ - أ - في كل سنبلة مائة حبة .	٥٩

الرقم	البيان	الصفحة
	١٢ - ب - لانريد منكم جزاءً ولاشكورًا.	٦٥
	١٣ - ج - المحبطات .	٧٠
	١٤ - د - جنّـة بربْـوة .	٧٥
	١٥ - هـ - السّلامة فى الإخـلاص وحُسْن الخاتمة .	٨٠
	١٦ - و - إن الله طيب لايقبل إلا طيبًا	٨٥
٩	من سورة البقرة	
	١٧ - أ - آكل الربا متخبط فى الدنيا ويُبْعث كالمجنون فى الآخرة .	٩١
	١٨ - ب - أحَلّ الله البيعَ وحَرّمَ الربَا .	٩٧
١٠	من سورة فُصّلت	
	١٩ - نفوسٌ غيرُ مُطمَئِنّة	١٠٣
١١	من سورة البقرة	
	٢٠ - لايُغنى حذر من قدَر .	١٠٩
١٢	من سورة البقرة	
	٢١ - ألسنتهم أحلى مِنَ العسل . أمّا القلوب فأمَرّ مِن الصَّبِر .	١١٤
١٣	من سورة النور	
	٢٢ - أ - «الله نورُ السّمٰوتِ والأرض»	١٢٠
	٢٣ - ب - «قلوبُ العبـاد وقلبُ المؤمن فيه سراج»	١٢٦
	٢٤ - ج - مثل نوره كمشكاة فيها مصباح	١٣٢
	٢٥ - د - أصحابُ الجَهل المركّب	١٣٧

الرقم	البيـــان	الصفحة
	٢٦ - هـ - ظلماتٌ في الدنيا وظلمات في الآخرة وويلٌ للإمَّعات .	١٤٢
١٤	من سورة الحج	
	٢٧ - خاسر الدنيا والآخرة .	١٤٨
١٥	من سورة الرعد	
	٢٨ - أ - كباسط كفّيه إلى الماء .	١٥٤
	٢٩ - ب - نحن عبيده وتحت قهره وسلطانه .	١٦٠
	٣٠ - ج - هل تستوى الظلماتُ والنورُ .	١٦٦
	٣١ - د - الله خالق كل شىء فكيف يُعبد غيره .	١٧٢
	٣٢ - هـ - الحق والباطل .	١٧٨
	٣٣ - و - كذلك يضربُ الله الأمثال .	١٨٤
	٣٤ - ز - النجاة في الوقوف عند حدود الله واتباع نبيّه صلّى الله عليه وسلم .	١٩٠
	٣٥ - ح - إنما يتذكر أولو الألباب .	١٩٦
	٣٦ - ط - حال السعداء وحال الأشقياء ومآل كل فريق .	٢٠٢
١٦	من سورة الجمعة	
	٣٧ - يحمل أسفارًا نافعة ويشقى بحملها .	٢٠٩
١٧	من سورة الجاثية	
	٣٨ - أ - تعِسَ من اتخذ إلهَهُ هواه .	٢١٥
	٣٩ - ب - من ضلال الذين جعلوا إلٰههم هواهم .	٢٢٣
١٨	من سورة عبس	
	٤٠ - " إنَّ الذى أحياها لمحيى الموتى " مثلٌ من الواقع المشاهد على عودة الحياة إلى الموتى .	٢٣٠
	ثبت المراجع	٢٣٧